الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de L'enseignement Supérieur et de La Recherche Scientifique
المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت
Centre Universitaire Belhadj Bouchaib-Ain Témouchent

معهد: الآداب و اللّغات
قسم: لغة و أدب عربي
مخبر:الخطاب التّواصلي الجزائري الحديث

أطـروحــة
مقدمة من أجل نيل شهــادة الــدكتــوراه

ميدان: لغة و أدب عربي
شعبة: دراسات أدبيّة
تخصص: أدب عربي
من إعداد : بلحاج ربيحة

العنوان

النّص و البنى الثقافيّة في أدب الرّحلة عند الحسين الورثيلانيّ

ناقش علنا، بتاريخ 25 / 10/ 2020 ، أمام أعضاء لجنة المناقشة المكوّنة من :

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	مؤسسة الانتماء
أد.حطري سمية	أستاذة التعليم العالي	رئيسا	**المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت**
د. كبير الشيخ	أستاذ محاضر(أ)	مشرفا و مقررا	**المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت**
أد. بويجرة محمد بشير	أستاذ التّعليم العالي.	ممتحنا	**جامعة أحمد بن بلة، وهران**
أد. عزوز بن عمر	أستاذ التّعليم العالي	ممتحنا	**جامعة أحمد بن بلة، وهران**
أد. بلي عبد القادر	أستاذ التّعليم العالي	ممتحنا	**المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت**
د.مغني صنديد محمد نجيب	أستاذ محاضر (أ)	ممتحنا	**المركز الجامعي بلحاج بوشعيب عين تموشنت**

السّنة الجامعيّة: 2020/2019

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا

أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}

(سورة الروم، الآية 09)

الإهداء

الحمد لله الّذي أكرمني بفضله و أنارلي درب العلم ويسرلي سبيل إنجاز هذا الطرح العلمي، فلا يسعني إلّا أن أهدي ثمرة هذا العمل للذين قضى الله ببرّهما بقوله تعالى : "...و بالوالدين إحسانا.."

إلى روح المباركة الحنون الّتي اختارها الله لجواره، أمّي الحبيبة الغالية، طيّب الله ثراها...

إلى والدي الكريم الّذي علمني أن الحياة جد و اجتهاد، و غمرني بكريم دعواته التي ألانت لي كلّ صعب

إلى إخوتي جميعا، خاصّة روحي و ريحاني جمال الدّين

أختي الحبيبة الغالية فاطمة، سندي في هذه الحياة

إلى أخي عبد القادر، رفيق دربي و عوني في كلّي أموري

شكر و عرفان

أبدأ بشكر الله عزّ وجــلّ الّـذي وفّقـــني لإنجاز هذاالعمـــل،

ثمّ أتقدّم بالشكر الجزيل و التقدير لأستاذي المشرف الدّكتور" كبير الشيخ"، على تكريمه لي بالإشراف على رسالتي هذه، و على مساندته لي و توجيهي خلال هذه السّنوات، حتّى خرجت على الشّكل الّذي يتطلبه البحث العلمي، و شكر خاصّ للأستاذ " عيسى بخيتي" المشرف الثّاني على رسالتي، الّذي لم يبخل عليّ بأي مساعدة و توجيه، فمنحني من وقته و مكتبته ما كان كفيلا لإنجاز هذا البحث.

كما لا يفوتني شكر كلّ أساتذتي– دون استثناء – الّذين سهروا على تكويننا، و إفادتنا بكل ما يخدم مسارنا في البحث العلميّ، خاصّة أستاذة مشروعنا في الأدب الجزائري الأستاذة الدكتورة " سمية حطري"، الّتي لن يكافئ عملها و يجزيها أجره إلّا الله، و شكر خالص لكلّ أساتذة معهد اللّغة و الأدب العربي بالمركز الجامعي بلحاج بوشعيب، عين تموشت، و كلّ من شجّعنا على البحث، خاصّة رئيس المعهد الأستاذ الدّكتور " منقور عبد الجليل"، و كلّ من ساندنا من قريب أو بعيد.

و الشّكر موصول للجنة المناقشة المحترمة الّتي تجشّمت عناء قراءة الرّسالة لأجل تقويمها، ثمّ تقييمها.

مقدمة

دأب البشر على التّرحال من مكان إلى آخر، لأجل تحقيق مبتغى معيّن، فمارسوا الرّحلة بعدّها سلوكا إنسانيا يقوم على السّفر بنقلة زمانيّة و مكانيّة، و هو فعل دؤوب باق بقاء الإنسان على أديم الأرض، فسعى من خلاله إلى كسب معيشة، أو طلب علم، أو تحصيل ربح ماليّ تجاريّ،...و غير ذلك، و الرّحلة محفوفة بالمخاطر و المغامرات، تحذو صاحبها الرّغبة في الاستكشاف، ممّا دفع بعض الرّحالين لتدوين رحلاتهم، و تسجيل جلّ الأحداث الّتي صادفتهم، ما جعل منها مادّة دسمة لخطاب حكائيّ سرديّ، خاصّة أنّ الرّحالة يستشعر التّميّز بكتابتها كونه اطّلع على ما لم يتح لغيره مشاهدته و معايشته.

اختلفت كتابة الرّحلات من رحّالة إلى آخر، فلكلّ واحد منهم عصره، لغته، ثقافته، دوافع رحلته، و نوعها، و الظّروف المحيطة بها، إضافة إلى الرّغبة الجامحة في تأجيج عنصر التّشويق لدى المتلقّي المتعطّش لسماع الجديد و الغريب و العجيب، والاستمتاع، و المسامرة، من خلال بطولة مطلقة، يضفيها الرّحّالة على ذاته بين أهله و ذويه و المستمعين، أيّا كانوا بعد عودته إلى دياره.

ساهم أدب الرّحلات بمقدار كبير في الانفتاح على مختلف أشكال التّواصل، و تلاقح المرجعيّات الثّقافيّة، بالتّواصل الثّنائيّ التناظريّ، بين حضارات الشّرق و الغرب(الأنا و الآخر)، مع الحفاظ على الخصوصيّة العقديّة و الثّقافيّة، الّتي يمثّل فيها الإنسان بؤرة تلك الحمولات الثّقافيّة المتعدّدة، و زخم التّراكمات الفكريّة الإنسانيّة، الّتي تمثّل إنتاجا مشتركا لمختلف الأجناس البشريّة، ذلك الإنتاج الفكريّ الّذي لا يعيق عمليّة التّواصل مهما كانت، ممّا أعطى النّسق الثّقافيّ خصوصيّته المعرفيّة، و تبقى الحضارة الإسلاميّة متميّزة عن باقي الحضارات بسماتها الثّقافيّة الخاصّة.

تعدّ الرّحلة جنسا أدبيّا موسوعيّا، لتفتّحها على علوم و معارف مختلفة، و ذلك ما ميّز رحلة الشيخ الحسين الورثيلانيّ الموسومة"بنزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، الّتي ضمّت بين طيّاتها زخما من الأصوات و الخطابات، فهي أكبر بوتقة تجارب العالم الخارجيّ المعقّد، المثقل بحمولته الإنسانيّة و الفكريّة المتعدّدة الثّقافات.

شكّل ذلك التّعدّد الثّقافـيّ في النّصوص التّراثيـّة كثافـة في بنيتها، و زخما في حمـولتها المعرفيّة، المثقلة برؤى فلسفيّة حضاريّ إنسانيّة، تجاوزت كلّ ما حمله التّراث الإنسانيّ من أبعاد جغرافيّة، مكانيّة، أو طائفيّة عقديّة...، استطاع النّقد الثّقافيّ التّعامل معها بسلاسة من خلال استثارة الأنساق الثقافيّة، الّتي تشكّل تكاملا بنائيّـا مزجيّا مع بقيّة العناصر المكـوّنة للنّصّ الأدبيّ.

رغم أنّ مقصديّة الرّحلات انحصرت في الجوانب السّابق ذكرها، إلّا أنّها لم تحفل بالجوانب الفنيّة الأدبيّة، الّتي لم ترد في ثناياها إلّا جزافـا أو اعتباطا، و يعـود الفضل إلى المناهـج النّقديّة الحديثـة فـي الكشف عنها و البحث في كنهها ، حيث استطاعت أن تنقّب في تبيين ذاتيّة الخطاب الرّحليّ الأدبيّة، جنسا أدبيّا مستقلّا، يمكنه أن يكوّن المادّة الخام المطواع للدّرس النّقدي الحديث، بعد معاناة طويلة من التّهميش منذ القـرون الهجـريّة الأولـى حتّى القرن السّادس الهجري ليضع ابن عربـي و ابن جبيـر برحلتيهما البصمة التّأسيسيّة الأولى لذاتيّة هذا الجنس الأدبيّ.

و امتدّت الرّحلات القديمة حتّى بلغت القـرن الثّامن عشر الميـلاديّ، أي عهد الحكـم العثمانيّ للبلاد العربيّة، الّذي عرفت فيه انتعاشا كبيرا، في مجال الرّحلات على اختلافها، خاصّة الحجازيّـة منها، و لكونها عملا سرديّا فرديّا كـان لا بدّ من مساءلتها بما تقتضيـه المناهج النقديّة الحديثة و المعاصرة، و بما يلائم خصائصها الأدبيّة و الفنيّة.

تأتي هذه الدّراسة النّقديّة للنّصّ التّراثيّ النّثري، الموسوم " بنزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، لتبيين مدى نجاعة المناهج النّقديّة الحديثة في استنطاق النّصوص التّراثيّة، خاصّة في الكشف عن الأنساق الثّقافيّة المتعدّدة ضمن النّصّ الواحد، من معرفيّة، أدبيّة، اجتماعيّة...و غيرها، هذا النّصّ المثقل بثقافات تتباين أحيانا و يشاكل بعضها بعضا أخرى، لتؤول تلك الأنساق و البنى الثّقافيّة في هذا النّصّ إلى حوارات ثقافيّة، ظاهرة أحيـانا، و مضمرة أخرى، مشكّلة عتبات حقيقيّة، وجب البحث في كنهها.

رغم ما يزخر به أدب الرّحلات من حمولة فكريّة، ثقافيّة إبداعيّة لكونـــه إنتاجـــا إنسانيّـا حضاريّـا، فهو أحوج ما يكون إلى دراسات نقديّة واعيـة من خـلال منـاهج نقديّـة ممحّصة،

تكشف عن أنساق مختلفة، أدبيّة معرفيّة، اجتماعيّة، بفكّ شفرتها العلاماتيّة الدّلاليّة، الظّاهرة و المضمرة، الّتي تساهم في البنيات الأساسيّة للنّصّ الرّحليّ.

في ظلّ هذا المعطى الّذي تدور إشكاليته حول قراءة النّصّ التّراثي بمناهج نقديّة معاصرة، على رأسها منهج النّقد الثّقافيّ، الّذي رغم الأشواط المساريّة الّتي قطعها ليصل إلى مرحلته الأخيرة، من تعدّد الأفكار و الرّؤى النّقديّة الّتي شكّلته، بدءا من المدرسة الثّقافيّة النّفسيّة (السّلوكيّة الأمريكيّة) وصولا إلى مدرسة فرانكفورت الثّقافيّة، لينتج المنهج الثّقافيّ منصهرا في المنهج الأنثروبولوجي، ليتّسع أفق النّقد الثّقافيّ، فتعزى له فاعليّة إجرائيّة في تطبيقه على نصوص من التّراث، و هنا نطرح الإشكاليّة الّتي لأجلها يقوم بحثنا هذا و هي: ما مدى قدرة المناهج النّقديّة الحديثة، و النّقد الثّقافيّ بصفة خاصّة على استنطاق النّصّ النّثريّ الرّحلي(الرّحلة الورثيلانيّة) و قراءته قراءة نقديّة هادفة ممحّصة؟، إلى جانب إشكاليات فرعيّة منها: ما غاية الورثيلانيّ من تدوين رحلته؟ و ما المصادر الّتي اعتمد عليها في ذلك؟، و هذا ما سنجتهد للإجابة عن خباياه من خلال البحث في الأنساق الثقافيّة المختلفة الّتي يزخر بها النّصّ الرّحليّ من أدبيّة فنيّة، إلى معرفيّة، ثمّ اجتماعيّة...، لأجل استنساخ ظاهرها و مضمرها، و ما انطوت عليه من حبكة بنائيّة لنصّ أقلّ ما يقال عنه أنّه إرث إنسانيّ اتّسقت شذراته النّسقيّة لتنشئ حواريّة ثقافيّة متجانسة في غالب الأحيان.

و ضمانا لسيرورة متوازنة للبحث و أهميّة الموضوع، و الّتي تتمثّل في محاولة الكشف عن قيمة الرّحلة الورثيلانيّة على شاكلة أنساق تعدّدت داخل النّصّ الواحد، استطاعت أن تسهم في تشكيل متن النّصّ، و ضرورة إبرازها لإثبات عظيم الإرث الإنسانيّ الثّقافيّ المخبوء بين ثناياها، حين يغدو النّسق الواحد صرحا من المعارف و الفنيّات، و يتّخذ من النّصّ الرّحليّ النثريّ(الرّحلة الورثيلانيّة) مادّة للدّرس الثقافيّ، و الاشتغال عليها مطاوعة لا جبرا، دون محاولة استنطاق تلك الأنساق تعسّفا، بل جعل المنهج في وفاق مع النّصّ المقترح (الرّحلة الورثيلانيّة) لتحقيق أهداف البحث دون تكلّف لمحاولة تطبيق آليات إجرائيّة لمنهج غير منسجم و المتن، و يكون ذلك بمحاواة فهم الدّلالات، و الأنساق المضمرة المراد استنطاقها و تأويلها بصورة واعية، و إنزال هذا النّصّ الرّحلي ما وجب أن

يتبوّأه بين مصافّ نفائس الفكري الإنسانيّ، المنتج في عهد وصف بالرّكود العلميّ و الأدبيّ، و المقصود هنا الحقبة العثمانيّة، الّتي كانت مهد ميلاد هذا النّصّ الّذي بين أيدينا، و يشكّل مادّة دراستنا.

حظيت سرديات التّراث العربيّ القديم، بالاهتمام الكبير من طرف الباحثين و النّقّاد، لأجل تفعيل التّراث أو التّأصيل له، أو رغبة في تطبيق النّظريات المعاصرة عليه من جانب آخر، فاجتذبني للانضمام إلى هذا الرّكب و المشاركة قدر المستطاع في إثرائه و لو بغيض من فيضهم، أولئك الّذين تهدف مساعيهم إلى إدراج هذا الزّخم الحضاريّ التّراكميّ ضمن مشروع الّرد العربيّ، لأجل أن يبلغ مكانته اللّائقة به، إلى جانب توفّر الرّحلة مكتملة محقّقة، اعتنى فيها الرّحّالة بالسّرد التّاريخيّ، و الوصف الجغرافيّ، و الفنّ الأدبيّ، هذا السبب الموضوعيّ، أمّا السبب الذّاتي، فهو أنّي تلقيت العلم على يد أستاذي " عيسى بخيتي"، و عاينت عن قرب سبقه و سبحه في أغوار أدب الرّحلة الجزائري قديمه و حديثه، و تحقيقه التّفوّق في هذا المجال، فوجدتني أتأثّر بذلك أيّما تأثّر، فكان القدوة لي في ذلك، و المستشار الحكيم الّذي وجّهني لاختيار الموضوع بمعيّة أستاذي المشرف" كبير الشّخ"، و رئيسة مشروعنا الأستاذة " سميّة حطري".

أمّا الدّراسات الّتي لها علاقة ببحثنا، و سبقته في هذا المجال فهي معدودة، لعلّ من أهمّها، أطروحة دكتوراه مقدّمة من طرف الباحث (الطّاهر حسيني) أمام جامعة الوادي

بعنوان" الرّحلة الجزائريّة خلال العهد العثمانيّ، بناؤها الفنّي، أنواعها، و خصائصها"، و هو عمل مؤسّس متغلغل في عمق الرّحلة الورثيلانيّة، خاصّة في جانب البنية السّرديّة لها، من خلال تفصيله في في حيثيات الرّحلة الورثيلانيّة و الظّروف الّتي أحاطت بها، و التّأسيس للأنا بالآخر فيها، و لا نغفل في هذا المقام أطروحة دكتوراه الباحث "عبد الرّحمن عزّي" المقدّمة أمام المركز الجامعي "ميلة"، عنوانها" التّواصل القيّمي في الرّحلة الورثيلانيّ"، تناول فيها رحلة الشيخ الحسين الورثيلانيّ بمنهج علم الاتّصالات الحديثة، فتطرّق إلى الجوانب التّاريخيّة، الاجتماعيّة، و الدّينيّة ...و غيرها، و كشف عن قيم التّواصل الّتي تضمّنتها، و وصف الرّحلة بالمعلم الثّقافيّ، و فصّل بالتّدقيق في مسارها ذهابا و إيّابا، و رسم جغرافيّة الرّحلة ببراعة، و قد طبع هذه المخطوطة في شكل كتاب صدر له عن دار كنوز الحكمة،

2011، الجزائر، و أطروحة دكتوراه الباحث " عيسى بخيتي" بعنوان" أدب الرّحلة الجزائريّ ، الحديث(سياق النّصّ و خطاب الأنساق)، أمام جامعة "تلمسان"، كما يمكن التّنويه بأعمال بحثيّة أخرى ذات صلة، و إن لم تكن وثيقة، منها: " سيميائيّة الفضاء المقدّس في الرّحلات الحجازيّة الجزائريّة(رحلة الحسين الورثيلانيّ أنموذجا) للباحث حبيب بوزوادة، أمام جامعة معسكر، و أبحاث أخرى تطرّقت إلى فنيّات السّرد و جمالياته، و التّخييل في الرّحلة الورثيلانيّة، و ليست لها الصّلة الوثيقة ببحثنا، نظرا لجدّته ببحثه في الأنساق الثّقافيّة الّتي لم تطرق من قبل، ممّا شكّل لدينا رغبة جامحة في التّحدّي للمشاركة في المنافحة عن هذه الرّحلة، و الّتي عدّ صاحبها أمير رحالي زمانه، و قد أشاد بها هو ذاته في مقدّمته، و اعترف له كثيرون بعظيم فضلها تاريخيّا و جغرافيّا، وثقافيّا إلى جانب كونها نصّا سرديّا أدبيّا جمع بين طيّاته توليفة من العلوم و الفنون، ممّا أوجب علينا التّفصيل في أنساق ضمّتها بين ثناياها.

و حتّى نرتقي بالرّحلة إلى المكانة اللّائقة بها، و إن كنّا لا نزال مبتدئين في مجال البحث، فكان لا بدّ من البحث عن المصادر و المراجع المعينة لنا على هذا البحث، في مظانّها، فرحنا نلتمسها في المكتبات العامّة و الخاصّة، و يممنا صوب بعض الجامعات و المراكز الثّقافيّة، و أسواق الكتب القديمة، في الوطن و خارجه، و وجدنا أنّ الرّحلة الورثيلانيّة –رغم كلّ الدّراسات في الأدب الرّحلي– ما زال الإجحاف قائما في في حقّها، ممّا عرقل مسار بحثنا في بعض الأحيان، خاصّة قلّة الدّراسات الّتي تعمّقت في إماطة اللّثام عن نفائس الرّحلة الّتي بين أيدينا، أو تلك البحوث المنجزة الّتي ظهرت بصورة محتشمة، أو اقتصرت على البحث في فنيّة محدودة، أو ظاهرة بعينها، باستثناء بعض المراجع الّتي استنار منها بحثنا ببعض الجذوات، رغم قلّتها، فكانت لنا عونا، و مرشدا لطرق بااب النّقد الحديث، و يسّرت علينا جوانب كثيرة في بحثنا، لعلّ من أهمّها: " الرّحلة في الأدب العربي، التّجنيس، آليات الكتابة، و خطاب المتخيّل"، لشعيب حليفي، كتاب" السّرد العربيّ القديم، الأنساق الثقافيّة و إشكاليّة التّاويل" لضياء الكعبي، و مرجع آخر هو " رحلة الورثيلانيّ، عرض و دراسة" لمختار بن الطّاهر فيلالي، و كتاب " النّقد الثّقافيّ"، لعبد الله الغذّامي، و غيرها من المراجع، أمّا الأطروحات العلميّة، الّتي كانت لنا دعامة في بحثنا–كما سبق الإشارة إليها، أطروحة "عبدالرحمن عزّي" المعنونة "بالتّواصل القيّمي في الرذحلة الورثيلانيّة"،

أمام المركز الجامعي" ميلة"، و رسالة دكتوراه "إسماعيل زردومي" بعنوان" فنّ الرّحلة في الأدب المغربي القديم"، أمام جامعة "باتنة"، و رسالة دكتوراه" الطّاهر حسيني" الّتي وسمها بعنوان" الرّحلة الجزائريّة خلال العهد العثمانيّ، بناؤها الفنّي، أنواعها، و خصائصها"، المقدّمة أمام جامعة "الوادي"، و رسالة ماجستير للباحثة" الخامسة علاوي" بعنوان "العجائبيّة في أدب الرّحلات"، إلّا أنّ البحث في مجال الأنساق الثّقافيّة في رحلة الورثيلانيّ، لم يتطرّق إليه من قبل، و لم يحظ بالبحث فيه، و إنّا لنرجو أن تلتمس لنا الأعذار، عذر المبتدئ، عذر السّبق، في خوض غمار بحث يتّسم بالجدّة التّامّة.

و حتّى يتسنّى لنا البحث بانتظام، وضعنا له خطّة نرجو أن تحقّق الهدف المنشود، من وراء هذا البحث، فكانت صدارتها تمهيدا، تليه ثلاثة فصول، فصّلنا فيها مسار البحث كما يلي: افتتحنا البحث بتمهيد موجز معنون بالنّسق و النّسق الثّقافيّ، مفاهيم في المصطلح، قدّمنا فيه تعاريف لغويّة و اصطلاحيّة للنّسق و النّسق الثّقافيّ، و النّقد الثّقافيّ، حتّى نتمكّن من توضيح نوع الدّراسة الّتي سنقوم بها على نصّ رحلة الورثيلانيّ.

أمّا الفصول الثّلاثة فقد توزّعت كما يلي: الفصل الأوّل و هو بوّابة بحثنا، و قد عنوناه بالنّصّ الأدبيّ الجزائريّ في العهد العثمانيّ و المرجع الثّقافيّ، تعرّضنا فيه للتّعايش الاجتماعيّ في الجزائر في ظلّ الحكم العثمانيّ، في إطار الحياة الثّقافيّة، و الفكريّة الّتي كان يعيشها الشّعب الجزائريّ، و تعريفا بأنواع الفنون النثريّة و الأغراض الشّعريّة الرّائجة آنذاك، و أشهر الكتاب و الشّعراء الّذين أنجبتهم الجزائر في تلك الحقبة، رغم أنّها تميّزت بالرّكود الأدبيّ.

وتناولنا في الفصل الثّانيّ المعنون بنزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار؛ عرض للمنجز، عرّفنا فيه بالرّحلة، ثمّ ذكرنا مصادر تدوينها،أردفناها بالاستعدادات الأوليّة للرّحلة، أي الرّحلة الدّاخليّة الّتي قام بها الشيخ الحسين الورثيلانيّ، زار من خلالها الأولياء و الصّالحين، الأحياء منهم و الأموات، اتبعناها بالتّطرّق لدلالة العنوان في الرّحلة و تخطيطه، ثمّ خطاب التّقديم(المقدّمة)، لنختمها بالتّشكّلات السّرديّة في الرّحلة، و الغرض من ذلك التّعريف بالرّحلة و الظّروف الّتي أحاطت بتدوينها، و أهمّ مواردها المعرفيّة و التّوثيقيّة، و تحليل دلالة العنوان بمدلول الرّحلة، و مدى ما يبوح به للقارئ منذ القراءة

الأولى، و ما تضمّنه خطاب التّقديم في تمهيده للرّحلة، و تبيين أسباب كتابتها، و ختمناه بتحليل بنيتها السّرديّة، مع العلم أنّ أنّها من أهمّ عناصرها الفنيّة.

أمّا الفصل الثّالث و الّذي عنوانه: "التّمظهرات النّسقيّة و آليات إنتاج النّصّ"، فقد خصّصناه للكشف عن بعض الأنساق، الّتي ساهمت في بناء متن الرّحلة، حاولنا الكشف عن بعض مضمراتها بعد الوقوف على ظواهرها، من خلال تحديد مواضعها، و تبيين أهدافها و أبعادها، عاكسة منافذ التّجاوب و الرّفض في شخصيّة الرّحالة، من خلال سرده، و وصفه، و توظيفه مختلف الفنيّات و التّقنيات الّتي اعتمدها في هذا الصّنف من الأدب، و إيراده نماذج كثيرة منها لتزويد جمهور المتلقّين بتوليفة من من الأحداث المألوفة و غير المألوفة (الغريب و العجائبيّ)، و المحكيّ، بعرضها في إطار أنساق أدبيّة(عجائبيّ، صورة فنيّة، جماليّ،..)، و أنساق معرفيّة(تاريخيّة، جغرافيّة، إثنوغرافيّة، طوبونيميّة،...)، و أنساق اجتماعيّة(عادات، تقاليد، بعد ديني...)، لختمها بالنتائج المتوصّل إليها.

نظرا لمسوعيّة الرّحلة و تعدّد أنساقها الثّقافيّة، لم يكن منهج واحد ليستوعبها، فلجأنا إلى تهجين المناهج لضرورة فرضتها متطلّبات البحث، و الكمّ النّوعي من الزّخم الفكريّ و الإنسانيّ الّذي اشتملت عليه الرّحلة بين ثناياها، فاستعنّا بالمنهج التّاريخيّ(السّيّاقيّ)، كون الرّحلة مقيّدة بزمني الذّهاب و الإيّاب، و أحداث تاريخيّة حرص الرّحّالة على ذكرها، و الإشارة في غالب الأحيان إلى المصادر الّتي أخذ عنها، و استنجدنا بالنّقد الثّقافيّ في رصد الأنساق المختلفة و استنطاق النّصّ للكشف عنها، و طعّمناها بالمنهج الوصفي التّحليليّ، و شيء من السيميائيّ لفكّ بعض الشفرات كالعنوان...و غير ذلك، إلى الاستسقاء بعض الشيء من نظريّة التّلقّي، في تبيين أهداف الرّحّالة من خلال تزويده المتلقّي بأحداث الرّحلة و أخبارها و حيثياتها، لأجل إحداث التّشويق، و الامتاع، و تحقيق التّميّز لذاته.

أثناء قيامنا بعملية البحث في هذا الموضوع، تيسّرت لنا بعض الأمور الّتي مهّدت لنا السّبيل، خاصّة الجانب النّظريّ بعض الشّيء، أمّا البحث في مجال الأنساق فقد واجهنا بعض المعوّقات، كعدم السّبق في هذا الجانب(البحث في الأنساق الّتي تضمّنتها الرّحلة الورثيلانيّة)، و ضخامة حجم النّص الرّحليّ موضع الدّراسة، إذ بلغت ثمانمئة و ست عشرة صفحة(216)، ممّا يثقل كاهل الباحث، إضافة إلى تشعّبات النّصّ الرّحلي، إذ احتوت توليفة

من العلوم و الفنون، ممّا جعل التّحدّي لخوض غمار البحث فيه مجازفة كبرى عاقبتها مجهولة، خاصّة أنّ البحث في مجال الأنساق في أدب الرّحلة ليس بالأمر الهيّن، فقد تطلّب التّعامل مع المراجع الّتي أنتجها النّقد الثّقافيّ سبلا لتطبيقها على هذا الزّخم المعرفيّ الضّخم، ممّا كلّفنا الكثير من الوقت و الجهد، و لولا حتميّة الالتزام بالمدّة الزمنيّة لتقديم البحث، لأفضنا فيه بما يروي شغفنا العلميّ، رغم صعوبة استجابة النّصوص القريبة من التّاريخ، لإجراءات هذه المناهج الحديثة.

و لأنّ ردّ الفضل إلى أهله واجب، كان لابدّ من التّنويه بفضل أستاذي الدّكتور " كبير الشيخ" المشرف على بحثي المتواضع هذا، و الّذي إن ارتقى إنّما يرتقي بفضل إرشاداته، و توجيهاته، و تصويباته، و تحفيزاته، و مراقبته عملي و تشجيعه لي على الدّوام، ممّا دفعني للمثابرة و السير قدما لإنهائه، الّذي كنت أظنّ الخروج من دهاليزه مستحيلا، كما لا أنسى أستاذي المشرف المساعد الدكتور" عيسى بخيتي" وفضله العظيم –الّذي لا أجحده أبدا– في توجيهيّ لاختيار الموضوع، و وضع الخطّة، و تزويدي بالمصادر و المراجع الّتي لم أجدها عند غيره، و صبره علي رغم إلحاحي عليه في الاتّصال به و الاستفسار عن أمور كثيرة أحاطت ببحثي، و يكفيني فخرا أنّه النّبراس الّذي استرشدت به للوقوف على معالم موضوعيّ.

أرجو الله أن يبارك هذا الجهد المبذول، و أن يجعله نافذة تطلّ منها بحوث أخرى بحلّة أبهى، فهذا البحث ثمرة مجهودات تجاذبها السّفر، و السّهر، و طول التّفكير، و لأنّه لكلّ مجتهد نصيب، فإن أصبت فيه فأجري على الله، و إن حدت أو قصّرت، ففي التماس العذر عزائي، و لا يفوتني في هذا المقام التّنويه بمجهودات أعضاء لجنة المناقشة المحترميـــن، في تجشّمهم عناء قراءة بحثي هذا و تقويمه و تقييمه، و لهم جزيل الشّكر، و تبقى الرّحلة الورثيلانيّة بحرا امتدّت شطآنه، و غارت صدفه، و باب البحث فيها مفتوح على مصراعيه لمن أراد سبر أعماقها، و استخراج دررها و نفائسها.

ربيحة بلحاج

عين تموشنت يوم: 2020/04/14م

مدخـــــــــل

النّسق و النّسق الثقافي، مفاهيم في المصطلح

1-مفهوم الثّقافة

2-مفهوم النّسق

3-مفهوم النّسق الثّقافي

يشتمل النّقد الثّقافي على مناقشة النّسق، والنّسق الثّقافيّ في إطار علاقته بأدب الرّحلة، وذلك من خلال دراسة ما انطوى عليه كنه الرّحلات على اختلافها، بوصفها أدبا قائما بذاته، له من الخصائص ما يميّزه عن غيره من فنون الأدب، وإنما يتأتّى هذا الأمر بإخضاع نصوصها للنّقد الفنّي البحت الّذي ينقب في مكنوناتها، من خلال عمليتي التّشريح الجماليّ والتّأويليّ بإعمال آليات القراءة في الخطاب الرّحلي، وما أضمر فيه من أبعاد ثقافيّة، وأخرى باطنيّة لا تتكشّف إلّا بعد طول نفس تحليليّ.

1-مفهوم الثّقافة:

تعدّ المصطلحات بؤرة البحوث ومحورها، لذلك وجب ضبطها حتّى يتسنى تأطير الأبحاث العلمية، وتيسير سبل المعرفة المقصودة، وتعيين المسار والمعبر القويم لاعتلائه أثناء عملية البحث والاستقصاء لبلوغ المرمى العلمي المراد والغاية المنشودة، لذلك كله كان لابدّ من ضبط المصطلحات الموسوم بها عنوان البحث حتى تتّضح معالمه ويتجلّى كنهه.

أ/لغة:

أورد ابن منظور في معجم "لسان العرب" في مادة(ثقف) ما يلي:

"ثَقِفَ الشَّيْءُ ثَقْفًا وَ ثَقَوفَةً، حَذَقَهُ، وَ رَجُلٌ ثَقْفٌ وَ ثِقْفٌ: حَاذِقٌ، وَ يُقَالُ ثَقِفَ الشَّيْءَ، وَهُوَ سُرْعَةُ التَّعَلُّمِ...، ابْنُ دُرَيْد، ثَقِفْتُ الشَّيْءَ حَذَقْتُهُ...وَثَقِفَ الرَّجُلُ ثَقَافَةً أَيْ صَارَ حَاذِقًا خَفِيفًا... فَفِي حَدِيثِ الْهِجْرَةِ، وَهوَ غُلَامٌ لَقِنَ ثَقِفَ أَيْ ذُو فِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ ثَابِتُ الْمَعْرِفَةِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ".1

ب/اصطلاحا:

أمّا من الجانب الاصطلاحي، فتعريف الثّقافة لا يكاد يتّفق عليه إثنان، وهذا ما تثبته التّعريفات المختلفة الّتي تعبّر عن الانتماءات الفكريّة والإيديولوجيّة لأصحابها.

1 ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبر وآخرون، المجلد الأول، دار المعارف القاهرة، دط، دت، ج6، ص493.

نجد الإنجليزي "إدوارد تايلور" **يعرّفها بكونها "ذلك الكلّ المركّب الّذي يضمّ المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وكل المقدّسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان في مجتمع معين**".**1**، الثّقافة عند إدوارد تايلور ظاهرة حضاريّة وتاريخيّة، ميّزت الإنسان عن سائر الكائنات، وهي لديه ليست فطريّة، بل هي مكتسبة يتطبع عليها الإنسان من خلال ما يحدث في مجتمعه والبيئة التي يعيش فيها، فنظرته إزدواجيّة الأبعاد فهي عنده ذات بعد اجتماعي وآخر فردي، فهي اجتماعية بحكم أنّ المرء ابن بيئته يتأثر بها سلبا وإيجابا، أمّا البعد الثاني فهو الفردي، ويحدث لديه من خلال عامل الاكتساب والتّعلم والتّفاعل.

تعريف إليوت: وضع شروطا ثلاثة لأجل إدراك مفهوم الثقافة، وبها يتمّ تحقيقها2، و هي كالتّالي:

1. البناء العضوي: يعد ركنا أساسيا للانتقال الوراثي للثقافة من خلال ثقافة مجتمع معين، على شرط بقاء الرابط و التواصل المستمر للطبقات الاجتماعية في مكان معين.
2. القابليّة للتّحليل: الثّقافة بوصفها كلّا متكاملا، فمن المنطق أن تكون لها قابليّة التّحليل إلى ثقافات معينة.
3. التّوازن بين الوحدة و التنوع في الدّين: الدّين عنصر أساسيّ و لا تنمو الثقافة إلّا في ظلّه، فالثّقافة عنده و الدّين علاقة تبادليّة، فالدّين نتاج ثقافة و الثّقافة نتاج دين.

أمّا عند علماء الأنتربولوجيا فالتّعريفات تختلف إذ نجد "رالف لنتون" يعرّف الثّقافة على أنّها " **مصطلح ملائم لتعيين المجموعة المنظمّة من العادات و الأفكار و المواقف الّتي**

1مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الطاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، د.ط، 1997، ص09

2 ينظر: ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة و تحقيق شكري عباد، الهيئة العالمية للكتاب، القاهرة،ط1، 2001، ص50.

يشترك فيها أعضاء أي مجتمع ولذا يكاد يكون من المعتذر على أي عالم أنتربولوجي أن يبحث في هذه الأمور دون استعمال هذا المصطلح"[1]. ما يمكننا استنباطه من مقولة "إلف لنتون" أنّ مفهوم الثقافة عنده هي كل الأشياء المشتركة بين أفراد المجتمع الواحد من عادات و تقاليد و أفكار و مواقف. و أن الدراسات الأنتربولوجية لا تتمّ إلّا بتلك العناصر الآنفة الذكر.

ويكاد تعريفها لدى "فرانز بواز" يكون ذاته الذي عرفها به "رالف لنتون"، لكنّ عبد الله الغذّامي يعرّف الثّقافة على أنّها "**ليست مجرد حزمة من أنماط السلوك المحسوسة كما هو التصور العام لها، كما أنها ليست العادات و التقاليد و الأعراف لكن الثّقافة بمعناهـــا الأنتربولوجـي الّذي يتبناه فيرتـز فـي آليات الهيمنـة من خطـط و قوانيـن و تـعـليمات، كـالطّبخة الجـاهزة الـتي تشـبه ما يسمـى بالبرامـج في علـم الحـاسـوب و مهمّتها هي التّحكم بالسّلوك.**"[2] ، نظرة الغذّامي شاملة- حسبما يبدو- لأنّ الثّقافة عنده أعمّ من كلّ تعريفات قدّمت، فهي عنده كل ما يخص علم الإنسان، إذ تتبلور بكليّتها لتتيح له تقويم السّلوك.

أمّا "محمد الجوهري" فيعرفها تعريفا يتوافق فيه مع علماء الأنثربولوجيا من حيث المعاني كالآتي:

- للدّلالة على أساليب الحياة أو المخطّطات المكتسبة بالتعليم و الشائعة في وقت معين من البشر جميعا.
- للدّلالة على أساليب الحياة الخاصّة بمجموعة من المجتمعات الّتي يوجد بينها قدر من التّفاعل.
- للدّلالة على أنماط السلوك الخاصّة بمجتمع معين.

1 جاك لومباز، مدخل إلى الأثنولوجيا، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ط1، 1997م، ص53

2عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2010، ص78.

- للدّلالة على أنماط السّلوك الخاصّة بشريحة أو شرائح معينة داخل مجتمع كبير على درجة من التّنظيم المعتمد.1

2-مفهوم النّسق:

ليس للنّسق الثّقافي مفهوم واحد مقدّر بعينه، فله في اللّغة من الحمولة الكثير إلى جانب التّعاريف الاصطلاحيّة المتزاحمة.

أ/ لغة:

عرّف ابن منظور النّسق في مادّة (نَسَقَ) بتعريف مفاده أن "النَّسَقَ من كل شيء ما كان على طريقة و نظام واحد، عام في الأشياء و قد نَسَقْتُهُ تَنْسِيقًا، وذهب ابن سيده إلى القول "نَسَقَ الشَّيْءَ، يَنْسُقُهُ نَسْقًا وَ نَسَقَهُ، نَظَمَهُ عَلَى السَّوَاءِ وَ انْتَسَقَ هُوَ وَ تَنَاسَقَ، وَ الاسْمُ النَّسَقُ، وَقَدْ انْتَسَقَتِ الْأَشْيَاءُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ أَيْ تَنَّسَقَتْ، وَالنَّحْوِيُون يُسَمُّونَ حُرُوفَ العَطْفِ حُرُوفَ النَّسَقِ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا عَطَفْتَ عَلَيْهِ شَيْئًا بَعْدَهُ جَرَى مَجْرًى واحدًا[.

وَ يُقْصَدُ بِالتَّنْسِيقِ التَّنْظِيمِ، و النَّسَقُ: مَا جَاءَ مِنْ الكَلَامِ عَلَى نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَ العَرَبُ تَقُولُ لَطِوَارِ الجَدَلِ إِذَا امْتَدَّ مُسْتَوِيًا: خُذْ عَلَى هَذَا النَّسَقِ أَيْ عَلَى هَذَا الطِّوَارِ، وَ الكَلَامُ إِذَا كَانَ مَسْجُوعًا، قِيلَ لَهُ: نَسَقٌ حَسَنٌ".2، وَالتَّنْسِيقُ: التَّنْظِيمُ. وَالنَّسَقُ: مَا جَاءَ مِنْ الكَلَامِ عَلَى نَظَامٍ وَاحِدٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِطِوَارِ الَحَبْلِ إِذَا امْتَدَّ مُسْتَوِيًا: خُذْ عَلَى هَذَا النَّسَقِ أَيْ عَلَى هَذَا الطِّوَارِ، وَالكَلَامُ إِذَا كَانَ مُسَجّعًا، قِيلَ: لَهُ نَسَقٌ حَسَنٌ. ابْنُ الأَعْرَابِي: أَنْسَقَ الرَّجُلُ إِذَا تَكَلَّمَ سَجْعًا. وَالنَّسَقُ: كَوَاكِبُ مُصْطَفَّةٌ خَلْفَ الثُّرَيَا، يُقَالُ لَهَا الفُرُودُ. وَيُقَالُ: رَأَيْتَ نَسَقًا مِنَ الرِّجَالِ وَالْمَتَاعِ أَيْ بَعْضَهَا إِلَى جَنْبِ بَعْضٍ...

1ينظر: محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الانتربولوجيا، د.ت، القاهرة، دط، 2007، ص134.

2ابن منظور لسان العرب، المجلد الخامس، ج49، ص 13-49.

وَالنَّسَقُ، بِالتَسْكِينِ: مَصْدَرِ نَسَّقْتُ الْكَلَامَ إِذَا عَطَفْتَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، وَيُقَالُ: نَسَّقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ وَنَاسَقْتُ."[1]

تعني كلمة النّسق (système)، في اليونانية القديمة (sustima)، التنظيم والتركيب والمجموع.ومن ثمّ تحيل هذه الكلمة على النّظام والكلية والتنسيق والتنظيم، وربط العلاقات التفاعلية بين البنيات والعناصر والأجزاء، ومن ثمّ فالنّسق عبارة عن نظام بنيوي عضوي كلّي وجامع.

وتدلّ كلمة النّسق (système)، في المعاجم الأجنبية الحديثة والمعاصرة على مجموعة من العلامات اللسانية والأدبيّة والثقافيّة، أو على مجموعة من العناصر والبنيات التي تتفاعل فيما بينها، وفق مجموعة من المبادىء والقواعد والمعايير. ويتحدد النسق أيضا بواسطة مكوّناته وعناصره وبنياته التي يتضمّنها؛ ومن خلال مختلف التفاعلات التي تقيمها العناصر فيما بينها؛ وعبر الحدود التي تفصل بين العنصر الذي ينتمي إلى النسق الداخلي، أو الذي ينتمي إلى محيطه الخارجي؛ مع تبيان آليات التفاعل التي تتحكم في النسق في ارتباطها الوثيق بمحيطه السياقي المجتمعي والثقافي.

كما يمكن الحديث عن نسق مركزي علوي، ونسق فرعي هامشي(sous-système)، ويطلق عليه كذلك بالمجزوءة (module). وقد يرد النسق مغلقا أومفتوحا أو محايدا منعزلا حسب درجة تفاعله مع المحيط الّذي حوله.

ب-اصطلاحا:

تختلف تعريفات النّسق باختلاف المفاهيم لدى المنظّرين و النّقاد، و الفلاسفة و العلماء...، فنجد "تالكوت بارسونز" يعرّفه على أنه "**نظام ينطوي على أفراد فاعلين**

1 ابن منظور: لسان العرب، مادة نسق، حرف النون، دار صا در، بيروت، لبنان ، طبعة 2003م.

تتحدّد علاقاتهم بمواقفهم التي تنبع من الرموز المشتركة و المقروءة ثقافيا في إطار هذا النسق".1

نستنتج من هذا الكلام، أنّ النّسق هو انتظام واسع الأفق، وظيفته عامّة و شاملة تعمل ضمن احتواء كلّي تداخلي لعناصر البيئة المشتركة وذلك لأنّه "**انتظام بنيوي يتناغم و ينسجم فيما بينه ليولد نسقا أهمّ و أشمل**"2، وبناء عليه فإنّ النّسق العام تتولّد عنه أنساق فرعيّة تنظّمه بشكل منسجم، فالمجتمع الواحد في أيّ بيئة تنشأ له أنساق فرعية متكاملة الوظيفة فيما بينها كالسياسي و الثّقافي و الاقتصادي، العلمي... و غير ذلك، على أن كلّ واحد على علاقة وطيدة متشابكة متشعبة مع الأنساق الأخرى، مع احتفاظ كل فرع منها بمميزاته الخاصّة به "واعتمادا على هذا التّحديد يمكن استخلاص عدّة خصائص للنّسقمنها:

- كلّ شيء مكوّن من عناصر مشتركة و مختلفة فهو نسق.
- له بنية داخلية ظاهرة.
- حدوده مستقرة بعض الاستقرار يتعرّف عليها الباحثون.
- قبوله في المجتمع لأنّه يؤدي وظيفة فيه لا يؤديها نسق آخر.

يحملنا هذا الكلام إلى أنّ النّسق عالم قائم بذاته، ينتظم ضمن أطر خاصّة بـه– المقصود النّسق العام– التي تحدد كيانه ووجوده ووظيفته المنوطة به، لأنّه انتظام بنيوي "**لأن النسق البنيوي مظهر من مظاهر النّسق العام، فقد يكون النّسق مغلقا كما تطرحه البنيويّة الصوريّة، وقد يكون مفتوحا كما هو الشأن بالنسبة إلى المناهج النقديّة الأخرى.3**

1محمد مفتاح، التشابه و الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1996، ص156–157.

2المرجع نفسه، ص159.

3أحمد يوسف، القراءة النسقية، سلطة البنية ووهم المحاثية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف 2007، ط1، ص 116.

يتّضح أن للنّسق مفهوم أوسع أفقا من البنية لوصفه انتظاما بنيويا، ومن منظور آخر يبرز عبد الله الغذّامي فعل النسق في الخطاب على أنّه "**يجري استخدام النسق كثيرا في الخطاب العام و الخاص و تشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوه دلالتها وتبدأ بسيطة كأن تعرف ما كان في نظام واحد كما في تعريف المعجم الوسيط، وقد تأتي مرادفة لمعنى البنية (structure) أو بمعنى النظام (system) حسب مصطلح ديسوسير**"[1].

وفي هذا الكلام دعوة لضبط مصطلح "النسق" وتسمية الأشياء بمسمياتها الملائمة بعيدا عن العشوائية.

3- مفهوم النّسق الثّقافي:

النّقد الثّقافي هو الذي يدرس الأدب الفني باعتباره ظاهرة ثقافيّة مضمرة، وبتعبير آخر، هو ربط الأدب بسياقه الثّقافي غير المعلن. ومن ثمّ، لايتعامل النقد الثقافي مع النصوص والخطابات الجماليّة والفنيّة على أنّها رموز جمالية، ومجازات شكلية موحية، بل على أساس أنّها أنساق ثقافيّة مضمرة، تعكس مجموعة من السياقات الثّقافية التاريخية والسياسية والاجتماعيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة والقيّم الحضاريّة والإنسانيّة. ومن هنا، يتعامل النقد الثقافي مع الأدب الجماليّ ليس باعتباره نصّا، بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر أكثر ممّا تعلن.

يحسن بنا ألّا نخلط بين النّقد الثّقافي و نقد الثّقافة أو الدّراسات الثقافية العامّة، فالنّقد الثّقافي هو الّذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجماليّة والفنيّة، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية. وينتمي هذا النّقد الثقافي إلى ما يسمى بنظرية الأدب على سبيل التدقيق. في حين، تنتمي الدراسات الثقافية إلى الأنثروبولوجيا والإتنولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة والإعلام وغيرها من الحقول المعرفية الأخرى. وفي هذا

1 عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية، العربية، مرجع سابق، ص80.

السياق، يقول عبد الله الغذّامي:" ونميز هنا بين (نقد الثقافة) و(النقد الثقافي)، حيث تكثر المشاريع البحثية في ثقافتنا العربية، من تلك التي عرضت وتعرض قضايا الفكر والمجتمع والسياسة والثقافة بعامة، وهي مشاريع لها إسهاماتها المهمّة والقوية، وهذا كلّه يأتي تحت مسمّى (نقد الثّقافة)، كما لابد من التمييز بين الدراسات الثقافية من جهة والنقد الثقافي من جهة ثانية، وهذا تمييز ضروري التبس على كثير من الناس حيث خلطوا بين (نقد الثقافة) وكتابات (الدراسات الثقافية)، وما نحن بصدده من (نقد ثقافي)، ونحن نسعى في مشروعنا إلى تخصيص مصطلح (النقد الثقافي) ليكون مصطلحا قائما على منهجية أدواتية وإجرائية تخصّه أوّلا، ثمّ هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلّق بآليات استقبال النّصّ الجمالي، من حيث أنّه المضمر النّسقي لايتبدى على سطح اللغة، ولكنّه نسق مضمر تمكّن مع الزّمن من الاختباء، وتمكن من اصطناع الحيل في التّخفي، حتى ليخفى على كتاب النّصوص من كبار المبدعين والتجديديين، وسيبدو الحداثي رجعيّا، بسبب سلطة النّسق المضمر عليه.1

نستخلص ممّا سبق أنّ النّقد الثّقافي عبارة عن مقاربة متعدّدة الاختصاصات، تنبني على التّاريخ، وتستكشف الأنساق و الأنظمة الثقافية، وتجعل النّص، أو الخطاب، وسيلة أو أداة لفهم المكونات الثقافيّة المضمرة في اللاوعي اللّغوي والأدبي والجمالي. أمّا الدّراسات الثقافيّة، فتهتم بعمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وقد توسّعت لتشمل دراسة التاريخ، وأدب المهاجرين، والعرق، والكتابة النسائية، والجنس، والعرق، والشّذوذ، والدّلالة، والإمتاع... وذلك كلّه من أجل كشف نظرية الهيمنة وأساليبها.

1 ينظر: عبد الله محمد الغذامي وعبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى سنة 2004م ،ص ص :37-38.

ويرى عبد الله محمد الغذّامي ضرورة ربط النقد الثقافي بالنسقية 1 ، فإذا كان رومان جاكبسون قد حدد ست وظائف لستة عناصر: الوظيفة الجمالية للرسالة، والوظيفة الانفعالية للمرسل، والوظيفة التأثيرية للمتلقي، والوظيفة المرجعية للمرجع، والوظيفة الحفاظية للقناة، والوظيفة الوصفية للغة. فقد حان الوقت من أجل إضافة الوظيفة النسقية للعنصر النسقي2. ويعني هذا أنّ النقد الثقافي يهتم بالمضمر في النّصوص والخطابات، ويستقصي اللّاوعي النّصي، وينتقل دلاليا من الدّلالات الحرفية والتّضمينية إلى الدّلالات النّسقية.

يستند النّقد الثقافي إلى ثلاث دلالات: الدّلالة المباشرة الحرفيّة، والدّلالة الإيحائيّة المجازيّة الرمزيّة، والدلالة النسقية الثقافية، و" إذا قبلنا – بقول الغذّامي– بإضافة عنصر سابع إلى عناصر الرسالة الستة، وسميناه بالعنصر النّسقي، فهو سيصبح المولّد للدّلالة النّسقيّة، وحاجتنا إلى الدّلالة النّسقية هي لبّ القضية، إذ إن ما نعهده من دلالات لغوية لم تعد كافية لكشف كل ماتخبّئه اللّغة من مخزون دلالي، ولدينا الدّلالة الصّريحة التي هي الدّلالة المعهودة في التّداول اللّغوي، وفي الأدب وصل النّقد إلى مفهوم الدّلالة الضمنيّة، فيما نحن هنا نقول بنوع مختلف من الدّلالة هي الدّلالة النّسقيّة، وستكون نوعا ثالثا يضاف إلى الدّلالات تلك. والدّلالة النسقية هي قيمة نحوية ونصوصية مخبوءة في المضمر النّصي في الخطاب اللّغوي. ونحن نسلم بوجود الدّلالتين الصّريحة والضمنيّة، وكونهما ضمن حدود الوعي المباشر، كما في الصّريحة، أو الوعي النّقديّ، كما في الضمنية، أمّا الدّلالة النّسقيّة فهي في المضمر وليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدققة تأخذ بمبدإ النّقد الثّقافي لكي تكتشفها، ولكي تكتمل منظومة النظر والإجراء."3.

1– ينظر: عبد الله الغذامي:النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية،المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 2000م. عدد الصفحات 312.

2 – ينظر: عبد الله محمد الغذامي وعبد النبي اصطيف: نقد ثقافي أم نقد أدبي،مرجع سابق، ص:24.

3 – المرجع نفسه، ص ص:26–27.

وما يهمنا في هذه الدّلالات الثّلاث هي الدّلالة الثّقافيّة الرّمزيّة التي تكتشّف على مستوى الباطن والمضمر، فتصبح أهمّ من الدّلالتين السّابقتين: الحرفيّة والجماليّة.

ويعتمد النّقد الثّقافي على مصطلح النّسق المضمر، وهو نسق مركزي في إطار المقاربة الثقافيّة، على أساس أنّ كلّ ثقافة معينة تحمل في طياتها أنساقا مهيمنة، فالنّسق الجماليّ والبلاغي في الأدب يخفي أنساقا ثقافيّة مضمرة. وبتعبير آخر، ليس في الأدب سوى الوظيفة الأدبيّة والشعريّة، فهناك كذلك الوظيفة النّسقية التي يعتني بها النّقد الثّقافيّ، وفي هذا الصدد، يقول عبد الله الغذّامي:" **نزعم في عرضنا لمشروع النقد الثقافي، أن في الخطاب الأدبي، والشعري تحديدا، قيما نسقية مضمرة، تتسبب في التأسيس لنسق ثقافي مهيمن ظلت الثقافة العربية تعاني منه على مدى مازال قائما، ظلّ هذا النسق غير منقود ولا مكشوف بسبب توسله بالجمالي الأدبي، وبسبب عمى النقد الأدبي عن كشفه، مذ انشغل النقد الأدبي بالجمالي وشروطه، أو عيوب الجمالي، ولم ينشغل بالأنساق المضمرة، كنسق الشعرنة.**"[1]

ويعني هذا أن النّقد الثّقافي يكشف أنساقا متناقضة ومتصارعة، فيتّضح أنّ هناك نسقا ظاهرا يقول شيئا، ونسقا مضمرا غير واع وغير معلن يقول شيئا آخر، وهذا المضمر هو الذي يسمّى بالنّسق الثّقافي.

يتخفىّ النسق الثقافي –غالبا– وراء النسق الجمالي والأدبي، ومن ثمّ فاستخلاص الأنساق الثقافيّة المضمرة ذات قابليّة جماهيريّة شعبية، على عكس الأنساق النخبوية الّتي لاتلقى شعبيّة عامّة على مستوى الاستقبال والاتّصال، بمعنى أنّ النّقد الثّقافي في خدمة القيم الإنسانية، و خدمة الإنسان كيفما كان مستواه الاجتماعي والطبقيّ و العرقيّ و الإثنيّ،" **إنّ قيما مثل: قيم الحريّة، والاعتراف بالآخر، وتقدير المهمش والمؤنث، والعدالة، والإنسانية،**

1 عبد الله محمد الغذامي وعبد النبي اصطيف: المرجع نفسه السّايق، ص31

هي كلها قيم عليا تقول بها أيّ ثقافة، ولكن تحقيقها عمليا ومسلكيا هو القضية. ولو حدث وكشفنا أنّ الخطاب الأدبي الجمالي، الشعري وغيره، يقدّم في مضمره أنساقا تنسخ هذه القيم وتنقض ماهو في وعي أفراد. أي: ثقافة، فهذا معناه أن في الثقافة عللا نسقية لم تكتشف، ولم تفضح، ويكون الخطاب متضمنا لها، دون وعي من منتجي الخطاب ولا من مستهلكيه."**1**، وما نستنتجه أنّ المقاربة الثقافية لاتعبأ في النّص بتلك الأبنية الجماليّة والفنيّة والمضامين المباشرة، بل ما يهمّها هو استكشاف الأنساق الثقافية المضمرة.

ومفاد ذلك أنّ ما يهمّ النّقد الثقافي هو طرح أسئلة ثقافية جديدة، كسؤال النّسق بدل سؤال النّصّ، وسؤال المضمر بدل سؤال الدّال، وسؤال الاستهلاك الجماهيري بدل سؤال النخبة المبدعة،...و غيرها، وبتعبير آخر، طرح أسئلة ثقافية مركزة ودقيقة، أي إحصاء حيل الثّقافة الّتي تمرّر عبر أنساق النّصوص والخطابات الجمالية والفنية والأدبية. ويعني هذا أن النص الأدبي مشحون بأنساق ثقافية مضمرة وغير واعية. ومن هنا، ضرورة الوقوف على الأنساق الثقافية، وليس على النّص الأدبي والجمالي.

خلاصة لتعريفات النّسق و الثّقافة، يمكن الإلمام بمفهوم النّسق الثّقافي، فالدّراسات التي انصبّت على قراءة الأنساق الثّقافيّة وجدت مجالا منفتحا على التأويل، وهذا النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية.2

ومنه يمكن القول أنّ النّسق الثّقافيّ بنية اتّخذت فيها عناصر مختلفة تداخلت فيما بينها وتفاعلت، مشكّلة ثقافة خاصّة في مجتمع بعينه، على أنّ مكتسبات الإنسان من عناصر متكاملة لكلّ منها ميزاته ونواميسه الّتي تحكمه، كما يحوز على رتبة معينة في إطار النّسق الثّقافي، الذي هو ذاته النّسق الثّقافي، الذي هو ذاته النسق العام، وما هو إلّا تمخّضات الأنساق الخاصّة "**ولعل أوضع مثال على ما يمكن تقديمه في هذا السياق عمل**

1 –المرجع نفسه السابق، ص33.

2 ينظر: أحمد يوسف، القراءة التنسيقية سلطة البنية ووهم المحادثة، مرجع سابق، ص121

فلاديمير بروب"**1**، فقد شخّص علاقة النّسق الحكائي بالنّسق السّردي، فنسق الحكاية مرتبط بالنّسق السّردي العام، وهو ما تثبته الدّراسات الحديثة في كل ما يتعلّق بالأنساق المختلفة وتشابكها، على أساس أنّها قابلة للانتقال فعلا وقولا أو عن طريق التدوين تواترا من جيل إلى آخر لما تتميز به من مرونة، "**فالنسق الثقافي هو النّظام السائد الذي يتضمّن الرّموز والمثاليات وتواصل الأجيال**".**2**

إذن فالأعراف والتّقاليد والشعائر والطقوس الدينيّة واللّغة، واللّهجات المختلفة، والأمثال والحكم، والألغاز، ونمط المعيشة والعلاقات الاجتماعية، والقيم المتعارف عليها، وطريقة المعاملات التجارية و الاقتصادية، وما يحكمها من شرائع دينية، وقوانين وضعية، وسلطات مختلفة، وما انضوى عليه المجتمع الواحد من أفكار خاصّة وعامّة، وردّات فعل إيجابية أحيانا وسلبية أخرى اتجاه مواقف معينة، إضافة إلى المناخ البيئي المتوفّر (الموقع الجغرافي ومناخه)، كلّها تنتظم في وثيقة واحدة شاملة مشكلة نسقا ثقافيّا.

كما يمكن للأنساق الثقافيّة أن تكون ظاهرة، فهي مضمرة أحيانا، مختبئة في اللّاوعي الفردي أو الجماعي، بفعل التأثير والتأثّر فالفرد لا يمكنه العيش منعزلا عن المجتمع، وما المجتمع إلا مجموعة من الأفراد تشكّلوا في نظام أسري، فكلاهما فاعل في الآخر مؤثّر فيه.

ولج مصطلح النّسق عالم الثّقافة و اقترن بها على يد العالم الأنثربولوجي" ليفي شتراوس" تأكيدا منه على أنّ الأنساق موجودة في أي نصّ من النّصوص "**فظاهرة اللّغة والثّقافة ذات طبيعة واحدة**".**3** بينما يذهب "إيكو" إلى توظيف مصطلح الوحدة الثقافيّة "**وهي**

---

1 المرجع نفسه، ص120.

2 ينظر: إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، معجم مصطلحات عصر العولمة (مصطلحات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية وإعلامية) الثّقافة العربيّة للنّشر و الّوزيع، مصر، 2006،د.ط، د.ت، ص466.

3 ضياء الكعبي، السّرد العربيّ القديم، الأنساق الثقافيّة وإشكاليات التّأويل، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، لبنان، 2005، ط1، د.ت، ص21.

أي شيء يمكن أن يعرف ثقافيّا ويميز بوصفه وحدة مستقلة"1، حسب مفهومه، فالأشخاص، والأمكنة، والمجالات النفسيّة، والتوهّمات، والظّنون المسبقة...، كلّ واحدة منها على حدى تشكّل وحدة ثقافيّة.

أمّا عند النّقاد العرب، فعبد الله الغذامي يحدّد مفهوم النّسق الثقافي بالاحتكام إلى شروط جمالية وأخرى معرفية من خلال تحليل عناصره، وتتمثل تلك الشروط في اعتبار أنّ النّسق يتحدّد من خلال وظيفته الّتي لا تحدث إلّا في وضع محدّد ومقيّد، و"**يكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد، أو فيما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا وأن يكون جماهريا"2**، بعض النفوس تفتقر إلى الجمالية، رغم أنّها تعالج قضيّة هامّة تمسّ الحياة الاجتماعيّة للأفراد، فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ الأفلام البوليسيّة الغربية الّتي تظهر دائما المجرم على أنّه زنجيّ من أصول إفريقيّة، والشرطيّ الذي يترصّده من جنس أبيض، تكتشف من نسق ثقافيّ مضمر، ألا وهو العنصرية التي يكنها ذووا الأصول الأوروبية للأجناس السّمراء، وفي نسقها الثقافي الظاهر تبدو إصلاحا اجتماعيا للقضاء على الجريمة وتوفير الأمن لأفراد المجتمع.

في حين يذهب "محمد مفتاح" إلى تعريف الأنساق الثقافيّة المفتوحة بأنها "**التّأرجح والأنموذج، وأن المنهجية الشموليّة إذا حلّلت عناصر كلّ بنية وكشفت عن خصائصها، وامتدّت إلى القوانين الّتي تحكمها، ثم استخلصت الوظيفة الجامعة بينها، فعندها تؤدّي إلى الكشف عن نظام العناصر وانتظامها.**"**3** العناصر الّتي تشكل البنية بوصفها عناصر منتظمة متكاملة فيما بينها، كلّ عنصر على صلة وطيدة بالعنصر الآخر، في إطار القوانين التي تضبطها من خلال وظيفة تجمعها، ممّا يؤدّي إلى ترتيب كل عنصر في مرتبته المناسبة له.

---

1 المرجع نفسه، ص21.

2 الغذامي، النقد الثقافي، مرجع سابق، ص77.

3 أحمد يوسف، القراءة النسقية، سلطة البنية، مرجع سابق، ص143.

من وجهة نظر مختلفة، يرى "فوكو" أن النّسق علاقات متواصلة متغيرة بعيدا عن الأشياء التي تربط بينها بشكل أو بآخر، فهو يعتبر «**أنّه يمثل فكرا قاهرا قصريا مغفل الهوية، وهو أيضا نظرية كبرى تهيمن في كل عصر على التي يحيا بها البشر**»1.

ما يستشف من وجهة نظر "فوكو"، أنه يولي أهمية كبرى للأنساق الثقافيّة، أقل ما يقال عنها أن ثنائيات متضادّة، على سبيل المثال مكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، مكانة وضيعة تقيدها النظرة الدونية، أما في الشّعر الجاهلي، فهي عكس المكانة الاجتماعية، فهي الحبيبة التي يتغنّى بها، وهي بؤرة مطلع القصائد، وهي مبكى الطّلل.

أمّا "سعيد يقطين" فيرى أن السياقين الاجتماعي والثقافي يحاصران التاريخ الزمني للنّص المنتج، «**ولا يمكن لإنتاج الكاتب النّصي أن يكون خارجا عن السياق الّذي يتفاعل معه إيجابا أو سلبا قبولا أو رفضا، وهذه بنيات المنتج في زمنيتها التاريخيّة لهذا النّص**»2، إنّما قصده من هذا دراسة أنساق النّص المنتج ضمنيا أي المضمرة منها، أو قراءة مباشرة من خلال الأنساق الظّاهرة، وذلك كلّه من كنه النّص وعمقه.

إذن الأنساق الثقافية تتكشف بتحليل الظّاهر والباطن للمنتج ذاته، وذلك يحيلنا إلى الاعتراف بازدواجيّة الخطاب نفسه، في إطاره الاجتماعيّ، فيخضع إلى الاستنتاج الظّاهر من خلال الأنساق الظّاهرة، والتّأويل أي تقصي الأنساق المضمرة.

إجمالا إنّ أي منتج أدبي في إطار العلوم الإنسانيّة، والأجناس الأدبيّة المختلفة، لا يمكنه التملص من نواميس النقد الثقافي، التي صارت تخضع النص إلى قراءات متفاوتة الرؤية والتحليل، على اعتبار أنّ النّصوص على اختلافها، وخاصة نصّ الأدب

1عبد الله حبيب التميمي وسحر كاظم حمزة الشجيري، دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشّعر، مجلة بابل، العلوم الإنسانية، العراق، مج 22،ع 2، 2014، ص315.

2سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء و بيروت، ط2، 2001، ص34.

الرّحليّ ينطوي على أنساق ثقافيّة ماهي إلّا بنى مضمرة نتيجة تراكمات لغويّة تاريخيّة مترتبة نتجت عن فعل التّرحال، الذي أكسبها أفكارا ذات أبعاد متباينة وعديدة، ترافقها تصوّرات عن مجتمع من المجتمعات.

تفضي الدّراسة الثّقافيّة والجماليّة للخطاب الرّحليّ، حتما إلى تصنيف الأنساق الثقافية المضمرة والظّاهرة إلى اجتماعيّة، دينيّة، اقتصاديّة، سياسيّة...وهذا الخطاب –أي الرّحلي– يخفي بين طيّاته اللّسانية بين ثقافيّة مختلفة مرجعيّتها تاريخيّة وفكريّة في بوتقة معرفيّة أو اجتماعيّة.

خلاصة لما سبق من تعريفات النّسق، والثّقافة، ثم النّسق الثّقافيّ:

النسق في اللّغة يعني النظام.

- اصطلاحا هو كلّ عنصر له خصائصه ونظامه وقانونه يؤدّي وظيفة معيّنة.
- الثّقافة في اللّغة: هي المعرفة والذّكاء والفطنة.
- تعريفات الثّقافة متنوّعة عند الغرب والعرب، لكنّهم اتّفقوا على أنّها: التّراث الاجتماعي لكلّ مجتمع، على أنّه لكلّ شعب ثقافته الخاصّة به والّتي تميّزه عن غيره من الشّعوب.
- النّسق الثقافي: هو مجموعة العناصر المتكاملة فيما بينها والتي هي أساس ودعامة قيام ثقافة شعب ما.
- أنّ العادات الاجتماعية والتّقاليد والأعراف، والقيم المختلفة، والأمثال والحكم، والألغاز الشعبيّة، واللّهجات المحليّة هي العناصر التي تحدّد النسق الثّقافيّ.

الفصـــــــل الأول:

النّص الأدبي الجزائري في العهد العثمانيّ و المرجع الثقافيّ

توطئـــــة

1- التعايش الاجتماعي في الجزائر في ظل الحكم العثمانيّ

2- الحياة الثقافية و الفكرية

3- مراكز التّعليم و الثّقافة

4-مستويات الكتابة

توطئة :

لم يتمكن العثمانيون من حكم القطر الجزائري كلّه في وقت واحد، إنّما دام اجتياحهم –توطيدا لحكمهم– ردحا من الزّمن، " **ثمّ إنّه بعد أن امتدّ و توطّد لم يكن على درجة واحدة من التّغلغل و التأثّر** "[1] ، كما ساعدهم " **الاستقرار الدّاخلي لدولة الجزائر و هوتيها على تطوّر الروابط الثقافية** "[2] الّتي ارتبطت بوجود مراكز التّعليم المختلفة " **حيث ارتبط الوضع الثّقافي عامّة و الحياة الفكريّة خاصّة في الولايات العثمانيّة بالمؤسّسات التعليميّة**"[3] ، المنتشرة انتشارا واسعا و " **الّتي كانت تقوم على الكتاتيب و المدارس و المساجد و الزوايا التي كانت تنتشر في المدن و الرّيف** "[4] ، اشتهرت كثيرة منها وذاع صيتها ، "**أشهر المدارس و الزوايا للبلاد الجزائرية ما كان موجودا بمدينة الجزائر** " **الجامع الكبير**"، "**كتشاوة**"، و " **سوق الجمعة**"، "**الفشاشين**"، **و الزّوايا الأندلسيّة**"، " **الشرفة**"، و " **سيدي عبد الرّحمن** "[5]، **إذ** المراكز الثّقافيّة آنذاك كثيرة حيث " **كانت قسنطينة و تلمسان تؤدّي أدوار المراكز الثقافيّة و الفكريّة** "[6]، فحافظت للشّعب الجزائريّ على لغته العربيّة، و دينه الإسلام.

و يعود الفضل في نشر العلوم و المعارف المختلفة إلى المؤّسسات التّعليميّة على اختلافها من مساجد، و زوايا، و مدارس حيثما تواجدت في المدن، و القرى، و المداشر،

1أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر "، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ،(1426هـ ،2005م) ، ج5، ص171.

2وليم سبنسر، " الجزائر في عهد الرياس البحر "، تعريب و تقديم: عبد القادر زيادية، دار القصبة للنّشر، الجزائر، د.ط ، 1980 ، ص82.

3ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، " تاريخ الجزائر في العهد العثماني " ، البصائر الجديدة للنشر و التّوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2013 ، ص 144.

4الحسين بن محمد الورثيلاني، " نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار " ، تحقيق : محّمد بن شنب ، الجزائر ، د.ط، 1908 ، ص 621.

5ناصر الدين سعيدوني، المرجع السّابق ، ص142.

6وليم سبنسر ، المرجع السّابق ، ص 83.

" **فقامت بتحفيظ ما تيّسر من القرآن الكريم، و بتلقين ما هو ضروريّ من أمور العبادة، ممّا حدّ من ظاهرة الأميّة** " [1] رغم أنّ الأتراك الحكّام لم يكونوا يحسنون اللّغة العربيّة ، "**إلّا أنّهم حفلوا بتشجيع كلّ ما تعلّق بها من علوم مختلفة، و أشهرهم الباي " محمد الكبير "، الذي جعل مدينة معسكر عاصمة علميّة و ثقافيّة كبيرة** " [2]، فساهموا بذلك في توطيد أركانها، و المحافظة على مكانتها لكونها لغة القرآن الكريم.

1- التعايش الاجتماعي في الجزائر في ظلّ الحكم العثماني:

عاش العرب و الأمازيغ ردحا من الزمان جنبا إلى جنب في الجزائر، دينهم الإسلام المالكي السني, مشكّلين الغالبية العظمى من سكّان الجزائر، و قد أورد مثل هذا الكلام ابن خلدون في مقدّمته حين قال :" **إنّ زناته البربرية اندمجت في القبائل العربية**"[3]، إذ توزع سكّان الجزائر آنذاك بين المدن و الرّيف، في حين عرف سكّان المدن بالتّحضّر و الاستقرار، عاش سكان الريف بالترحال و البداوة، و ذلك أنّ الظّروف الطبيعية هي الّتي دفعتهم إلى السّفر المستمرة، كلّما اقتضت الحاجة، معظم سكّان الجزائر كانوا يشكّلون مجتمعا ريفيّا بحتا، بالمقابل مثّل سكّان المدن القلّة القليلة.

2- الحياة الثقافيّة و الفكريّة:

لم تكن الحياة الثقافية الجزائريّة على ما يرام بسبب السياسة السائدة آنذاك، الّتي لم تكن تولي العناية اللّازمة للّغة الأمّ، فعمّ التّشرذم بسبب وجود لهجات عاميّة مختلفة لم تكن صالحة لتوثيق التاريخ أو لتسجيل العلوم و الآداب " **لا نجد النّظام قد فرض لغة**

1ناصر الدّين سعدوني ، المهدي البوعبدلي، " تاريخ الجزائر في العهد العثماني ، مرجع السابق ، ص144.

2صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر في العهد العثماني إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م /1962 م) ، دار العلوم للنشر و التوزيع ، كتابة الجزائر ، د.ط ، 2003 ، ص127.

3عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تاريخ بن خلدون المسمّى كتاب العبر ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد 6، ط1، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1992، ص 75.

أولهجة الواحدة, كما فعل فرانسوا الأول بفرنسا أو فعلت عائلة الرومانوف بروسيا، بل أنّ المركزيّة السياسيّة العثمانيّة قد أبقت على الفوضى اللّغويّة أيضا بعامّيتها البربريّة و العربيّة (...) و بتقسيم النّفوذ بين العربيّة و التّركية حيث كانت الأولى لغة الدّين و التّعليم (...) و كانت التركيّة هي لغة الإدارة"[1]، تأثّرت اللّغة التركية كثيرا باللّغة العربيّة، حيث أضحى الأتراك يكتبون – وهم حكّام البلاد– رسائلهم بالعربيّة، و الشّاهد انتشار المخطوطات التي كانت و ما زالت تملأ رفوف المتاحف و خزاناتها في تركيا.

عرف الأدب العربيّ –بفنونه المختلفة– ركودا شديدا خلال الحكم العثمانيّ للبلاد العربيّة عامّة، و الجزائر خاصّة، رغم أنّ اللّغة العربيّة كانت لغة التّعليم و الدّين، و بعض الشّعر " **و قد أرّخت بعض كتب الرّحالة الّذين حلّوا بالجزائر إبّان الفترة العثمانيّة إلى أنّ التّعليم كان منتشرا في الجزائر و أنّ كلّ جزائريّ كان يعرف القراءة و الكتابة** " [2] ، كانت الزوايا القرآنية منتشرة بكثرة خلال تلك الفترة، و قد عملت على تحفيظ القرآن الكريم للصبية منذ نعومة أظافرهم، و تلقينهم الحديث النّبويّ الشّريف، و تعليمهم علوم العربيّة و فنونها المعروفة آنذاك.

3– مراكز التّعليم و الثّقافة :

1– **الكتاتيب** : من أكثر دور العلم انتشارا و احتواء لطلّاب العلم في العهد العثمانيّ و قد وفد عليها النّاس " **في مختلف البلدان الّتي خضعت للحكم العثمانيّ، و قد وصف بأنّه عبارة عن حجرة مفروشة بحصر بالية** " [3]. يدفع النّاس بأبناءهم إلى الكتّاب على أنّه مكان مقدّس و الشّرف كلّه في طلب العلم فيه، يعمل به شيوخ أشدّاء يحرصون على تعليم

1أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، مرجع سابق ج 05 ، ص09.

2 أبو القاسم سعد الله ، محاضرات و أبحاث في تاريخ الجزائر الحديث، الشركة الوطنية للنّشر و التّوزيع ، الجزائر، ط3، 1990 ، ص159.

3سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العثمانيّ، دار المسيرة للطباعة و النشر2013، عمان، الأردن، ط1، د.ت، ص 57.

الأطفال مختلف العلوم الدينيّة، و بعض العلوم الدنيويّة، فيحفظون القرآن كاملا، أو شيئا منه، و علوم الحديث النبويّ الشّريف، و بعض المتون الفقهيّة و النّحويّة، إلى جانب علوم العربيّة من بلاغة و عروض... و غيرها.

4- مستويات الكتابة :

يعدّ الأدب لون من ألوان التعابير الراقية عن خواطر و هواجس و أفكار الإنسان، و ما يستبطنه من مشاعر إنسانيّة، يعكسها على شكل أجناس أدبيّة تترجم ذلك كلّه نثرا أو شعرا، و ما الأدب في مفهومه الأقرب إلى المعنى الصّحيح إلّا إنتاج فكري، يتّحد بفروعه المختلفة لكلّ أمّة من الأمم، و هو انعكاس لثقافتها و مجتمعها.

4-1-النّثر الجزائري في العهد العثمانيّ:

يعرّف النثر في مفهومه العامّ، بأنّه الكلام الفنّي الجميل المبثوث بأسلوب محكم، و لا يخضع لنظام إيقاعي كما هو حال الشّعر، تميّزه اللّغة المنتقاة بعناية و الفكرة الجليّة، و التفكير السليم المقنع، المؤثر في المتلقّي، من الفنون الّتي عرفت في عهد الحكم العثماني، و يشمل " **النّثر المقامات و الرّسائل الرّسميّة و الإخوانيّة و الوصف و التقاريظ ، و التّعازي ، الّتي تفنّن فيها أصحابها** "[1]، و تنافسوا على التفنّن في إنتاجها، و في كثير من الأحيان لم تتعدّ التّقليد لا غير.

شاعت الصّنعة اللّفظيّة في العهد العثمانيّ، حيث طغى السّجع على الأجناس الأدبيّة المختلفة آنذاك، فانشغل به أبوراس النّاصري، ابن هطّال التّلمساني، الحسين بن محمد الوثيلاني ... و غيرهم، و لم يكن يعدّ هذا اللّون من البديع في زخرفة النّصوص عيبا، و لا ينزل من قيمة المنتج الأدبيّ في تلك الحقبة، إذا ما قورنت بفترات أخرى منها هي فترة الرّكود الأدبيّ و الاضمحلال الثقافي، و على جبهة أدبيّة أخرى كانت فئة من المبدعين

1أبو القاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثقافي "، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1 ، 1998، ج2 ، ص71.

لا ترعى للكلفة شيئا، و تكتب بأسلوب قد تجرّد من ثقل المحسّنات اللّفظيّة، و لعلّ أجرأ اسم على ذلك "أحمد الزّاشدي".

من الشّخصيات البارزة الّتي احتفى الأدب الجزائري بتدوين أسمائها على صفحاته الخالدة، المقرّي "**الّذي يمثّل الأدب الجزائريّ في القرن الحادي عشر** "[1]، إلى جانب شخصيّة " **عبد الكريم بن محمّد الفكّون** " **و هو من سلالة العلماء الأكابر، و ورث المجد كابرا عن كابر** " [2] ، و قد عرف الكتّاب و الأدباء الجزائريّون في بايلك الغرب بسعيهم إلى إنتاج أدب راق يستشرفون ألى تطويره، و تحقيق الأفضل " **بدليل اللّقاءات و المناقشات الّتي كانوا يجرونها مع العلماء من مختلف بلدان الوطن العربيّ** "[3]، و كثيرا ما تفوّقوا في مناظراتهم، و مناقشاتهم تلك، لتمكنّهم من ناصية اللّغة و قوّة الملكة الحافظة لديهم، و سرعة البديهة.

يقصد بالنّثر الكلام المبثوت، المشكّل جملا ذات معان واضحة، و يشمل "**المقامات و الرّسائل الرسميّة(الديوانيّة) و الإخوانيّة، و الوصف، و التّقاريظ، و التّعازي، و عقود الزّواج، الّتي تفنّن فيها أصحابها، والإجازات المنمّقة، و الشّروح الأدبيّة، و القصص و الخطب، و قد كان الأدب الجزائريّ في العهد العثماني غنيّا ببعض هذه الفنون كالرّسائل و التقاريظ، لكنّه كان فقيرا في بعضها كالخطب و القصص** "[4]، و قد اشتهر في ذلك علماء و أدباء كثر، يعود لهم الفضل في ذلك الإرث الثّقافي الّذي تزخر به اليوم المكتبات الجزائريّة، و المتاحف التّركيّة و الفرنسيّة.

1محمّد الطمّار ، " تاريخ الأدب الجزائريّذ " الشركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ص238.

2أحمد المقرّي ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب، و ذكر وزيرها لسان الدّين الخطيب، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة الأزهريّة، القاهرة، ط1، 1997م ، 1949، ج10،.ص110.

3صالح فركوس ، تاريخ الثقافة الجزائريّة من العهد الفنيقيّ إلى غاية الاستقلال (814 ق.م/1962) ج1 ، إيدكوم للنّشر و التّوزيع ، د.ط ،2013 ، ص 536.

4أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سالق، ج2، ص171.

عرف جلّ الحكّام الأتراك بعدم اهتماماهم باللّغة العربيّة، فهم ذاتهم لم يكونوا يتحدّثون بها، فمعظمهم كانت لغته الأمّ هي التركيّة، أو إحدى اللّغات الاوربيّة، حتى اللّهجات غير العربيّة التي كانت منتشرة في بلاد القبائل و الأوراس ولدى بني ميزاب، كانت تضيّق على اللّغة العربيّة و تحاصرها، و شاع اللّحن في صفوف المعلّمين، يرد في كتب التاريخ و السيّر ذكر ثلّة قليلة من الباشاوات الأتراك ممّن شجّعوا على تعلّم العربيّة، واحتفوا بفنونها أمثال محمّد بكداش، إذ يقول عنه أبو القاسم سعد الله: "**حقّا إنّنا وجدنا بعض الباشاوات، مثل محمد بكداش، يجمع حوله نخبة من المثقّفين، باعتباره كما قيل، قد جمع النّظم و النّثر و الخطابة و الشّعر** "[1]، و هو ذاته كان أديبا و شاعرا، كما عرف الباي محمد الكبير بتشجيعه التّعليم بالعربيّة و النّسخ و التّأليف [2].

انتشرت في ذلك العصر أنواع من الفنون النثريّة، و تنافس أدباء الجزائر و شعرا،ها على الخوض في غمارها كما سبق الذكر ، منها :

4-1-1- الشّروح الأدبيّة :

شاع بين أدباء الجزائر في ذلك العهد ظاهرة أدبيّة، هي الشروح الأدبيّة، إذ لاقت إقبالا كبيرا حتّى من طرف الأدباء الكبار و الشّعراء في تلك الآونة، بلجوئهم إلى شرح بعض الأعمال الأدبيّة، كالقصائد و غيرها، سواء كانت القصيدة للشّاعر ذاته أم لشاعر آخر.

شرح أحمد بن سحنون – و هو من كبار شعراء عصره– القصيدة المسماة" العقيقة" للسعيد المنداسي، و شرحها أبو راس النّاصري أيضا، و غيرهما، و تنافسوا على التفنّن في ذلك، لكل نهجه في إيراد الشّعر و القرآن و الحديث أثناء الشّرح، و إنّما أقبلوا على شرحها (العقيقة)، لكونها قصيدة مطوّلة لشاعر له مكانته العلميّة و الأدبيّة في مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلم و صحابته، و قد سمّى ابن سحنون شرحه " الأزهار الشّقيقية المتضوّعة

1 المرجع السابق ، ص171.

2ينظر: المرجع نفسه السّابق ، ص ص171-172.

بعرف العقيقة"، أمّا أبوراس النّاصري فعنونها "بالدّرة الأنيقة"، و قد جعلوا لشروحهم مطلعا خاصّا، هو بمثابة التمهيد، ثم يشرحون القصيدة بيتا بيتا، و الجدير بالذّكر منها، أنّ غاية هذه الشّروحات هو خدمة الأدب و اللّغة العربيّة و بلاغتها، مظهرين في ذلك قدراتهم الفنيّة و الخياليّة و جماليّة تذوّقهم الأدبيّ[1] .

كما شرح أبوراس النّاصري قصيدة الصّيد المسمّاة "روضة السّلوان"، و قد وسمّاها بالشقائق النعمانيّة في شرح الرّوضة السّلوانيّة "، افتتح شرحه بالحمدلة، ثم ترجم للفجيجي صاحب القصيدة، فذكره و أثنى على شيوخه، و ذكر اللّطائف و الغرائب...[2] و على هذا المنوال شرح عددا كبيرا من القصائد .

4-1-2- التّقاريظ و الإجازات و العقود :

وهي من أشكال النثر الأدبي، أمّا التّقاريظ و الّتي يقصد بها مدح شخصية من الشخصيات، أمّا من النّاحية الأدبيّة و الّتي تعني دراسة تتناول كتابا (مؤلّفا) بذكر محاسنه ووصف مزاياه، و هذا هو المقصود هنا، بكلامنا سواء كان الكتاب في الفقه أم في الأدب، و أهمّ ما فيه هو الأسلوب الّذي تناول الكتاب (التقريظ) و ليس الموضوع (المقرظ)، و يغلب عليه الطّابع النّثري، و قد يمزج بين النّثر و الشّعر أحيانا، كما فعل أحمد بن عمّار في تقريظه لكتاب "أحمد بن حمادوش"، الموسوم ب"الدّرر على المختصر"، و ختمه بأبيات من الشعر [3] .

كما حظي مؤلّف "الأزهار الشّقيقة" لاحمد بن سحنون بتقريظ من طرف المفتي محمّد بن الشّاهد، أورده في شكل رسالة من صفحتين، جيّدة السّبك، رصينية الأسلوب، مدح ابن

1ينظر: نفسه السابق ، ص174.

2ينظر: نفسه ، ص178.

3ينظر: نفسه ، ص ص182-183.

سحنون، وذكر محاسن كتابه، و كذلك فعل المختار بن عمر الصّنهاجي الملّقب "نكروف"[1]، و يشترك مع ابن الشّاهد في كونهما لم يستعملا الشّعر في تقريظهما، أمّا التقريظ الثّالث فصاحبه مجهول جمع فيه بين الشّعر و النّثر، و الثّلاثة أجمعوا على مدح شارح "العقيقة " ابن سحنون"، ووقفوا على محاسن مؤلفاته و أثنوا على براعته رغم صغر سنّه.

أمّا الإجازات، فغلب عليها الطّابع الأدبيّ، لكون معظم كتّابها أدباء، وتتناول السّند و تسرد أسماء شيوخ الدّراسة، ووردت في غالب الأحيان على شكل واحد، وقد منح ابن عمّار عديد الإجازات لغيره أمثال "**إبراهيم السيّالة التّونسي و عبد السّتار بن عبد الوهّاب المكّي الهندي**[2]، و أجاز عمر المانجلاتي الأديب المغربي ابن زاكور، "**و هي أقدم زمنا من إجازة ابن عمّار**"[3]، و في هذا شهادة على المكانة الرّفيعة لعلماء الجزائر و شيوخها و أدبائها.

طغى على العقود الأسلوب الأدبيّ، في كتابتها كذلك ، نظرا لبراعة القضاة في امتلاك ناصية اللّغة العربيّة و آدابها إلى جانب ثقافتهم الفقهيّة و القانونية، وسارت على نمط واحد حتّى صارت تقليدا، وقد احتوت رحلة ابن حمادوش نصوصا مختلفة لعقود زواج أبكار و ثيّبين، وكتبها أصحابها بشكل تقليديّ، بصيّغ فقهية أو أدبيّة اجتماعيّة[4]، و من النّماذج الّتي شاعت في ذلك العصر، ماكتبه العالم و الأديب محمّد بن عبد المؤمن، و قلّده القاضي محّمد بن المسيسني في كتابته عقد زواج حفيد إبراهيم باشا بالجزائر[5]، وغلب على تلك العقود في غالب الأحيان السّجع و التكلّف و الصّفة اللّفظيّة.

1ينظر: المرجع نفسه السّابق ، ص184.

2 المرجع نفسه ، ص ص186-187.

3المرجع نفسه، ص186.

4ينظر: المرجع نفسه ،ص187.

5ينظر: المرجع السابق، ص187.

4-1-3- الرّسائل :

عـرف العـرب بتبحّـرهم فـي التّرسّـل كباقـي الأمـم، فكتبـوا الـرّسائـل وبعثوها مـع الرّسـل أو بواسطة الحمام الزّاجل، و قد كتب الرّسول صلى الله عليه وسلّم إلى ملوك و الأمم غير العربيّة آنذاك يدعوهم إلى الإسلام، و لا ينسى فضل عمر بن الخطّاب-رضي الله عنه- في إنشاء نظام البريد، و توالت العصور و الترسّل في تطوّر.

احتفى الأدباء الجزائريون كلّ العصور، و العثماني خاصّة، و عامّة فئات المجتمع بالرّسائل على أنواعها رسميّة (ديوانيّة)، و إخوانيّة، فكان منهم المقل و المكثر، حسب شخصية كلّ عالم أو أديب أو غير ذلك، فمنهم من كان له من العلاقات الكثير، فراسل كثيرا و منهم من كانت علاقته محدودة فقّل ترسّله، كما أنّه ثمّة عوامل أخرى تدّخلت في تمظهر تلك الرّسائل، كشهرة الأديب أو مزاجه، من الذّين اشتهروا باتساع دائرة مراسلاتهم: أحمد المقرّي، سعيد قدورة، أحمد بن عمّار، وتفوّق آخرون نظما، وجمع جهابذة منهم بين النثّر و الشّعر، مهّد لرسالته بمدح الأتراك و حكمهم في الجزائر، ثمّ مدح الباشا ودعا له، و ختمها بالإفصاح عن طلبه في طلب المعونة من الباشا[1]، و سار على هذا النّمط من التّرسل كثيرون.

أمّا الرّسائل الديوانيّة(الإداريّة)، المكتوبة باللغة العربيّة فقليلة جدّا مقارنة مع المكتوبة بالتركيّة، لكون معظم الحكّاك الأتراك لا يجيدون العربيّة، و معظم التعاملات الديوانية كانت تتمّ بالتركيّة، رغم توظيف بعض الباشاوات لأدباء و كتّاب و مؤرّخين حاذقين في اللّغة العربيّة، و نذكر على سبيل المثال: يوسف باشا ومحمّد بكداش باشا، و محمد الكبير و الحاج أحمد في قسنطينة...[2].

1 ينظر: المرجع نفسه، السابق، ص ص188-189.

2ينظر: المرجع نفسه السابق ،ص190.

و من أمثلة الرسائل الديوانيّة، مراسلات يوسف باشا و محمد ساسي البوني، كتلك الّتي طلب فيها من البوني حثّ النّاس على طاعة الحاكم، و أخبره عن عدوله عن محاربة الإسبان بوهران و توجهّه إلى الشرق (قسنطينة، بسكرة) لمحاربة المتمّردين، ورّد عليه البوني برسالة أخرى يطلب فيها العفو عنهم[1]، و ما يلاحظ على هذه الرّسائل النثرية، طغيان السّجع و التكلّف، أي غلبة الأسلوب الأدبيّ المنمّق.

4-1-4- الوصف :

وسيلة من وسائل التّعبير في اللّغة، و هي التّي يحاول فيها المتكلّم التّعبير عن ملامح وصفات الشيء بطريقة فنيّة، وذلك لتقريب الشّكل إلى ذهن القارئ أو السّامع، و الوصف يستخدم للتّعبير عن كلّ أنواع السّمات، و يستخدم للتّعبير عن جودة الشيء أو سوئه.

و هو فنّ من فنون التّعبير اللّغوي،"**ولون من ألوان النثر الأدبيّ، و نعني به الوصف ، وصف مظاهر الطّبيعية أو وصف القصور و المدارس و نحو ذلك من المنشآت البشريّة،(...) و يدخل في الوصف أيضا وصف الكتب و الخيل و غيرها من الحيوانات، ووصف القوافل و المدن، و يمكننا أن نضيف إلى هذا اللّون الوصف المعنوي كوصف المشاعر الإنسانيّة عند الحجّ، ووصف أثر نكبة من النّكبات على الإنسان، أو الحديث عن معركة طغى فيها الحسّ الدّيني، إلى غير ذلك**"[2]، و لا يحصى ممّن مالوا إلى الوصف نثرا إلّا قلّة.

يعدّ أحمد بن عمّار واحد من أولئك القلّة، إذ يورد في رحلته وصف مشاعره الحانية في عزمه على زيارة البقاع المقدّسة إذ يقول: "**لمّا دعتني الأشواق، النّافقة الأسواق، إلى مشاهدة الآثار، و الأخذ من الرّاحة بالثأر، و أن أهجر الأهل و الوطن، و أضرب في حواظر البيد بعفن، و أن أخلع على السّائلين السّاكنين الكرى، و أمتطي ظهر السّهر**

1ينظر: المرجع نفسه السّابق، ص191.

2أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق ، ص199.

و الثرى، لبيت داعيها، و أعطيت كريمة النّفس ساعيها، علما منّي أن ليس يظفر بالمراد من لم يتابع الإصدار للإيراد "[1]، وغلب على كلامه السّجع المتكلّف رغم أنّ أسلوبه يتميّز بالإحكام، و حسن الرّصف و السبك و تمّيز الحسين الورثيلاني بحسن الوصف في تعبيره عن شوقه الكبير لزيّارة البقاع المقدّسة،" **فأنّي لمّا تعلّق قلبي بتلك الرّسوم و الآثار و الرّباع، و القفار و الدّيار... يستعظمها البادي، ويستحسنها الشّادي**"[2]، وسنورد القول كاملا في الحديث عن الرّحلة الورثلانيّة لاحقا.

كما وجدت لابن عمّار قطعة نثريّة كما أشار إلى ذلك الدّكتور أبو القاسم سعد الله ، إذ يصف فيها قصر ابن عبد اللطيف بالعاصمة، الذّي استضافة فيه و أكرم وفادته، و قد جمع في وصفه بين الشّعر و النثر، و حاول فيه استنفاذ ما لديه من بلاغة و فنون الأدب المختلفة، حتّى يخرجها قطعة نثرية متفرّدة بما نمّقها به من سجع و غيره، وهذا نسج حاول فيه التّفوق على ابن الخطيب و الفتح بن خاقان[3]، خاض أدباء الجزائر في ذلك العهد في مختلف الفنون الأدبيّة، فما من شكّ أنّه كانت لهم التّجربة في الوصف النّثري بنوعيه و إن قلّ، و كثيرا ما نصادف ذلك في ثنايا مؤلفاتهم كرحلات المقري، ابن عمّار، الورثيلاني، أبي راس النّاصري، ... و غيرهم.

4-1-5- الخطابة :

أقدم فنون الأدب العربيّ، عرفها العرب قبل عصر الإسلام وكانت تضاهي الشّعر عندهم، و تطّورت بعد مجيء الإسلام، و عرفت التخصص بعدما كانت خطبة عامّة تضم

1أحمد ابن عمّار، نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب، ، تح : محمد بن أبي شنب، مطبعة قونتانة ، الجزائر ، 1902، (الدّيباجة)، ص03.

2الحسين الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، 2006،ج1، ط2008،1،المقدمة، ص12.

3ينظر: المرجع السّابق، ص ص 200-201.

توليفة من المواضيع ، فصنفت حسب الميادين و الأغراض من: دينيّة، سياسيّة، اجتماعيّة، عسكريّة،... و غيرها .

يشترط في الخطبة مجموعة من الخصائص لعلّ أهمّها: أن يتوسّط حجمها بين الطّول و الإيجاز، و تؤكّد على فكرة معينّة تتناسب و فئة المستمعين، اعتمادها على الجمل القصيرة الواضحة المعنى، و مع الإكثار من الاستشهادات من القرآن و السّنة النبويّة الشّريفة، و الأشعار، و إيراد الحكم و الأمثال...، و يجب أن تتوفّر في الخطبة عناصر ثلاث، هي: مقدّمة، أي تمهيد مناسب للموضوع، و عرض تفصيلي للفكرة المعالجة يطغى عليه الأسلوب الإنشائي، كالأمر الّذي غرضه الوعظ و الإرشاد و النّصح..، و النّهي، و النّداء لجلب انتباه السّامعين، و يفترض في الخطيب فصاحة اللّسان و أن يكون جهوري الصّوت لغرض الإيصال و الإبلاغ و أناقة الهندام، و الجرأة.

و كل تلك الشّروط توفّرت في علماء الجزائر وخطبائها، منذ وصول الإسلام إلى ديارهم، ونبغوا في ذلك، لكنّهم فقدوا ذلك الأفق المتّسع بمجيء العثمانيين، و انحصرت الخطابة في المساجد، و لم يحتف بها الحكام الأتراك لأنّهم لم يكونوا يجيدونها[1]، و لا يجيدون اللغة العربيّة ذاتها.

تراوحت مقامات الخطباء بين المجيد المبدع، و بين المسيء الجاهل، وقد جمع بعض العلماء المجيدين بين الإمامة و الإفتاء، و من هؤلاء مصطفى بن عبد الله البوني الّذي ورد ذكره بالمدح و الثّناء لدى محمّد بن ميمون في "التحفة المرضيّة"، وقد ورد ذكر خطباء آخرين ممّن شهد لهم علماء عصرهم بالحذاقة و ذكروهم في تأليفهم مثل " التّقييد" لابن المفتي، و"منشور الهداية" للفكون [2]، و بقي آخرون مغمورين لم يرد لأسمائهم ذكرا.

1ينظر: المرجع نفسه السّابق، ص202.

2ينظر: ألو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص204.

من أشهر خطباء الجزائر آنذاك "**سعيد قدورةّ، و سعيد المقري و أحمد المقري و عبد الكريم الفكون و أحمد بن عمّار و لكنّ خطبهم غير مدّونة**"[1]، وصعوبة الحصول على نصوص من تلك الخطب جعلتها مجهولة القيمة الأدبيّة، وذلك لضياعها أو تواجدها في أماكن غير معلومة لدى الباحثين و النّقاد.

لكن من خلال بعض النّماذج القليلة الّتي حظيت بالدّراسة و النّقد، اتّضح أنّها طبعت بغلبة السّجع عليها، و التّورية، و من أمثلة ذلك خطبة سعيد المقرّي التي حاول من خلالها معارضة القاضي عياض بتضمينها التّورية بأسماء سوّر القرآن الكريم [2]"، و من الواضح أنّها خطبة جمعة من خلال مقدمتها" **الحمد لله الّذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفي آل عمران رجالا و نساء و فضلّهم تفضيلا**"[3]، و ما يقال عند هذه الخطبة إلّا ما قد قيل عن الخطب السّابقة من حيث الخصائص الفنيّة من سجع و تكلّف ...

4-1-6-القصص و المقامات :

شاع لدى الجزائريين خلال عهد العثمانيين ما يسمى بالقصص الشّعبي الشفهي، المستقى من تاريخ ما قبل الإسلام، كقصص عنترة بن شدّاد و بطولاته، ألف ليلة ليلة أو من التّاريخ الإسلامي في أوجّ حضارته، أو ما بعده كسيرة بني هلال و تغريبتهم، و التّي كانت تروى من طرف ما يسمّى "بالرّاوي" لذلك لم يرد ذكر لأدب قصصي جزائري في تلك الفترة (العهد العثماني)، وحتّى الشفهي الذي سبق ذكره لم يحظ بالتّدوين، ربّما يعود الأمر للنّظرة الدّونية لذلك النّوع من الفنون الأدبيّة [4]، و كانت تلك القصص الشّعبيّة تؤدّى بمثابة المسرحيّات، في الأسواق العامّة، أو المقاهي... أو غيرها، و يحاول المؤدّون من خلال

---

1 المرجع نفسه ، ص205.

2ينظر: المرجع السابق، ص205.

3أحمد المقري، نفخ الطيب، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ج10، من ص194إلى ص إلى ص196

4 ينظر: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص206.

حركات خاصّة يقومون بها تجسيد الشّخصيات المذكورة في القصّة الشعبيّة، إلى حدّ المبالغة، قصد التأثير في جمهور الحاضرين من العامّة و الخاصّة.

أكثر من اشتهر بذلك النّوع من المقامات محمّد بن محرز الوهراني، و اشتهرت باسم المنامات، وقد أوردها صاحبها على النّمط المشرقي، لكونه عاش حياته الفنيّة في المشرق[1]، و منها المنام الكبير، و المنام الصّغير.

أمّا محمّد بن ميمون ، فقد ذاع صيته في فنّ المقامات، التي عنونها "بالتّحفة المرضيّة في الدّولة البكداشيّة في بلاد الجزائر المحميّة "، و هي مجموعة من المقامات كلّ واحدة تتناول فصلا من حياة أو أعمال "محمّد بكداش"، وقد بلغت ست عشرة مقامة .

4-2-الشّعر :

يعرّف الشّعر بأنّه ذلك الكلام الموزون المقفّى، و هو الكلام المسجوع المتخيّل المرغّب أحيانا المرهّب أخرى، ذو فكرة و مقصد و عاطفة، و في زمن الحكم العثمانيّ، اشتغل الشّعراء بنظم القوافي و القصائد في الوصف و الرّثاء، و الفخر و الحماسة، و انصبّوا على شعر مدح النبّي صلى الله عليه و آله وسلم ، في مناسبة مولده عليه الصّلاة و السّلام، وكذا مدح الحكّام و ذوي السلطان و أصحاب التّيجان من بني عثمان، ونظموا في الأغراض الأخرى كالتّصوّف و الزّهد، و الوصف كوصف المدن و البلدان، و الأمصار، و عمدوا إلى متون القصائد الشّهيرة فشرحوها، فشرحوا البردة، و ألفية بن مالك، و غيرهما ... ، و من أبرز الشّعراء نجد أبا عبد الله محّمد بن يوسف القيسي الثّغري "[2] ، اشتهر بنظم الرقيق العذب من الشّعر، الّذي ترنّمت به الألسن، قصيدته الشهيرة الّتي مطلعها :

يُسْعِدُكَ الجَارِيَان الدَّهرُ و القَدَرُ و بِاسْمِكَ الغَالبَانِ النَّصرُ و الظَّفَرُ

1ينظر: المرجع السّابق، ص208.

2ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تح : محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، د.ط ، 1326هـ-1908م ص ص 222،223.

وَ لَاحَ لَهَا البَرْقُ اليَمَانيُّ فانْبَرتْ تَمُدُّ حَثِيثًا للْعَذيبِ خُطَاهَا[1]

إلّا أنّ الحظّ لم يسعف كثيرا من الشّعراء المجيدين ، في تلك المرحلة لينالوا الشّهرة من أمثال أبـي عبد الله محمّد بن البنّاء التّلمساني، **و " أبي عبد الله محّمد بن أحمد الحسني، و أبي محمد عبد المؤمن يوسف المديوني، و أبي عبد الله محمّد البطيري ، و أبي القاسم بن ميمون السّنوسي و أبي الحسن علي** "[2] و من الأغراض الشعريّة الأكثر شيوعا آنذاك، الشعر الديني ، الاجتماعي ، السيّاسي، المدح ، الفخر، الهجاء، الحسن و الشكوى، المجون و المزاح ... و غيرها من الأغراض.

4-2-1- الشّعر الدّيني :

كان مدح سيد الخلق ملاذ معظم شعراء المسلمين عامّة، و الشّعراء المغاربة خاصّة، وقد انبرى كثير منه على النّظم فيه حتّى أسهبوا " **و قد أكثر بعضهم من النظّم في هذا الغرض حتّى أنّهم خصّوه بديوان كـامل** [3]، رغم تفشّي الأميّـة، و انتشـار الجهل و الفقر و الظّلم، إلّا أنّ المسلمين الجزائريين عاشوا متمسّكين بدينهم رغم المغالطات التي خالطته بفعل بعض المذاهب الطرقيّة، و عمّ التصوّف و أصبح هو الصبغة الدينيّة الرائجة، إذ أقبل عليه الشّعراء إقبالا لا مثيل له، و يرجع الفضل في ذلك إلى وجود الزوايا بكثافة، إلى جانب تشجيع الحاكم التّركي لذلك و تقرّبه من روّاد هذا الغرض .

و من أشهر القصائد في مدح المدينة المنوّرة تلك الّتي نظمها الشاعر الصوفيّ أبو محمد عبد الله بن عمر البسكريّ، أوردها ابن عمّار في رحلته، و ابن سحنون في " الأزهار

1عبد الحميد حاجيات ، " أبو موسى حمو الزياني حياته و آثاره ، " الشركة الوطنيّة للنّشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1983 ، ص117.

2عبد الحميد حاجيات ، مرجع سّابق، ص117.

3 أبو القاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2، ص56.

الشقيقة" و تنافس الشّعراء في النّظم على نهجها لما اشتملت عليه عذب الكلام و صدق الوصف، و مطلعها :

دَارُ الحَبِيبِ أَحَـقُّ أَنْ تَهْـــوَاهَـــا وَ تَحِنُّ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا

وَ عَلَى الْجُفُونِ مَتَى هَمَمْتَ بِزَوْرَةٍ يَا ابْنَ الكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا

فَلَأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةٍ وَ ظَلَلْتَ تَرْتَعُ فِي طِلَالِ رُبَاهَا

مَعْنَى الْجَمَالِ مُنَى الْخَوَاطِرِ وَ الَّتِي سَلَبَتْ عُقُولَ الْعَاشِقِينَ حَلَاهَا "[1]

و من أشهر شعراء ذلك العصر أيضا نذكر– على سبيل الذّكر لا الحصرة– أبا عبد الله بن محمّد بن أبي جمعة التّلاليسي في نظم الموّحشات ، و سعيد المنداسي التّلمساني في المديح النّبوي نظم بالفصيح و الشّعبي، و برع في شعر المديح عبد الكريم الفكّون، و ابن حمادوش، و ابن عمّار الّذي وصف كيفية احتفال سكان مدينة الجزائر بالمولد النّبويّ الشّريف، و طريقة ختمهم صحيح البخاريّ على طول تلك اللّيلة، و المظاهر الاجتماعية الّتي تتبدّى فيها، من ابتهالات و موشّحات ، و شوارع مزينّة ...

كما أورد ابن عمّار في رحلته قصائد في المديح للمنجلّاتي، و ذكرت كتب أخرى شعراء آخرين نبغوا في هذا النّوع من الأشعار أمثال " الأكحل بن خلوف، و أبو عبد الله محمّد المغوفل، و انشدت قصائدهما، و هما شاعران من شعراء الصّوفيّة .

عدّد "ابن مريم" جمعا من الشّعراء الّذين نظموا في شعر المديح، فذكر منهم عبد الرّحمن بن موسى المتوفّى سنة 1011هـ، و قصائد للشاعر محمد بن سليمان ذكرها هو نفسه في كتابه " كعبة الطائفين ".

1ابن عمّار الجزائريّ ، الرّحلة ، مصدر سابق، ص 09.

أمّا الشّعر الصّوفي، فقد حظي بوافر النّظم فيه، كما سبق الذكر آنفا، خاصّة الملحون منه فنجد قصيدة محمد بن محمد الموفق المشهور بابن حوّا المسمّاة "الريحانة المروحة على القلوب المقترحة" و أولى فيها عنايته بذكر الأولياء الصّالحين الأحياء منهم و الأموات، و قصيدة "حزب العارفين" للشّاعر موسى بن علي اللّاتي، وهي صوفيّة النّظم أيضا، و أتى عبد الكريم الفكون على ذكر محمد ساسي البوني في كتابه " منشور الهداية"، و وصفه بكثرة الإنشاد للأزجال في الحضرة الصوفيّة، و مواكب الحجّ و غيرها، و شعراء كثر أخرون لا يمكن إحصاء أسمائهم جميعا، جادت قرائحهم بجميل القوافي في شعر التّصوف.

4-2-2- الشّعر السّياسي :

الفترة الممتدة من نهاية القرن الثّالث عشر للميلاد حتّى بداية القرن التاسع عشر ميلادي هي تاريخ امتداد الدّولة العثمانيّة، وشهدت التّذبذب الفكريّ، و ضعف الثّقافة و تراجع الفنون على اختلافها و الشعر خاصة، و يعود السبب في ذلك إلى عدم احتفاء السّلاطين الأتراك باللّغة العربيّة و لا بشعرها، لأنهم كانوا لا يحسنونها، و نظرا لكثرة الصّراعات السياسيّة على الحكم، لم يكن عمر الحاكم على كرسي الحكم إلّا مؤقّتا بسبب الاضطرابات و الفتن، وتعرّض الجزائر المتكرّرة لمحاولات الغزو الصليبي الإسباني و غيره، وعدم قدرة الأتراك على توفير الحماية الكافية.

لأجل ذلك كلّه لم يكن الشّعر السّياسي رائجا، إلاّ تلك القصائد الّتي قيلت في الدّفاع عن الوطن ضدّ الأعداء و الغزاة، كما وجدت أشعار كتبت في مدح بعض الأمراء لأجل التكسّب أحيانا، و آخرون لجميل صنيعهم مع المرابطين و الأشراف، أمثال يوسف باشا الّذي كان يجلّ العلماء و المشايخ، و يكرم الأشراف و المرابطين، حتّى يعينوه على استتباب حكمه، و هذه السياسة من " **أساليب الحكم العثماني الاعتماد على المرابطين و العلماء وقت الشدة باعتبارهم كانوا يمثلون الرأي العام و يؤثرون بالنّصح و الإرشاد و الموعظة و قد عرف يوسف باشا أنّه كان من الحكّام الّذين يقرّبون العلماء و يعفون**

المرابطين و الأشراف من دفع الضرائب "[1]، رغم أنّ عامّة النّاس كانوا يدفعونها مرغمين فقرائهم قبل أغنيائهم، و قد مدحه الشّاعر عبد الرحمن بن موسى في قصيدة بائية بمناسبة فتحه حصن مرسى وهران، وجلاء العدوّ الإسباني عن المدينة، جاء في مطلعها :

هَنِيئًا لَكَ بَاشَا الْجَزَائِرِ وَ الْغَرْبِ بِفَتْحِ أَسَاسِ الْكُفْرِ وَ مَرْسَى قرَى الْكَلْبِ

سَنَفْتَحُ وَهْرَانَا وَ مَرْسَاهَا الَّتِي أَضْوَتْ بِذَا الْإِقْلِيمِ طرًا بِلَا رَيْبِ[2]

من بين الشّعراء الّذين هبّوا لمدح الملوك و السّلاطين " ابن حمادوش" الذي اتّصل بملوك المغرب فمدحهم و أثني على خصالهم، رجاء التّكسب و لم يكن حظّه بالوفير، وهذا حسب ما ذكره أبو القاسم سعد الله، كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، و لأنّه لم يكن يلقي منهم إلّا الصد، فكان يردّ قائلا " **لما رأيت غلظ حُجّابِه مسكتها عندي**"[3] ، أي ما نظم من شعر .

تهافت الشّعراء –في ظلّ حكم العثمانيين للجزائر– على مدح الحكّام، خاصّة أولئك الذين كانوا في الجبهة الّتي كسرت شوكة الإسبان، في محاولاتهم لاحتلال مدن جزائرية كوهران و غيرها، فهذا عبد الرحمن بن موسى ينظم شعرا في مدح حسن باشا، و التغنّي بصفاته، وشعراء مدحوا الحكام الأتراك لغرض استثارة مشاعرهم لأجل دفعهم لمناهضة الغزو الإسباني أمثال الشاعر محمد بن محمد بن علي المعروف بابن أقوجيل .

أَضْرِمْ عَلَى الْكُفَّارِ نَارُ الْحَرْبِ لَا تُقْلِعْ وَ لَا تُمْهِلْهُمْ بِفُتُــورِ

وَ بِقُرْبِنَا وَهْرَانُ ضِرَسُ مُؤْلِمٌ سَهْلُ اقْتِلَاعٍ فِي اعْتِنَاءٍ يَسِيرٍ[4]

1 أبو قاسم سعد الله ، تجارب في الأدب و الرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د .ط ، 1983 ، ص 47

2 ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ،مرجع سابق،، ص 132.

3 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ص 273.

4 محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 122–177.

تفاضل الحكّام فكان منهم الخير فالأخير، فالأقلّ فالأوضع، و كانت لكل بصمته في الحكم (العثماني للجزائر)، ومن فضلاء أولئك الحكّام "حسين باشا"، و" محمد بكداش" الّذي عرف بتصوّفه و ثقافته الواسعة وإكرامه للعلماء و المتصوّفة و المرابطين، و قد أفرده ابن ميمون بالتّحفة المرضية، إكراما له على حسن صنيعه و اعترافا بفضل أياديه البيضاء، ففي عهده استرجعت مدينة "وهران" و طرد الإسبان الغزاة، فتغنّى به الشّعراء مدحا لخصاله، و لتشجيعه على جهاد كفار و صليبي أوروبا الذي نزحوا إلى الجزائر محتلين، فمدحه الشاعر ابن أبي راشد، و محمد المستغانمي في قصيدته " كوكب النّاثر في مدح أمير الجزائر"، فيقول ابن ابي راشد فيه :

تَاهَتْ أَرْضُ الْجَزَائِرِ وَ اغْتَدَتْ زَهْوًا بِهِ عَنْ غَيْرِهَا تَخْتَالُ[1]

بعد انقضاء فترة حكم محمد بكداش، تولّى السّلطة الباي " محمد الكبير" الّذي فتحت في عهده وهران فتحها الثّاني، وازدهر الأدب بتشجيع منه، و استوت الأشعار على سوقها، وتسابق الشعراء للتّحلّق حوله و التّغنّي بخصاله، فكان منهم أحمد بن سحنون، و أبوراس النّاصري و أحمد القرومي، ومحمد بن الطيب المازري و غيرهم، و هذا الشاعر أحمد بن محمد بن علال القرومي، يفد على الباي محمد الكبير، يمدحه لبنائه و تشييده للجامع بمدينة معسكر، فقال فيه:

وَ تَرَى الْمُدَرِّسَ قَدْ عَلَا كُرْسِيُّهُ يُلْقِي عَلَى الْعُلَمَاءِ حَبَّ الْجَوْهَرِ

تَحْوِيهِ مَدْرَسَةٌ غَدَتْ آثَارُهَا تُحْيِيهِ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ الْأَشْعَرِيّْ

تَمْحِي رُسُومَ الْجَهْلِ مِنْ أَلْوَاحِهِ تَحْمِي شَمَائِلَهُ مِنَ الزُّورِ السَّرِي[2]

1 ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 258.

2 المرجع نفسه ، ص 261

اشتهر الباي " محمد الكبير" بحبّه للعلم و العلماء، و سهره على تشييد المنشآت العمرانيّة، فضلا عن تشجيعه لطرد الغزاة الصلبيين و استرجاع الأراضي التي كانت قد وقعت في قبضتهم.

رغم تعاطف كثير من شعراء الجزائر مع الحكّام العثمانيين آنذاك، إلّا أنّه وجدت فئة أخرى مناهضة لهم على اعتبار أنّ " **طموحات الشّعراء فيه ظلّت محدودة لانّ أصحاب الحلّ و العقد في الدّولة كانوا لا يهتمون بالشّعر فكيف يهتمون بأهله** "[1] ، كما عمّ حكمهم الفساد، و انتشرت ظواهر مخالفة للشريعة الإسلاميّة، كالرّشوة، و الانحلال الخلقيّ، و حبّ الشّهوات و البذخ، و أعظم منه التّهاون في أمر الجهاد الذي يحمي حمى الدولة، و في ذلك يقول ابن علي:

وَ كُلُّ رَئِيسٍ يَرْتَجِي لِخُطُوبِهَا تَشَاغَلَ فِي لَذَّاتِهِ وَ هُوَ نَائِمٌ

وَ رُبَّ أَمِيرٍ أَزْمَعَ السَّيْرَ نَحْوَهَا فَيَرْجِعُ لِمَا كَاثَرَتْهُ الـــدَّرَاهِمُ

رَضُوا بِالرُّشَى فِي الدِّينِ حِينَ تَخَلَّفُوا وَ قَدْ رَسَخَتْ فِي الْأَرْضِ تِلْكَ الْأَرَاقِمُ[2]

كما وجدت فئة من شعراء الجزائر عنوا بمدح سلاطين و حكّام الدّول المجاورة، فمدح عبد الرّزاق بن حمادوش السلطان المغربيّ " عبد الله" مرتين ، أمّا الشّاعر محمّد بن مالك الجزائري فقد مدح " أحمد باي تونس " ، و سبقه إليه ابن عمّار، فمدحه نثرا ضمّنه بعضا من شعره .

1 المرجع السّلق ، ص 266

2 ابن عمّار الجزائري، ديوان أشعار جزائريّة، تح: أبي القاسم سعد الله، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1988، د.ط، ص 23.

الشعر السياسي في الجزائر مثلته فئتان، فئة موالية مادحة، و ثانية ثائرة هاجية، حسب شخصية الحاكم العثماني في العمالة الّتي كان فيها، و تنوّعت التّجارب الشعريّة لدى أولئك الشّعراء، فشجّعت ما يجب تشجيعه، و ذمّت ما رأته سيّئا .

4-2-3- الشّعر الاجتماعي :

الشّعر الاجتماعي هو ذلك الشّعر الّذي يتناول قضايا المجتمع بالتّحليل و التّفصيل، كالعدالة و نشر التّعليم، و مشاكل العمل، و محاربة الانحلال الخلقيّ، و غرضه الإصلاح، و يعمل على تحديد العلل و تقديم سبل علاجها بعد تشخيصها.

و هو أيضا شعر يعكس طبيعة العلاقات بين فئات المجتمع المختلفة، و يطلق عليه تسمية شعر الإخوانيات الذي ينظم في الرّثاء و المدح و التقاريظ لفئات مختلفة، و شرائح متباينة من المجتمع، و لمّا كانت أحوال الجزائريين قاب قوسين أو أدنى من الهلاك الاجتماعي، فالفقر و الجهل و الأميّة و الظلم و الحرمان في ظلّ الحكم التّركي، كان لابدّ من أصوات صادقة تعكس صورة أقل ما يقال عنها آنذاك ، استبداد تركي مطلق للسلطان الحاكم و حرمان و ظلم لا متناهٍ للجزائريين .

جادت قرائح الشّعراء بقوافي الغيظ و الكمد، لأجل استثارة عواطف و مشاعر بعض ممّن لهم مشاعر الأخوّة أو الإنسانية ، فجرت مبادلات بين شعراء الجزائر، وشعراء و أدباء المشرق ، من خلال الرّسائل و الإجازات و الشّعر و غيرها ، و " **نعني بالشّعر الاجتماعي شعر الإخوانيات الّذي يشاطر فيه العلماء بعضهم بعضا في مناسبات معينّة** "[1]و لعلّ أكثر الأغراض اتّصالا به، المدح، الفخر، الحنين و الشّكوى، الرّثاء، الهجاء، المزاح و المجون ... و غيرها، و اشتهر جمع من الشعراء في التّباري بقوافيها، أمثال أحمد الورززي الذي ذكره ابن حمادوش في رحلته و من الشّعراء أيضا أحمد الغزال، و الجامعي و ابن

1ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثّقافي ، المرجع نفسه ، ص 226.

زاكور ، و محمد القوجلي ، و من تلك الأشعار نورد نماذج من بعض الأغراض على سبيل التمثيل لا الحصر .

ا/ المدح :

عاش الشّعب الجزائريّ ظروفا قاسية في ظلّ الحكم العثماني، أثّرت سلبا على حياته الفكريّة و الثقافيّة، فغدت أغراض الشّعر محدودة، و كثيرا منها لم تسنح له الفرصة بالشهرة فبقي مغمورا، و لم يحظ بالجمع و لا التّحقيق، و أمّا الإنتاج المقفى الموزون الذي وصلنا فهو إنعكاس لتلك العلاقات الأخويّة بين الشّعراء و العلماء و غيرهم، المتضمنة وشائج المحبّة و التقدير التي كانت سببا في تحريك قرائحهم، فجادوا بالنّظم المتفاوت المستويات المتراوح بين الجيد و الحسن و الرّكيك " **و قد كثرت الأشعار بين الإخوان و العلماء و الأدباء معبّرين بها عن حالات النّفس من شكوى و طموح و فخر، و عن التّلطّف و الإطراء و التّنويه** "[1]، المحتكم إلى القصائد التي نظمت في ذلك الزمان ، سيخلص إلى أنّ الأغراض الشعريّة التي نظم فيها آنذاك – الإخوانية خاصّة – حفظت للشّعر الجزائري ماء وجهه حتّى و إن قيل ما قيل عنها .

اتّصل ابن حمادوش بملوك المغرب كما سبق أن ذكرنا و لم يلق التّجاوب بسبب الحجّاب، و مدح الشّاعر الرّاشدي الباي محمد الكبير بعد الفتح الثاني لمدينة " وهران"، بحائية توحي بالرّاحة بعد التعب:

أَسَدٌ صَالَ صَوْلَةً فَأَبَادَتْ مِنْ بَنِي الْكُفْرِ جَانِبًا وَ جَنَاحًا

1أحمد المقري ، " نفح الطيب " ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التّجاريّة، القاهرة، مصر، 1949، د.ط، ج10، ص115.

وَ أَرَاحَ قُلُوبُهُمْ فَتَلَاشَى صَبْرُهَا وَ أَبَانَ مِنْهَا الرَّاحَا "[1]

كما مدحه الشيخ القرومي في قصيدة رائية بمناسبة بنائه مسجد معسكر، و الثّانية بمناسبة فتح الأغواط* ، فقال في الأولى :

لَمَا الْتَقَيْتَ بِوَافِدِ الحُسْنِ الْبَهِيِّ يُزْجِى الْمَطَايَا مُغْرِبًا فِي عَسْكَرِ

عَجَبًا لَهُ مِنْ مَسْجِدٍ فِي الْأَرْضِ قَدْ حَاكَى السَّمَاءِ تَطَاوُلًا فِي الْفَخْرِ

وَ ابْقَ سَعِيدًا خَاتَمِ الْعَلْيَاءِ قَدْ كَمُلَتْ خِصَالُكَ فَافْتَخِرْ ثُمَّ افْخَرْ [2].

و ترنّم أبوراس النّاصري (1150-1238 هـ) شعرا في مدح خصال الباي" محمد الكبير" بمناسبة فتح مدينة " وهران"

بُشْرَى لَنَا بَلَغْنَا غَايَةَ الإِرْبِ بِفَتْحَ وَهْرَانَ ذَاتِ الْعُجْبِ وَ الْعَجَبِ[3]

كان حظّ الباي " محمد الكبير وافرا بما نظم فيه من شعر حبّا فيه و إكبارا لذاته و أفعاله، و إشادة بأعماله، فتفاعلت معه عاطفة الشّعراء شعرا و الأدباء نثرا .

ب/ الغزل :

عرف الشّاعر " ابن علي " بولعه بشعر الغزل العذري خاصّة، رغم أنّه كان يشغل وظيفة حكومية هي الفتوى، و قد أورد له ابن عمّار ديوانا في الغزل منه قوله :

فَسُبْحَانَ مَنْ سَوَّاكَ فِي الْحُسْنِ صُورَةً لَهَا اعْتَرَفَتْ بِالْحُسْنِ حُورٌ كَوَاعِبُ

1الرّاشدي بن سحنون ، " الثغر الجمّاني " في ابتسام الشّعر الوهراني " ، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشّؤون الدّينية ، سلسلة الثرات ، 1973 ، د.ط ، ص 313.

*أورد ذكرها ابن هطال التلمساني في رحلته " رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي "

2الرّاشدي بن سحنون ، " الثغر الجمّاني " ، المرجع السابق ، ص 130

3محمد المهدي ، شخيب بن علي ، أم الحواضر في الماضي و الحاضر ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1980 ، ص 200.

مَرَاشِفَ مِنْ شَكْلِ الْعَقِيقِ مَصُوغَةٌ وَمُبْسَمُ دُرٍّ لِلْعَقِيقِ مُنَاسِبٌ [1]

و للشّاعر محمد بن أحمد بن راس العين نظم في شعر الغزل حين أنشد قائلا :

لَا تَخْشَ فِي الْحُبِّ مِنْ مَلَامَةٍ وَ لَا تُفِقْ مِنْ هَوَى الْغَرَامِ

فَالْحُبُّ زَيْنُ ذَوِي الْكَرَامَةِ وَ لَمْ يَزَلْ عَادَةُ الْكِرَامِ

فَانْظُرْ حَبِيبِي لِلْجَوِّ صَافِيًا قُمْ تَغْتَنِمْ لَذَّةَ الْعَقَّارِ [2]

فرغم الظّروف القاسية الّتي كان يعيشها الجزائريّون في ظلّ الحكم العثماني، إلّا أنّهم نظموا برقيق المشاعر، ورصفوا الأشعار العذبة، متفنّين بالحبّ، تلك العاطفة الفطريّة الّتي جبلت عليها كل قلوب البشر .

ج/ الرّثاء :

غرض من أغراض الشّعر، عرفه العرب في عصر ما قبل الإسلام، و أبدعوا فيه، فرثوا الابن و الأب و الأقارب، عدا الزّوجة تحرّجا ، حتى لا يعتقد أن بصاحب النّظم ضعف و انتقاص رجوله ، لكنّه في الإسلام بلغ ذروته، و الرّثاء شعر البكاء أو التّباكي على خصال المفقود (الميت) بتعداد شمائله، و التّباكي على خصائله، و تبيان مكانته و مدى الجزع الذي أحدثه فراقه في النّفس، و الفراغ الذي تركه لدى محبيه.

أمّا لدى شعراء الجزائر في زمن الحكم العثماني، فلم يكن غرض الرثاء على نطاق واسع، و ذلك لاقتصاره على رثاء العلماء و المشايخ، و بعض الاقارب، و لم يحظ بذلك الموتى من سلاطين بني عثمان لكونهم لم تكن لهم تلك العلاقة الحميمة مع عامّة الشعب و خاصّته حتي يرثيهم عند مماتهم، ومن الذين اشتهروا في هذا الغرض أحمد بن سحنون،

1شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي – عصر الدّول و الإمارات، دار المعارف، مصر، 2017/01/01 ،ج 10 ، ص 182.

2ديوان أشعار جزائريّة ، مصدر سابق ، ص 144.

الذين رثى شيخه "الطّاهر بن حواء" الذي قتل أثناء الحصار الثاني لوهران سنة 1205 هـ، في نونية قال فيه :

عَزِّ نَفْسَكَ عَنْ صُرُوفِ الزَّمَانِ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى الْبَسِيطَةِ فَانٍ[1]

غزّى الشاعر نفسه على فقدان شيخه الذي أردته تدابير الدّهر قتيلا ، فجعت القلوب لموته، حتي غدت الدنيا عدما.

و بكى بالمرثيات عبد الكريم الفكون و سعيد قدورة، و القوجلي يرثي الشيخ " أحمد الزروق ابن السيد عمار داوود ، بدالية قال في بعض منها :

ما لِلْمَنَايَا تَصْطَفِي أَخْيَارَنَا مَا لِلدْوَاهِي فَرَّقَتْ أَنْدَادًا

مَا لِلْمُحِبِّ يَبِينُ عَنْهُ حَبِيبُهُ هَذِهِ الرَّزِيئَةُ قَطَّعَتْ أَكِبَادًا[2]

يوجّه الشّاعر خطابه للمنايا، حتى بدت له تختار أحبابه الأخيار دونا النّاس، و مدى لوعته لفراقهم، و شدّة وقع المصيبة العظيمة على النّفوس و الأكباد حتى أردتها كلمى، بليغة الرزء .

د/ الحنين و الشّكوى :

بعد فتح وهران للمرة الأولى عام 1708هـ ، على يد محمد بكداش، و ألّف ابن ميمون " التحفة المرضية" احتفاء بهذه المناسبة و تخليدا لها، وزار الفقيه أحمد البوني محمد بكداش مباركا له لاسترجاع وهران، شاكيا هوان و تردي أوضاع مدينته بونة (عنابة)فأنشد قائلا :

"يَا حَاكِمَ الْجَزَائِرِ يَا أُنْسَ نَفْسِ الزَّائِرِ

1 ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 279.

2 ديوان أشعار جزائرية ، ص 118.

أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ أَدَامَ رَبِّي نَصْرَكُمْ

بِحَالِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِالصِّدْقَ لَا بِالفِرْيَةِ

خَرِبتِ الْمَسَاجِدُ وَقَلَّ فِيهَا السَّاجِدُ

وَ الشَّرْعُ فِيهَا بَاطِلٌ وَ الظُّلْمُ فِيهَا هَاطِلٌ "[1]

و أراد الشيخ " أحمد البوني " بقصيدته استجداء محمد بكداش الباي المجاهد لإنجاد مدينته بونة(عنابة).

هـ/ الهجاء:

وهو غرض من الأغراض الشعرّية القديمة، وهو عكس المدح و نقيضه تماما، فهو للتّعبير عن الذمّ و السّخط و ذكر المثالب لا المناقب ، ينظم عند الشّعور بالاشمئزاز و الامتعاض من شخص ما أو شيء من الأشياء أو غيرها .

في الشّعر الجزائري القديم – العهد العثماني تدقيقا – عرف التّردي و التّراجع و الرّكاكة في بعض الأحيان، لعدم احتفاء الحاكم التّركي به كثيرا إلّا ثلة قليلة منهم، و للأوضاع السّايق ذكرها، كثر سخط الشّعراء على ذلك الحاكم فهجوه بوابل من الأشعار، فهذا أحمد بن سحنون يقول :

ثُمّ انْثَنَى يُبْدوِي لَهُمْ إِبْلِيسُ غِوَايَةً فِي ضِمْنِهَا تلْبِيسٌ

فَنَقَضُوا الْعَقْدَ وَ خَانُوا الْعَهْدَ وَ اسْتَتْمَطَرُوا مِنَ الْبِلَادِ عَهْدًا

تَوَثُّقًا بِنُصْرَةِ الشَّيْـــــطَانِ وَ مَا أَرَاهُمْ مَنَ الأَشْطَـــــانِ

1 محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية ، المرجع السابق ، ص 175.

وَقُوَّةُ الطَّاغِيَةِ الْمَمْقُوتِ إِنْ زَادَ فِي مَدَدِهِمْ وَ الْقُوتِ[1]

يبدي الشاعر اشمئزازه من إخلاف الأتراك بعهدهم في حماية الجزائر، و انشغالهم بملذات الدّنيا اتباعا لهوى النّفس و وسوسة الشّيطان، و تجبّرهم على أفراد المجتمع الجزائري و ظلمهم.

و/شعر المجون :

وهذا غرض مبتغاه إنشاد الملذّات، و تشهّي المحرّمات كشرب الخمر و تدخين التبغ ، و اللّهو و العبث، و قد اشتهر الشاعر محمد بن أحمد بن رأس العين في هذا الغرض ، فتغنّى بالتّبغ و الخمر قائلا :

اسْقِينَا تِبَاغَةً تَجْلَا فِي حَلَى السّبْسِي

شُرْبُهَا فِي الدّجَى مَعَ الإِخْوَانِ جَالِبُ الْأُنْسِ

اسْقِينَا وَدَعْ كَلَامَ اللَّاح فَهُوَ عِنْدِي مُحَالٌ

لَا تُعَطِّلْ شَرَابَهَا يَا صَاحِ فَهِيَ عِنْدِي حَلَالٌ[2]

راح الشّاعر يستسقي الخمر، و يترنّم بشربها مع رفقاء السّهر، حتّى أنّه وصفهم بالإخوان كأنّها جمعتهم لتؤاخي بينهم، و يبدو أنّه كان ينشدها لما يجد فيها من تناس لهمومه – حسب قوله – حتى وصل به الأمر إلى الافتاء بتحليلها لنفسه.

1 أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الرّاشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثّغر الرهران، تح: المهدي البوعبدلي ، منشورات وزارة التّعليم الأصلي و الشّؤون الدينيّة، الجزائر 1973، د.ط، د.ت، ص 173.

2 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق ، ج2 ، ص 267

5-اللّغة :

5-1- النّحو:

تحدّى الله العرب بلغتهم، فأنزل القرآن عربيا، و دخلت أمم كثيرة الإسلام فبدأ اللّحن و شاع و انتشر حتّى دفع الأمر أهل العلم إلى التّنظير للغة العربيّة و السّعي لوضع القواعد الضابطة لها حفظا لسلامتها من اللّحن، فأنشأوا في ذلك المؤلّفات الكثيرة، وأسالوا لذلك حبرا مددا، فظهرت كتب النّحو، و الصّرف و البلاغة، و غيرها .

و على غرار المشرق احتفى علماء المغرب باللغة العربية، خاصّة علماء المغرب الاوسط (الجزائر)، فاشتغلوا بعلوم اللّغة، و أولوا علم النّحو عناية خاصّة، و خلّفوا منه إنتاجا طيبا.

النّموذج الأمثل في علم النّحو لدى العلماء الجزائريين آنذاك، العالم الجليل يحي بن معكي الزواوي، " **فمنذ يحي بن معطي الزواوي تركزت العيون على زواوة باعتبارهم مدرسة هامّة لعلم النّحو، ثمّ جاء أبوجميل زيان بن عائد الزّواوي القسنطينيّ فتقدّم بالدراسات النّحوية أشواطا عريضة** "[1] ، كما تحدّث عن ذلك الرّحالة الحسين بن محمد الورثيلانيّ " **كان يعتني به هناك الكبير و الصّغير و اشتهروا به اشتهارا بيّنا** " [2]، نظرا لمكانته العلميّة بين المشايخ و الطلّاب.

إنّما هذه العناية الّتي أولاها علماء الجزائر و طلّا بها للنحو لعلمهم بقدره و فضله في حفظ لغة القران الكريم من اللّحن و التّحريف، " **و عرف علماء الجزائر بحفظ متون النّحو و بعض الشّروح و إدارك مسائلها عن ظهر قلب** " [3]، و قد كان ابن حمادوش يحاول إقناع

1المرجع نفسه، ج 2 ، ، ص 157

2 الحسين الورثيلاني " الرحلة " ، مصدر سابق ، ص 119

3 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 158.

طلبته بأهميّة تعلّم الحساب و النّحو "**لأنّ أهل تونس و الأندلس كانوا يبدأون بتعليم أولادهم هذين العلمين، ليذوقوا " لذّة العلم "، فالنّحو و الحساب عند ابن حمادوش من العلوم التي تفتح شهيّة التّلاميذ**"[1]، ومن تلك الشّخصيات الّتي لمع نجمها في فضاء النّحو في الجزائر آنذاك، عبد الكريم الفكون، يحي الشاوي، محمد بن راشد الزواوي " **و قد ترك يحي الشاوي أربعة تآليف على الأقلّ في النّحو** "[2]، كما سجّلت مؤلّفات أخرى في النّحو للفكون منها : "فتح المولى بشواهد ابن يعلي، وشرح على أرجوزة المكودي في التّصريف، شرح على شواهد الشريف على الأرجومية "[3]، و وجدت بعض المؤلّفات و الّتي لم يعرف أصحابها، و أخرى تحصى في قائمة المفقودات.

6- البلاغة و العروض :

اشتهر العالم اللّغوي عبد الرحمن الأخضري بالباع الطويل في المنطق و الحساب، خلّف كتبا و مؤلفات كانت محلّ اهتمام الدّارسين المحلّلين و كذلك " **كان نظمه و شرحه في البلاغة ايضا ، فقد نظم الأخضري " الجوهر المكنون " في علمى البيان و المعاني ثم شرحه بنفسه شرحا كبيرا** "[4]، ما عدا جهود الأخضري فالإنتاج البلاغيّ قليل، كتلك التي قام بها عبد الله بن أبي القاسم الثّعلبي بشرحه: " **الحلي شرحا بلاغيّا سمّاه " أنوار التّجلّي على ما تضمّنته قصيدة الحلي "، و اهتم محمد بن محمود بن العنابي أيضا بعلم البلاغة فألّف " التحقيقات الإعجازية بشرح نظم العلاقات المجازية** "[5]، الملاحظ على الدّرس البلاغي في الجزائر أنّه عاين الضعف بوصفه علما متخصّصا، و أكثر اعتمادهم في التّدريس

---

1 محمد بن عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري السماة " لسان المقال في النّبأ عن النّسب و الحسب و الحال"، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1983، د.ط، د.ت، ص 105.

أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 158. 2

3 عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ط7، 1994 ، ص 391.

أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 159. 4

5 المرجع نفسه ، ص 170

اقتصر على مؤلفات الأخضري، وعلى كتاب " تلخيص المفتاح "، وغيرها من المؤلفات و الكتب .

و أمّا علم العروض، فلم يحظ بالدرس الوافي، رغم جودة كثير من أشعار الجزائريين، والتأليف فيه كان قليلا، و التنظير لقواعده ضئيل جدا، " **ومن هذا القليل شرح سعيد قدورة على " الزامرة الشافية في علمى العروض و القافية " للخزرجي المعروف باسم ابن الجيش المغربي.، و الذي سماه " شرح المنظومة الخزرفية** "[1]، قلّة الانتاج الذي ابتلي به الجزائريّون في البلاغة و علم العروض، إنمّا يعزى إلى تلك الظّروف القاسية من فقر و جهل و ظلم جعلت أداء العلماء محصورا، فلم تتّسع آفاق الإبداع للتأليف في تلك الضروب من علوم اللّغة العربيّة .

7- علم التّاريخ :

لم يوغل الجزائريون للتأليف في التّاريخ في ظلّ الحكم العثماني، نظرا للظروف السياسية و الاجتماعية التي سبق الحديث عنها، و لم يعن به إلّا في النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر، من طرف علماء عملوا على التّدوين و التّأريخ لأحداث واكبت عصرهم سواء في الجزائر أم في الوطن العربي، ما سبق منه من أخبار و ما لحق، و لم يجدوا قاعدة متينة يتكئون عليها، " **فقد لاحظ هؤلاء العلماء غياب التّاريخ تدريسا و تأليفا لدى من سبقهم من العلماء** "[2]، لذلك عاش المؤرّخ الجزائريّ محاصرا بقسوة الظّروف على اختلافها، فقد كان " **يعيش حدودا ضيّقة فرضتها عليه السياسة و الثّقافة و الجغرافيا، فالعثمانيّون**

1 أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، مرجع سابق ، ص 171.

2 محمد بن أحمد أبي راس الناصر ، " عجائب الأسفار و الطائف الأخبار "، تقديم و تحقيق محمد عالم ، المكتبة الوطنيّة ، الجزائر ، د.ط ، د.ت،،ج1، ص23.

لم يطوّروا فكرة التّواصل بين المؤرّخ و بيئته " [1]، ممّا جعل الإقبال عليه ضئيلا، و لا تنافس عليه إلّا نادرا.

وجد لأبي راس النّاصري تآليف كثيرة تتجلّى من خلالها قدرته الواسعة على الكتابة و التآليف في التّاريخ و الأنساب و الأخبار، ورد في رحلته ذكر ثلاثة و ستين كتابا بين كبير و متوسّط و صغير، و تنسب إليه كتب تاريخ أخرى موسومة بعناوين مختلفة مواضيعها متكرّرة، حصرت في سبعة و ثلاثين و مائة كتاب، تراوحت بين الأدبيّ و التاريخي .

اتّسمت كتابات أبي راس النّاصريّ بالوفرة، و هو ذاته ذكر ذلك من باب الافتخار " **إنّما عددت تأليف جملة تصانيفي اقتداءا بالإمام السّيوطي** "[2]، و مقارنة بحجم مؤلّفاته، وجدت تآليف أخرى لكتّاب آخرين أمثال عبد الرحمن الثّعالبي في أدب السيرة، و في التّاريخ، " **رغم أنّ شهرته تكاد تكون مقتصرة على العلوم الشرعيّة** " [3] ، كما يحصى كتيب في التاريخ لابن مرزوق الحفيد.

لم يحتف الكتّاب الجزائريّون كثيرا بالتّاريخ، ذلك راجع إلى النّظرة الدّونية التي كانوا ينظرون بها إليه و يقّدرونه ضربا من التّرهات و التخاريف و هذا حسب ما أورده الشّيخ الحسين بن محمد الوثيلاني، صاحب الرّحلة الورثيلانيّة : "**علم التّاريخ منعدم فيهم و ساقط عندهم، فيحسبونه كالاستهزاء، أو إنشغالا بما لايعني، أو من المضحكات المنهي عنها**[4]، نظرا لسيطرة القصور العلميّ لدى العامّة، لم يكن للتّاريخ تلك الخطوة كباقي العلوم الأخرى، لذلك بقي مهمّشا ردحا من الزّمن حتّى انتصف القرن الثّامن عشر الميلادي، و بدأت تباشير جديدة تصل إلى ساحة التّأليف.

---

1 المرجع نفسه، ص23.

2 المرجع نفسه، ص23.

3أبو قاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثّقافي ، ج2، المرجع السابق ، ص69.

4الحسين بن محمد الورثيلاني ، الرحلة ، المصدر السابق ، ص 697.

8- علوم القرآن :

8-1- علم التّفسير :

يعرّف جمهور العلماء علم التّفسير، أنّه علم نزول الآيات و معانيها و أقاصيصها، و سبب نزولها، و محكمها و متشابهها، و الأسباب النازلة فيها، ثمّ ترتيب مكّيها و مدنيّها، ناسخها و منسوخها، مبيّنا حلالها و حرامها، ووعدها و وعيدها ...

يتّسع علم التّفسير لآفاق بعيدة و تفرّعات لا محدودة، " **و يمكن تناوله من ناحيتين التّدريس، و ناحية التّأليف** " [1] ، و " **تذكر بعض الكتب أنّ أبا راس الناصري قد فسّر القرآن الكريم في ثلاثة أسفار، و قد درسّه أيضا** " [2]، لم تنتج مدرسة تلمسان العلميّة مفسّرين رغم شهرتها، حتّى أشهر علمائها أمثال " أحمد الونشريسي " و ابنه " عبد الواحد" لم يتركوا أي تفسير [3]، و " **قد كانت العناية بعلم التفسير ضعيفة** "[4]، و القول نفسه ينطبق على مدرستي قسنطينة و عنّابة، و ممّن ألّفوا في تفسير القرآن الكريم أحمد البوني، و حسين العنّابي، و وسم البوني تاليفه بالدّرّ النّظيم في فضل آيات القرآن الكريم [5]، معظم التّآليف الّتي كانت في التفسير، لا تتعدى كونها اجترارا لما سبق، فلم تكن تحمل الجديد، و لم تعد ذلك و لم تحمل الجديد المستكشف .

1أو قاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثقافي " ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص12.

2 ينظر: صالح فركوس، تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفنيقيّ إلى غاية الاستقلال (814 ق م / 1962) ، ج1 ، إيدكور للنشر و التوزيع ، الجزائر ، د.ط ، 2013 ، ص23 .

3اينظر: لمرجع نفسه ، ص 522.

4أبو القاسم سعد الله ،" تاريخ الجزائر الثقافي " ، ج1، مرجع سابق ، ص121.

5ينظر: صالح فركوس ، تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفنيقيّ إلى غاية الاستقلال (814 ق م / 1962)، مرجع سابق ، ص123.

8-2- علم القرّاء و القراءات :

اشتغل الجزائريون بإنشاء التّآليف بقدر أقّلّ من تدريس القراءات، و يتجلّى من خلال ما كتبوا أنّ معظم علماء الجزائر اعتمدوا في علم القراءات على مورد الضّمآن لشروحات محمد شقرون بن أحمد المغراوي المعروف " بالوهراني " و سمّاه تقريب النّافع في الطّرق العشر النّافع [1]، لم يحظ هذا العلم بالعناية الكبيرة، و لم يحفل علماء الجزائر بالتّأليف فيه، و من القلّة الذين عمدوا إليه محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، مؤرّخ بني زيان، فقد ألّف كتابا أسماه " الطراز في شرح الخرّاز " [2]، فبيقيت دائرته ضيّقة إلى حدّ كبير.

اشتهر من القرّاء الجزائريين آنذاك " محمد بن توزينت العبادي التّلمساني الذي ذاع صيته في العلم و الجهاد في سبيل الله، توفّاه الله شهيدا في غزو الإسبان للجزائر، و خلّد اسمه تلميذه أحمد بن ثابت في رسالته " الغراء في ترتيب أوجه القراء "، و اعتبره أبو راس النّاصري شيخ مشائخه، وشهد له أنّه خلّف وراءه حشدا من تلاميذه القرّاء في مختلف أوجه القراءات[3]، و لم يسجّل لعلماء الجزائر في ذلك العهد الشّيء الكثير.

09- علم الحديث :

اشتغل علماء الدّين الجزائريين بعلومه جميعها دون تمييز، لكنّ علم الحديث حظي بمكانة عالية لديهم، " **فمن العلوم التي أنتج فيها الجزائريون علم الحديث و مصطلحه، فقد اعتنوا به تأليفا و تدريسا ورواية و إجازة** " [4]، و ظهر منهم حفظة كثر للحديث النبويّ الشّريف، " **فكان معظم العلماء و المدرسون حفاظا مهرة و كانت عنايتهم بصحيح البخاري**

1ينظر : محمد بن رمضان شاوس ، " باقة السوسان في التعريف حاضرة .

2ينظر : صالح فركوس ، مرجع سابق ، ص 523.

3ينظر : صالح فركوس ، مرجع سابق ، ص 523.

4أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي " مرجع سابق ، ص25.

قد فاقت كلّ عناية [1]، كتاب " البخاري " هو أصحّ كتاب بعد كتاب الله، لذلك احتفى به علماء الجزائر احتفاء عظيما " **فهو الكتاب الّذي كان متداولا لديهم أكثر من غيره، و لعلّه قد بلغ عند البعض مبلغ القداسة، فكتبوا عليه الشّروح و الحواشي، و تدارسوه للبركة، و قد تولّى عبد الرزّاق بن حمادوش سرد صحيح البخاري، في الجامع الكبير في العاصمة، و كانت المناسبات الدينيّة و الاجتماعيّة و الحملات العسكريّة ضد الأجانب المحتلين، يقرأ فيها صحيح البخاري في المساجد أو بين أيدي المقاتلين** " [2]، فحفظوا بذلك لعلم الحديث مكانته في نفوس العامّة و الخاصّة.

ونظرا لمكانة الحديث العظيمة في نفوس علماء الجزائر، عنوا به عناية كبيرة " **و من بين العلماء الّذين اهتموا به نجد محمّد بن مرزوق الحفيد التّلمساني، و كتاب مختصر فتح الباري للشيخ** " **عبد القادر المجاجي** " [3]، و قد بالغوا في الاهتمام به لعلمهم بمكانة السنّة النبويّة الشّريفة في التّشريع الإسلاميّ.

10- الفقه :

ورد في معجم مختار الصّحاح لمحمد بن إبي بكر بن عبد القادر الرّازي لمعنى " **الفِقْهُ في اللّغة هو فهم الشيء و العلم به، و فهم الأحكام الدّقيقة و المسائل الغامضة ، و هو في الأصل مطلق الفهم، و غلب استعماله في العرف مخصوصا بعلم الشريعة، لشرفها على سائر العلوم** " [4].

1صالح فركوس ، تاريخ الثقافة الجزائريّة ، مرجع سابق ، ص 523.

2المرجع السّابق، ص 523.

3الشيخ المهدي البوعبدلي ، جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثمانيّ، عالم للنّشر و التّوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 2013 ، ص22.

4محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي ، مختار الصّحاح، حرف الفاء (فقه) ، المكتبة العصرية ، الدّار النموذجيّة ، لبنان ، 1420 هـ/1999م ، د.ط ، ص 27.

الحديث عن الإنتاج الفقهي في الجزائر يحيلنا مباشرة إلى الفقه المالكي، و لم يظهر المذهب الحنفي إلّا بدخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، و من أشهر العائلات العلميّة التّلمسانيّة الّتي عنت بالفقه عائلات عديدة منتها: الونشريسي، المغيلي، المقري، و كانت " مازونة " منارة علم أيضا تنافس تلمسان: و من أهمّ العلماء الذّين تخرّجوا منها أبو راس النّاصريّ [1]، و رغم الجوّ المحافظ الذي كان يسود الجزائر خلال العهد العثمانيّ فإنّ بعض الفقهاء كانوا متحرّرين في تناولهم للمسائل الفقهيّة و لقضايا العصر "[2]، و لكن بما يوافق الشّرع و لا يخالفه.

11- التّصوّف :

ساهم انتشار الزوايا في الجزائر أثناء الحكم العثماني للجزائر، في اتّساع نفوذ التّصوف و رجاله، و طغت الرّوح الصوفيّة على الحياة العلميّة و الاجتماعيّة، فغزر إنتاج الأدب الصوفيّ : " **و رغم تقدم الزّمن فقد ظلّت أعمال ابن صعد " النّجم الثّاقب " على الخصوص، و أعمال محمد بن يوسف السّنوسي، و غيرهم مصدرا هامّا للتّأليف في علم التّصوّف و فروعه**"[3]، و قد " **انتشر في العصر العثماني، و كثر كثرة مفرطة في الزّوايا و الخوانق او التكايا**"[4]، فعدّ الحضور الصّوفيّ في الجزائر فتحا، إذ تسابقت مختلف الطّرق الصّوفيّة لاحتلال مكانة في الأوساط الاجتماعيّة، و لدى الحاكم العثماني.

يشترط في التّصوف السنّي أمورا عديدة لعلّ أهمّها : " **معرفة الكتّاب و السنّة معرفة دقيقة، و العلم و الجمع بين العلم و العمل، و السّعي إلى معرفة الله حقّ المعرفة، عن طريق التأمّل و النّظر أو التفكير في مخلوقاته، بالإضافة إلى التّقي و الورع، و التّجرد من**

---

1 ينظر: صالح فركوس ، تاريخ الثقافة الجزائريّة ، مرجع سابق ، ص525.

2 ينظر: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافيّ، مرجع سابق ، ص65.

3المرجع نفسه ، ص ص111-112.

4 سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العثمانيّ، دار المسيرة للنّشر و التّوزيع و الطّباعة، عمان، الأردن، ط1، 2013م/ 1434هـ، ص51.

هوى النّفس، و حبّ الدّين و الابتعاد عن مغريات السياسة و السّلطة و عدم التّعاون مع الظّلمة و المتجبّرين "[1]، فراج التّصوّف بوصفه نزعة دينيّة تحثّ على الزّهد في الحياة الدّنيا و التّعلّق بحب الذّات الإلهيّة، و التّفاني في خدمة الدّين، و استقطاب العامّ و الخاصّة بالتّواضع و حسن المعاملة.

من أشهر رجال التصوّف في ذلك الزّمان " **ابن مريم و الفكّون و الورثيلاني** *، **و البطيوي و محمّد بن سليمان و الصّباغ القلعي و أضرابهم، و قد أصبحت عبارة الصلحاء و أصحاب الولاية تتكرّر في أعمال المتأخّرين و أصبح المؤلفون لا يؤلفون إلّا في أذهانهم أهل التّصوّف ، سواء كانوا معاصرين لهم أو متقدّمين عنهم** "[2].

من أهمّ الطرق الصوفيّة التي علا شأنها، و تفرّعت شعبها و اتّسعت آفاقها، ومكّن لها آنذاك :

أ- الطريقة القادريّة :

تعدّ من أشهر الطّرق الصّوفيّة؛ " **تأسّست في بغداد في القرن الثّاني عشر، و مؤسّسها هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسني، أبو محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني** "[3]، وصلت إلى الجزائر خلال القرن الخامس عشر الميلادي (15) و تولى التّأسيس لها و نشرها الشيخ سيدي شعيب بومدين الغوث، و للقادريّة بالجزائر زوايا عديدة و أضرحة و قباب و مساجد في الجزائر و بجاية و تلمسان و قسنطينة[4]، انتشرت في زوايا عديدة مثل زمورة، تيارت، الشلف، الوادي، ورقلة، الأوراس، كنتة، بلغ عدد زواياها ثلاثا و ثلاثين(33)، و مريديها خمسة و عشرين ألف(25 ألف).

1أحمد مريوش " الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثمانيّ " ، مركز الدّراسات و البحث ، الجزائر ، د.ط ، 2007 ، ص 87.

2أبو القاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثّقافي " مرجع سابق ، ص112.

3عمر رضا كحالة ، " معجم المؤلفين "، مطبعة الترقي ، دمشق ، د.ط ، 1957 ، ج5، ص 207.

4 ينظر: أحمد مريوش ، الحياة الثّقافية في الجزائر خلال العهد العثماني ، مرجع سابق ، صص98-99.

ب- الطّريقة الرّحمانيّة :

ظهرت للوجود في " **القرن الثّامن عشر ميلادي نسبة إلى محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزهري الجرجري الملقّب ببوقبرين، كانت الطّريقة الرّحمانيّة أكثر الطّرق انتشارا، إذ بلـغ عدد زواياها مائة و سبعا و سبعين زاوية (177)، و 676 طالبا، و 22 شيخـا، و 873 مقدّمـا، 849 شاوشـا و 140596 إخوانيـا، و 13186 خونيـة** "[1]، و هذا كان ديدن و حال كلّ الزوايا و الطّرق الّتي انتسبت إليها، شاع التصوّف بكلّ طرقه و مناهجه حتّى صبغت به الحياة الدينيّة و الاجتماعية للجزائريين آنذاك .

ج/ الطريقة التّجانيّة :

ذاع صيت الطريقة التّجانيّة في ربوع الجزائر حتّى ضجّت السّاحات بمريديها، و قد أسّسها " **أبو العباس أحمد بن محمّد المختار الّتيجاني، كانت الطريقة التيجانيّة منتشرة في الصّحراء و المنطقة التليّة و الهضاب العليا و الجزائر، و تذّكر المصادر التّاريخية أنّ التيجانيّـة كـان لهـا 32 فرعـا، و 1605 مقدّمـا و 162 شـاوشـا، 19812 إخوانيـا، و 5164 خونيّة** "[2]

هذه الطّرق الصوفيّة السّابقة الذّكر هي على سبيل التّمثيل لا الحصر، فقد ظهرت طرق أخرى كالطّريقة الشاذليّة نسبة إلى نور الدّين أبي الحسن الشاذلي، ولد عام 1196م بالمغرب الأقصى، بعد عودته من رحلته الحج التي قادته إلى زيارة دول كثيرة في المشرق تشبّع فيها بالتّصوّف و نقله معه إلى الجزائر، و لها عدّة فروع، كما انتشرت الطريقة " البالقايدية " أو البلقاديّة الهبريّة، و هي طريقة صوفيّة سنيّة، أسّسها " محمد بلقايد الهبري الشّريف الحسني الإدريسيّ في تلمسان، و هو عالم دين و أحد أعلام التصوّف، ولد عام

1أحمد مريوش ، مرجع سّابق ، ص101.

2المرجع نفسه السابق ، ص ص 103-104.

1911 للميلاد، في عائلة دينيّة تلمسانيّة عريقة يعود نسبها إلى الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أخذ علمه عن أهل التصّوف في بلاد الشّام.

خاتمة الفصل :

أهم ما وسم به الأدب الجزائريّ في العهد العثماني، ركود البيئة التي لم تساعد على الإبداع في الفكر و الشّعر و باقي فنون الأدب، و يمكن حصرها فيما يلي :

- نظرا لإهمال الاجتهاد و التّجديد، نتج ركود فكريّ شبه تام و كلّي، و الاعتماد على المتوفّر فقط .
- توجّه معظم طلّاب العلم صغارا و كبارا وجهة دينيّة و شرعيّة، و إهمال الأدب بفنونه المختلفة .
- اضطراب المجتمع الجزائري في تلك الفترة بسبب عدم الاستقرار السّياسيّ، و غياب روح المنافسة الأدبيّة و الفكريّة .
- ضيق سبل العيش على الجزائريين، ممّا كان سببا في صرفهم عن الاغتراف من الأدب و تذوّق فنونه المختلفة.
- القلق النّفسي الذي كان يعانيه سكان الجزائر بسبب الغزوات الصليبيّة المتكررّة على السّواحل الجزائريّة .
- انصراف الحكّام إلى التّرف و المجون و اللّهو و العبث، و إغداقهم المال على المغنيّات و القيان، و انشغالهم عن أمور الشعب خاصّة منذ القرن الثامن عشر الميلادي.
- اقتصر اشتغال الأدباء و الشّعراء على جانبي الدّين و السّياسة و إهمال الفنون الأخرى، و بقيّة الأغراض الشعريّة .
- ظهور الرّكاكة على بعض الإنتاج الأدبيّ نثرا و شعرا، نظرا لغياب روح الإبداع و محاولة التقليد دونما اجتهاد.

الفصل الثّاني **نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار؛ قراءة سياقيّة وعرض للمنجز**

توطئة

1-التّعريف بالرّحلة الورثيلانيّة

2-أهميّة الرحلة الورثلانيّة

3-موارد تدوين الرحلة الورثلانيّة

4-الاستعدادات الأولية للرحلة.

5-عتبات النص الأدبي الرحلي عند حين الورثلانيّ

6-التّشكّلات السرديّة في الرّحلة الوثلانيّة

7-صورة الشخصيّة الثانويّة في الرّحلة الورثلانيّة

توطئة:

تشهد الكثير من الأبحاث العلميّة بتفوّق المغاربة في فنّ الرّحلة، و قد وضعوا فيه مؤلّفات عديدة طبع بعضها وأكثرها لا يزال مخطوطا، انقسمت الرّحلات إلى علميّة و حجازيّة، وقد برز المغاربة في هذا النوع الأدبيّ وأبدعوا فيه، إذ أنّ أشهر رحالة في العالم هو ابن بطوطة الطنجي، كان من أهل المغرب، والشّريف الإدريسي السبتي أكبر جغرافي عرفته الحضارة الإسلامية، بل وأكبر جغرافي على الإطلاق حتّى عصر الكشوف الجغرافية الأوربيّة أواخر القرن الخامس عشر و أوائل القرن السّادس عشر الميلاديين، كما أنّ أعظم رحلة ألّفت في العربيّة ألفّها مغربي و هو الإمام ابن رشيد السبتي في سبعة مجلّدات، و تأتي الرّحلات الجزائريّة في الصّدارة إلى جانب تلك الرّحلات السّابق ذكرها، كرحلات أبي سالم العياشي، المقرّي، أحمد بن عمار، أبي راس النّاصري، و الحسين الورثيلاني... و غيرهم.

1-التّعريف بالرّحلة الورثيلانيّة:

تعدّ الرّحلة الورثيلانيّة "نزهة الأنظار في فضل التاريخ والأخبار" الشهيرة بالرّحلة الورثلانية" للرّحّالة الجزائريّ الحسين الورثلانيّ، موسوعة ضخمة تقع في 816 صفحة، أنشاها عندما ذهب إلى الحج عام 1179هـ، وهي رحلة حجازيّة، فيها وصف لرحلته إلى الدّيار المقدّسة وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من العلماء والأعيان وغيرهم، وقد طبعت في مطبعة بيير فونتانة الشّرقية في الجزائر عام 1908م، حقّقها الأستاذ محمد بن أبي شنب، و قد طبعت في جزءين، أبرز فيها أهميّة التّاريخ على خلاف معاصريه من العلماء و أهل وطنه، في تلافيهم الحديث عنه، و رأى " **أنّ علم التّاريخ يزيد في فضل الإنسان، و يبعده عن القبائح، و يرى أيضا أنّ مرتبة العلماء تزيد و تنقص بعلم التّاريخ، و هو طموح إلى نيل مرتبة عليا علما و ولاية**"[1]، قد تضمّنته رحلته(علم التّاريخ)، كما بيّن

1مختار بن الطّاهر فيلالي، رحلة الورثيلانيّ، عرض و دراسة، دار الشّهاب، باتنة، د.ت، د.ط، ص ص 39-40.

فيها أهداف تأليفها، فأورد فيها ذكر لأسماء العلماء، الأولياء، الصّالحين، و تراجمهم، و ذكر أوصافهم، و حثّ على اقتفاء أثرهم، و السير على نهجهم، وبيّن أنّ سبب اهتمامه بهم، هو عدم عناية أهل زمانه بهم، إذ يقول:" **لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التّراجم في وطننا، فرسمنا ذلك رسما جيّدا، فحفظت من كلّ خلف وصف أسلافه، و نقلت من كلّ نوع أخبار أصله، علما منّي لا يمجّه السّمع السّليم، و الطّبع المستقيم، ريحانة لمّا يجده المتأخّر بعدنا، و رحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا**"[1]، عرض فيها مسار طريق الحجّ و معالمه الممهّدة، و الصّعبة، و وصف من خلالها ما ساعده على بلوغ البقاع المقدّسة، و ما كان من عوامل معادية صعّبت من ذلك، و قد لقيت رحلته شهرة واسعة منذ إتمامه تدوينها، إذ نسخها سعيد بن أحمد بن إيدير العباسي القلعي عام 1182هـ/1768م، تحتوي المكتبة الوطنيّة نسخا عديدة، نسخت أوّل طبعة حجريّة لها عام 1903م في تونس، و صدرت أوّل نسخة منها في الجزائر – و قد سبق الإشارة إلى ذلك– عام 1908م بمطبعة بيار فونتانا، من تحقيق محمد بن أبي شنب، بطلب من الحاكم العام الفرنسيّ جونار.

شملت الرّحلة الورثيلانيّة علوما مختلفة، حتّى عدّت موسوعة علميّة، إذ ضمّت التّوحيد، الفقه، المعاملات، التّفسير، التّصوّف، البلاغة، النّحو، التّاريخ و الجغرافيا، عادات و تقاليد المجتمعات، ما دفعه إلى إصدار أحكام منصفة، على العصر الّذي عاش فيه أهله، و يمكن عدّها وثيقة أرّخت لأحوال الجزائر و باقي الدّول العربيّة في ظلّ الحكم التّركي الّذي وصفه بالظّالم و ما لالحظه في الجزائر–خاصّة في مدينة بسكرة– و كذلك مصر[2]، من سياسيّة ، اقتصاديّة، اجتماعيّة، و ثقافيّة،...، خلال رحلتي الذّهاب و الإيّاب للحجّ، و أتى على ذكر مختلف المدن و البلدان، الّتي زارها، انطلالقا من بلدته بني ورثيلان، فمجانة، زمورة، قصر الطّير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد درّاج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة،

1الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، 397.

2 ينظر: ناصر الدّين سعيدوني، من التّراث التّاريخي و الجغرافيّ للغرب الإسلاميّ، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، 1999م، ط1، ص418.

الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زواوة، طرابلس، تاجوراء، لبدة، زلتين، مصراتة، بلاد السّرت، إقليم برقة، الإسكندريّة، و المدينة، و مكّة، أمّا طريق العودة، فهو ذاته طريق الذهاب، لكن معكوسا، إذ أصبحت نقطة النهاية(المدينة المنوّرة) هي المنطلق، و قريته(بني ورثيلان) هي نقطة الوصول.

تعوّد الشّيخ الحسين الورثيلانيّ على التّرحال داخل الجزائر و خارجها منذ صغره، و يعبّر عن ذلك بقوله: " **فإنّـي قد جبلت على حبّها من صغري، و قد كثرت منّـي شرقا وغربا، و جوفا و قبلة، لا سيما عمالة الجزائر، فإنّي قد خضتها، و بحثت عن أهلها، بحثا شديدا، تاريخا، و سيرة، وطريقة...**"[1]، فالشيخ رحّالة منذ صغره، تنامت الرّحلة بمراحل حياته، حتّى صار رحّالة بحقّ، و الشّاهد رحلته الّتي بين أيدينا.

2-أهميّة الرّحلة الورثيلانيّة:

اعتنى الرّحالون الجزائريّون قديما و حديثا، بتدوين رحلاتهم و قد حوت بين طيّاتها الكثير من المعارف و العلوم إذ" **تعتبر رحلة الورثيلانيّ موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلاميّ في القرن الثّامن عشر للميلاد، و قد اعتنت رحلة الحسين الورثيلانيّ، بالوصف الجغرافيّ و السّرد التّاريخيّ، الخاصّين بالبلاد العربيّة(الحجاز) و تصوّر أهميّة رحليّة إلى ما اشتملت عليه من معلومات في غاية الأهميّة تتّصل بالحياة اليوميّة و الحالة الاقتصاديّة و المعاشيّة و أسلوب الحكم، و مستوى الثّقافة و طبيعة العادات و نوعيّة اهتمامات العامّة في البلدان الّتي تعرّف عليها في سفره أو أثناء إقامته بالحجاز**"[2]، بالرّجوع إلى البحوث السّابقة في أدب الرّحلة و عن رحلة الشّيخ الورثيلانيّ بالذّات، نجدها تتفقّ جلّها على أنّها موسوعة جمعت بين طيّاتها معارف كثيرة، و الشّاهد كثرة البحوث الأكاديميّة حولها.

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار الغرب الإسلاميّ 1998، بيروت، لبنان، ط1، ج3، ص97.

2حنيفي ملايلي، الجزائريّون و الرّحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثيلانيّ و أبي راس النّاصري، مجلة الشّهاب الجديد، مج7، العدد07، 22ربيع الأوّل 30/1429مارس2008، ص22.

احتفى شيخ المؤرّخين الجزائريين (أبو القاسم سعد الله) بالرّحلة الورثيلانيّة و صاحبها، فحسب رأيه" **تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلاميّ في القرن الثّامن عشر ميلاديّ(18م)، فهي من المراجع الّتي لا غنى عنها في هذا المجال و كان تكرار حججه و إتقانه للعربيّة و معرفته بعادات الشّرق و الغرب، قد جعلت الورثيلانيّ حكما منصفا على العصر و أهله في كثير من المناسبات**"[1]، لذلك تعدّ وثيقة و مرجعيّة تاريخيّة هامة يستدلّ بها على كثير من الأحداث التّاريخيّة الّتي عاشتها الدّول العربيّة و الإسلاميّة، في تلك الحقبة إبّان الحكم التركيّ.

تحدّث عنها الدكتور عيسى بخيتي في أطروحة الدكتوراه المعنونة " أدب الرّحلة الجزائريّ الحديث– سياق النّصّ و خطاب الأنساق– الّتي قدّمها أمام جامعة" أبي بكر بلقايد" تلمسان، إذ قال عنها مادحا: " **و تعتبر رحلة الحسين الورثيلانيّ واحدة من رحلات المغاربة خلال القرن الثّامن عشر الّذي يوافق فترة الحكم العثمانيّ، و لعلّها من أهمّ الرّحلات الّتي أرادها صاحبها حجازيّة و علميّة فجمعت بين أدب الرّحلة و الكتابة الجغرافيّة و تدوين التّاريخ، و المتأمّل في عنوانها يدرك جملة مضامين احتوتها الرّحلة، و هو" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، و من ثمّ كانت رحلته أيضا نصّا تاريخيّا مختلفا عن كتب التّاريخ العام أو الخاصّ، فهي تتحدّث عن تاريخ حي معيش، دوّن فيه صاحبه حياة النّاس و بيئتهم و معيشتهم، و بذلك استحقّت أن يكون في بنائها تاريخا اجتماعيّا و ثقافيّا**"[2]، و هذا ما يميّز هذه الرّحلة من ديناميّة لا متناهية من خلال الأحداث الّتي أرّخت لها و الأمكنة الّتيي أحصتها، و كلّ الحيثيات الّتي رصدتها، و المعارف الّتي احتوتها.

1أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار البصائر للنّشر و التّوزيع، الجزائر، 2007، د.ط، ج2، ص 398.

2عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائريّ الحديث–سياق النّصّ و خطاب الأنساق– أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائريّ الحديث، إشراف أ.د محمد مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كليّة الآداب و اللّغات، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، 2015–2016، ص 20.

تعدّ رحلة الشّيخ الحسين الورثيلانيّ مثالا لعلوّ الهمّة، و تحدّي الصعوبات، و المغامرة، فالرّحّالة يتّصف بسعة الأفق ممّا جعله يحشد لمتن رحلته كلّ شاردة و واردة، عاشها أو صادفها أثناء رحلته، ذهابا و إيّابا، فسجّل كلّ ما يخصّ المناطق الجزائريّة و الأصقاع العربيّة آنذاك، ممّا طبع صورة مشرّفة عنها، لذلك لا يمكن أن يجحد فضل رحلته الّتي تعدّ وعاء أدبيّا، استطاع أن يرصد كلّ انماط حياة النّاس في ذلك الزّمان، و خلّد بصمته الفكريّة و الثّقافيّة في مرحلة عرفت بالرّكود في مختلف المجالات العلميّة، الفكريّة، و الأدبيّة، من تاريخ الجزائر خاصّة، و البلاد العربيّة عامّة.

و يذهب الدكتور" رويدي عدلان" في تبيينه مكانة الرّحلة الورثيلانيّة و أهميّتها بقوله: " **تعدّ رحلة الورثيلانيّ من الرّحلات الجزايريّة القليلة في العصر الحديث، الّتي تجمع الكثير من الحقائق التّاريخيّة، ليست فقط الّتي تتعلّق بشخصيّة الورثيلانيّ و مسار حياته، و إنّما تمثّل سجلّا حافلا بالأحداث التّاريخيّة الّتي تخصّ البلدان و الأقوام المختلفة و صفاتهم و عادات شعوبهم**"[1]، و هذا الرّأي يدعّم الآراء السّابقة، ممّا يكسب الرّحلة الورثيلانيّة مصداقيّة كبيرة.

لا يعلم إذا كان الورثيلانيّ قد دوّن رحلته دفعة واحدة باطّراد، أم على مراحل متتالية، إلّا أنّها حملت بين طيّاتها زخما معرفيّا و فكريّا ضخما إذ " **يشتمل قسم كبير من الرّحلة على أخبار المتصوّفة و الصّالحين، كما لا تخلو الرّحلة من الحكايات الخرافيّة و الغيبيّات، ففيها ذكر لكرامات الأولياء الصّالحين و الشّيوخ، و ذكر لأحداث تاريخيّة تخصّ فتح بلاد المغرب، خصوصا في الجزء الثّالث منها، كما تقدّم العديد من سير العلماء و المشايخ كما تحتوي على قصص الأنبياء، كما لا تخلو من ذكر لغزوات الخلفاء الرّاشدين، و تاريخهم**

1رويدي عدلان، بلاغة وصف الفضاء الجغرافيّ في رحلة الورثيلانيّ، الموسومة" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، مجلّة الخطاب و التّواصل، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، جامعة جيجل، جويلية، 2018، ص 60.

و أيّامهم، و تاريخ الدّولة العباسيّة و غرائب البلدان و عجائبها"[1]، كما احتوت الرّحلة على علوم مختلفة دينيّة كالفقه و المعاملات و السّيرة، و دنيويّة كالتّاريخ و الجغرافيا و السيّاسة و نظام الحكم، و ثقافات شعوب مختلفة و عاداتهم تقاليدهم.

يتوجّب في هذا المقام ذكر أهميّتها حتّى لدى المحتلّ الفرنسيّ، فقد استطاع من خلالها الاطّلاع على خصوصيّة سكان بلاد القبائل و عاداتهم، و تقاليدهم، فاستغلّوا ذلك و وجدوا من خلاله منافذ لاحتلالها، و السّيطرة عليها، و قد اهتمّ الفرنسّ مارسي"Mercier" برحلة الشّيخ الورثيلانيّ، و طالب بترجمتها إلى الفرنسيّة، ممّا جعل "الحاج صدوق" يكتب عنها مقالة في المجلّة الإفريقيّة، عرّف فيها بالرّحلة و صاحبها، و كثيرون من استهوتهم فأسالوا حبرا كثيرا للحديث عنها، أو دراستها.

3- موارد تدوين الرّحلة الورثيلانيّة:

اعتمد الرّحّالة في تدوين رحلته على المشافهة، و على بعض الرّحلات السّابقة كالرّحلة النّاصريّة(للشيخ أحمد بن محمد بن ناصر)، كتاب"النّبذة المحتاجة في ذكر أخبار ملوك صنهاجة" لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصّنهاجي، و كتاب السيوطي: "حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة" ، و كتاب أبي الشمّاع الحفصي: " الأدلّة البيّنة النورانيّة في مفاخر الدّولة الحفصيّة"، كما اقتبس من كتاب" عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية"، لعبد الرّحمن الثّعالبيّ، و مصادر أخرى في علوم مختلفة، كالتّوحيد و الفقه و التّصوّف، منها الوغليسيّة لمحمد الوغليسيّ، صحيح البخاري، و كتاب المختصر في الفقه لابـن إسحاق الجندي المالكي المعروف "بمختصر خليل"... و غيره من المصادر[2].

1 رويدي عدلان، بلاغة وصف الفضاء الجغرافيّ في رحلة الورثيلانيّ، الموسومة" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، مرجع سابق، ص 60.

2 ينظر: الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل عام التاريخ و الاخبار مكتبة الثقافة الدينية ,القاهرة ط 1 2008 ص 290.

من خلال مطالعتنا لمتن الرحلة، تبدو شخصية صاحبها رجل دين و علم وفقة، رجل ذو حنكة وثقافة عالية يجيد التّدوين، وهذا ما تعكسه طريقة سرده للأحداث الّتي عاشها وعايشها خلال رحلته وإلى جانب ذلك فهو من أعلام زمانه لنبوغه في الفقه و التّصوّف، ورصانة أسلوبه و تدبيجه بالأشعار التي تنمّ عن حكمة بالغة، ومكانة رفيعة للرّحالة و هذا ما كشفته لنا المنازل الّتي نزل بها انطلاقا من بلدتة بالجزائر وصولا إلى بلاد الحرمين، ويورد في رحلته المصادر الأساسية التي استعان بها لتدوينها "**و إنّ اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله ثم عليه اعتمدنا سيدي احمد بن محمد ناصر الدرعي الجعفري (...) و أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة**

و مختصرة جمان في أخبار أهل الزمان و كذا حسن محاضرة في أخبار " مصر و القاهرة و غيرها "[1]، فقد كان الرّحّالة أمينا في ذكر مصادر رحلته.

بيّن الورثلاني في متن رحلته الأسباب العديدة الّتي دفعته لتدوينها، فسّجل فيها كل شاردة وواردة صادفته، فقيّد الأحداث بتواريخها، و سمّى الشخصيات الّتي التقاها بأسمائها الحقيقيّة، ووصف كل المناظر التي رآها، و الدروب التي يسلكها الحجّاج في سفرهم، و الصّعوبات التّي تعترضهم ، و بيّن ذلك كلّه بقوله : " **فإنّي لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم و الآثار، و الرّباع، و القفار و الديّار، و المعاطن و المياه و البساتين و الأرياف و القرى و المزارع و الأمصار، و العلماء و الفضلاء و النجباء و الأدباء من كلّ مكان، من الفقهاء و المحدّثين و المفسّرين الأخيار، و الأشياخ العارفين و (...) أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي و يستحسنها الشّادي** "[2].

يبدو الرّحالة الورثيلاني في تسجيله للكمّ الهائل من الأحداث و الوقائع و كلّ ما يقع عليه ناظره، أو يلتقيه ، كأنّه يعوّض ما لم يحرص على تدوينه في رحلاته السّابقة، فجاد

1 الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الانظار في فضل عام التاريخ و الاخبار، مصدر سابق، ص 13.

2، المصدر نفسه ، ص 13.

فيها بكل ما يثريها من آداب و ثقافة و تصوّف، و فقه، و جغرافيا، و تاريخ ... و غير ذلك فأصدرها زخما هجينا ، بل توليفة من العلوم المختلفة، استوعبت أحداث ثلاث حجّات قام بها الأولى كانت عام 1153 هـ ، ثمّ تنّاها بأخرى عام 1168هـ ، و ثالثة عام 1179هـ، و عمد خلالها إلى تدوين كلّ ما أمكنه خلال فترات الاستراحة وحطّ الرّحال .

اعتمد الورثيلاني في تسجيل أحداث رحلته، على مصادر مختلفة، منها مؤلّفات الرّحالين السّابقين أمثال : أبي سالم العياشي في " ماء الموائد "، و أحمد بن ناصر الدّرعي المغربي " الرّحلة النّاصرية "، التّيجانيّ، العبدري، و قد نقل عنهم كثيرا من الأقوال و الاقتباسات، كما لا ننسى اعتماده على مصادر تاريخيّة لدى مؤرّخين كثر أمثال البكري و ابن حوقل و السيوطي و غيرهم، و هاجسه في ذلك إيعاز قيمة للتّاريخ الّذي لم يحظ بالمكانة اللّائقة به لدى الجزائريّين في ذلك العهد، و هذا ما أورده الشّيخ الحسين الورثلانيّ في قوله : " **لا سيّما أهل بلادنا، فإنّ علم التّاريخ منعدم فيهم، و ساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء، أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها** "[1]، فسعى عامدا إلى توظيف التّاريخ و النّهل منه لينزله مكانته اللّائقة به، و الّتي لم تكن تحظى بالاهتمام، و ذلك من خلال رصده الكثير من الأحداث التّاريخيّة، و أصحابها و سيرهم كما وردت في مصادر إسلاميّة سابقة.

و الّذي ألجأ الرّحالة إلى المؤرّخين هو " **تحرّي الحقيقة فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له بل يلتجئ في بعض الأحيان تأكيدا لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرّحالين السّابقين**"[2]، و لم يعتدّ بالمعارف المدوّنة فقط في تدوين رحلته بل زاوج بينها و بين الرواية الشّفويّة، فأخذ كثيرا من الأقوال و الأخبار عن علماء و شيوخ لفيف من الزوايا من داخل البلاد و سجّلها استشهادا بها، كما سار على النّمط نفسه عند لقائه بعلماء

1 المرجع السّابق نفسه، ص 597.

2 ينظر : مختار بن الطاهر فيلالي ، رحلة الورثلاني – عرض و دراسة – دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1998 ، ص 62-63.

البلاد الّتي دخلها أثناء رحلته، فنهل من علوم أهلها من فقهاء و علماء و أصحاب أوراد كتونس، ليبيا، مصر، بلاد الحجاز .

و يذكر الحسين الورثلاني – رحمه الله– من حين لآخر بين ثنايا رحلته المصادر الّتي اعتمدها لتدوينها مثل :

3-1- الرّحلات السابقة :

دأب الرّحالة على نهج مسار بعضهم بعضا في تدوين رحلاتهم، مقتد منهم اللاحق بالسابق ، فما من بقعة زارها ، أو مكان نزل به إلا و أتى على ذكره من سبقه ، أمثال الرّحلة العياشيّة: ماء الموائد(1661م–1663م) لأبي سالم العياشي، الرّحلة النّاصريّة لأحمد بن ناصر بن عمر الدّرعي(1709م–1710م)، ثمّ رحلة الأغلاني(ت1129هـ–1717م)، الّذي عاين الأحوال السيّاسيّة و الاجتماعيّة، و الاقتصاديّة لبلدان المشرق و المغرب الإسلاميين، و قد اعتمد عليها الشيخ الورثيلانيّ في وصف عديد الأماكن و الأقاليم، خاصّة ليبيا (طرابلس و ما حولها)، كما أفاد من الرّحلة التّيجانيّة، لأبي محمد علد الله بن محمد بن أحمد التيجاني(ت717هـ– 1317م) و تعدّ من أهمّ الرّحلات التّونسيّة، و الّتي اهتمّ صاحبها بوصف البلاد الإفريقيّة، استعان بها الورثيلانيّ في تحديد جغرافية المدن الليبيّة خاصّة، مستكملا بمعلوماتها ما وجده في رحلة الدّرعي، و قد نهل من الرّحلة المغربيّة، كرحلة العبدري، محمد بن محمد بن علي أنو عبد الله العبدري الحيحي(ت700هـ–1300م) الزّاخرة بوصف الأماكن الأثريّة و وصف الطّبيعة، و استقى عناصر الثقافة العلميّة و الفكريّة لبلاد المغرب و الأندلس، من رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المغرب و المشرق، لأبي البقاء خالد بن عيسى بن أحمد البلوي القنتوري(ت780هـ– 1379م)، و ثمّة رحلات اعتمد عليها في أحداث قليلة، لا تستدعي التفصيل، كرحلتي ابن بطوطة الطّنجي، وابن رشيد السّبتي،.. وغيرهما، و هذا يدل على أن صاحب الرحلة قد خطط لها مسبقا و بدقّة عالية، و توالي أحداثها بشكل إنسيابي يدل على استشراف مسبق لتدوينها خاصة و أنه لا يهمل شاردة و لا

واردة إلّا و أثبتها في الرّحلة كأسماء المناطق و غيرها و أعلامها و علمائها، و حسب عملية الاستقراء التي قمنا بها و استنباطا من الرحلة، الأقرب إلى المنطق أنه أتمّ تدوين نصّه بعد فترة زمنيّة من عودته من رحلته إلى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج.

3-2- الموارد الفقهية و التّفاسير :

تدلّ المواقف المتعلّقة بكثير من أمور الدّين الإسلامي، و التي عاينها الشيخ الحسين الورثلاني أثناء رحلته، على تعمّقه في مواضيع الفقه، و كلّ ماله علاقة به ذلك من خلال الفتاوى و التّفاسير التي حلّل بها أمورا استحدثت في عصره، تعامل معها على أنّها بدع استحدثت بفعل التباس أمور الدين على فئة كبيرة من عامّة المسلمين، بسبب معتقدات خاطئة شاعت بينهم بفعل تحايل بعض أصحاب الطرّق الضّالة.

و يبدو في ذلك متأثّرا بشيوخ آخرين أمثال سيدي عبد الرّحمن الصبّاغ شارح الوثيقة الوغليسية التي تجمع بين الفقة المالكي و التّصوف، كما اعتمد على مصادر فقهية أخرى كانت شائعة في عصره مثل :" **النبراس في الرد على منكر القياس**"[1]، إلى جانب أسماء الفقهاء الّذين ذاع صيتهم أمثال الإمام ابن مرزوق التلمساني " **و بحر الولاية و العلم سيدي عبد الرحمن الثّعالبي و مثله سيدي التواتي البجائي الذي كان حكمه و فتواه لا يردان من بجاية إلى تورز** "[2] و الشيخ زروق من تمقراد ذو الكرامات العديدة [3].

1-الحسن بن محمد الورثيلاني مصر سابق ص 41

2-المصدر نفسه ص 19

3 ينظر:المصدر نفسه ص 20

3-3- مواردر لغويّة :

أتى الحسين الورثيلاني على ذكر كتب هي مصادر لغوية استقى منها معلومات في رحلته ,مثل الفية النحو "لصاحبها ابن معطي الزواوي "[1]

3-4- موارد تاريخيّة :

وجد الرّحالة في كتب التّاريخ و الجغرافيا ماسهّل عليه تحديد تواريخ بعض الأحداث المهمّة لبلاد المشرق و المغرب الإسلاميين، و منها كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر و القاهرة، لعبد الرّحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد سابق الدّين الخضيري الأسيوطي، المشهور بجلال الدّين السيوطي(ت911هـ- 1505م)، يقع المؤلّف في مجلدين، ضمّ بين طيّاته سير بعض رجالات مصر المهمّين، و تاريخ أحداث الفتح الإسلامي...، و كتاب مباهج الفكر و مناهج العبر، لأبي إسحاق برهان الدّين محمد بن إبراهيم بن يحي بن علي المعروف بالوطواط (ت718هـ-1318م)، رغم غلبة الطّابع الأدبيّ عليه، إلّا أنّه عدّ موسوعة في الجغرافيا و العلوم الطبيعيّة و قد ألفه صاحبه في العصر المملوكي، أورد فيه وصفا دقيقا لمدن كثيرة و معالمها، كمنارة الإسكندريّة، و غيرها.

و اعتمد أيضا على كتاب مختصر الجمّان في أخبار أهل الزّمان، لمحمد بن علي الحاج الشاطبي(ت 963-1555م)، و قد اهتمّ فيه صاحبه بعلوم مختلفة، كالفقه و التّصوّف، و التّاريخ، و الأدب...، إلى جانب كتاب "شرح الشّقراطسيّة" لمحمد بن يحي بن علي بن عمر الشقراطيسيّ المعروف بابن الشّباط التّوزري(ت466هـ- 1074م)، عرف بشدّة ذكائه و تفوّقه على أقرانه في زمانه، فقد نبغ في الرّياضيات، و الأدب، و اشتغل بالقضاء، كما استعان بكتاب" العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر"، لعبد الرّحمن بن محمد بن خلدون " (808هـ-

1- المصدر نفسه السّابق، ص 28

1406م) فيمتا ذكره عن تاريخ مصر خاصّة، و كتاب " المواعظ و الاعتبار في ذكر الخطط و الآثار المعروف ب" الخطط"، لتقي الدّين أحمد بن علي بن عبد القادر، ابو العباس الحسيني العبيدي المقريزي(845هـ- 1442م)، يصنّف هذا الكتاب ضمن الكتب الجغرافيّة التّاريخيّة الإقليميّة، أي ما يعرف بالطبوغرافيا، خصّ فيه صاحبة مدينة القاهرة ، و مصر عامّة في العصر الإسلاميّ بجغرافيتها و تاريخها.

مامن بلدة دخلها الشيخ الحسين الورثيلاني إلّا ربطها بحادثة تاريخيّة تتّصل بها اتّصالا وثيقا، و يسهب في ذكر تفاصيلها، ومن أمثلة ذلك وصفه حملة "عقبة بن نافع " المدفون بمنطقة "سيدي عقبة " بالقرب من مدينة "بسكرة "، و سرد وقائع النّزاع الّذي كان بنيه وبين كسيلة" أمير بربري عاصره و على المنوال نفسه يدرج –عند وصوله الى منطقة " قابس" بتونس قصّة الصحابي "أبي لبابة" وذكر المصادر التي ذكرتها على نحو "**اختصار معالم الإيمان وروضات الرّضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان لصاحبه ابن ناجي**"[1]، و تلك مزيّة تحسب لعلماء وشيوخ ذلك الزّمان، فما ذكروا حادثا إلّا قرنوه بتاريخه و نسبوه لصاحبه الأوّل، الّذي نال به قصب السّبق.

كما لجا إلى التأريخ للحديث عن المناطق التي كانت خاضعة للسّلطة العثمانيّة و ولّاتها وهذا ما أضفى على الرّحلة جانبا من التّاريخ، ومن مشاهير تاريخ المسلمين، ورد ذكر العلّامة عبد الرحمن بن خلدون مؤسّس علم الاجتماع استشهادا بشخصيته و آرائه، بالانحطاط الحضاري للمسلمين و بلادهم بعد ما حلّ بهم و بها من تفكّك اجتماعيّ، و تضييع سبيل الإسلام الصحيح سواء في المشرق أم المغرب ام بلاد الأندلس.

راح الورثيلانيّ يحلّل حالة تلك البلاد ومثيلاتها اقتداء بابن خلدون، و لكن بشكل مقتضب فأبدى تذمّره من انحلال المجتمع بسبب ابتعاد أهله عن العقيدة الصّحيحة بسبب تفشّي الجهل والفساد فضاعت البلاد بسبب ضلال العباد .

1- المصدر نفسه ، السّابق، ص 163

أسهب الحسين الورثيلاني في ذكر المناطق الّتى عبرها خلال رحلته و التي كانت خاضعة لسلطان التّرك، كما كان يسمّيهم، كالجزائر و تونس وليبيا ومصر و السعوديّة، و لايذكر ولّاتها بسوء ما عدا بعض النّقد لبعض المحليين منهم و أحيانا كان يثني على آخرين منهم، ولم يول السياسة أهميّة كبيرة في رحلته، إنّما حصرها في مجالين عظيمين هما ما تعلّق بالعقيدة الإسلاميّة و الجانب التاريخيّ، و لأنّ الخلافة العثمانية كانت ذات طابع إسلاميّ –وإن لم يكن إلّا من حيث الظّاهر والشّكل– فلربما ذلك ما جعله لا ينتقد سياستها كثيرا بل كان يمدح حكّامها في مواضع أخرى، لكونهم شكّلوا حصنا منيعا في وجه الحملات الصليبيّة، آنذاك كتلك التي كانت على مدن إسلامية كثيرة كطرابلس و مدن اخرى ولم ينتقد التّرك إلّا نادرا كمعاناة "أهالي منطقة الجريد التونسيّة " من ارتفاع حجم الخراج، و التّدخّل السلبيّ للعساكر الأتراك في حل بعض النّزاعات الداخليّة في بعض المدن الّتي احتكم عليها سلطانهم، مثل ماحدث في مدينة بسكرة.

4–الاستعدادات الأوليّة للرّحلة :

استعدّ الشيخ الورثيلاني لرحلته الكبرى أوّلا بالقيام برحلة داخلية، زار من خلالها كل من كانت له مكانة دينيّة، و علميّة، و جال من خلالها الوطن عامّة، و الأماكن التي أورد ذكرها في متن الرّحلة، تدلّ على أنّه قام برحلة داخلية تحضيرا للرّحلة الحجازية التي تقوده الى بيت الله الحرام، وفي زيارته لقبور الأولياء الصّالحين للتّبرّك قبل الرّحلة الفعليّة، معتقدا بأهميّة تلك الزيارات في تسهيل أموره، و يبدو ذلك جليا في قوله"**ولعلّ الله بذكركم يزيل الحجاب عنّا و يرزقنا الوهب الرباني لي ولذريتي ولمن تعلّق بي، وأن يحفظني من العوائق عن الوصول الى الله و أن يجمع شملنا و يرزقنا ما رزق أهل ودّه ...ولتزاداد النّفس رغبة فيهم ورجاء أن تكون همّتك كهمّتهم فإنّ الرّحمة تنزل عند ذكرهم**"[1]، ولم يقتصر الحدّ على هذا فقد قام الوريثلاني بزيارة جل الأولياء و الصّالحين الأحياء منهم و الأموات، ممّن

1 الحسين بن محمد الورثيلاني، الرّحلة، مصدر سابق، ص 104.

يعرف، وممّن سمع عنهم وعن كراماتهم فقط، كما فعل ذلك مع العلماء و الفقهاء ... و غيرهم من أهل الدّين و العلم .

قام الشيخ الورثيلانيّ بتهييئ نفسه تهيئا روحيا، أكثر منه ماديّا للرّحلة، موضّحا أنّ الرّحلة للحجّ تبتغي أمورا عدّة لعلّ أهمّها العزم في عقد النية على التّوجه إلى الله بقلب سليم رجاء نيل رضاه، حجّة لا سمعة و لارياء فيها، و التّحلّي بما يجب من آداب المسافر القاصد لبيت الله الحرام، فيقول في هذا الشان "**فينبغي أن ينوي بسفره رضى الله تعالى وأن يشغل نفسة بالتوجّه إلى الله وإلى رسله... وأن ينتظر شفاعتهم بأن يتعلّق بهم بحيث ينوي الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة و السّفر من الخلق إلى الخالق ومن طبائعه الردية الى السجايا السنيّة ... وينوي أيضا ان تكون من وفد الله تعالى و ضيوفه .... وينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسال العالم إن كان جاهلا، و أن ينوي الزّيارة لأحباب الله الأحياء و الأموات في كلّ وطن ... وأن يعتبر و يوحّد الله فيما يراه من عجائب المخلوقات** "[1]

ممّا أشاد به النّقاد العرب القدامى براعة الاستهلال و الإطراء على صاحبه، لأنّه دلالة نبوغ و سموّ فكر، كون إنشاء الكلام المناسب للمقصود و أهمّيته في خلق الانطباع الأوّل العام عن النص، يشد انتباه القارئ إلى الدّلالات المقصودة، و المراد إبلاغها للمتلقّي بشكل مباشر أو إيحائي، فقد وظّف الورثيلاني عبارات محدّدة للدّلالة على بداية الرّحلة " **فلما حان السّفر و أنّ حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره وصلينا الصلاة الواردة وختمنا بالصلاة بالمسجد (مسجد صغير أعلى القرية) ثمّ أتينا أهل البيت و الخدّام و الطّلبة و الجيران و من أتى يودّعنا ودعوا لنا ودعونا لهم، وعند ذلك رفعنا ما يحتاج الرّفع، و انفصلنا على حسن الانفصال، و وقع البكاء و الصّراخ من أهل البلد لما كان من انسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لايقع بهم إلّا الخير و البركة ...لأنّ القلوب قد**

1-المصدر نفسه السّابق، ص 46

تعلقت بالمصصفى صلى الله عليه وسلم، فسهل علينا الفراق من أجل ذلك قال تعالى :النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم, الآية، فإن كان النبي أولى من النفس فكيف يبقى التعلّق بالأزواج و الذرية و المال بل المتروك كالعدم بالقياس الى المطلوب الا ما ألزمتك به الشريعة من الوصية على الأولاد و النّفقة على من تلزمك نفقته, لأنّ الذي ذهبت إليه هو الذي ألزمك "[1]

ونظرا لحضور المشاعر الجياشة في مثل هذه المواقف كالتّوديع و الافتراق، واختلاج النّفس بالمشاعر المختلفة لجأ الرّحالة للتّعبير عنها شعرا فقال :

" وَ كُلُّ نَفْسٍ تُزْعَجُ لِلْافْتِرَاقِ لِفُقْدَانِ الْمَأْلُوفِ بِاخْتِنَاقٍ

فَأَشَدُّ النِّيرَانِ نَارُ افْتِرَاقٍ لَعَمْرُكُمْ قَدْ هَبَّتْ نَارُ بِاحْتِرَاقٍ

فَتَحْوِيلُ الْوَجْهِ عَنِ الْوَدَاعِ بِشِدَّةٍ يَرْجِعُ بِالصُّدَاعِ [2]

ما يطغى على النّص الرّحلي عناصر كثيرة، كالسّردي والحكائي، هيمنة الذّات السّاردة (الرّحّالة)، و قد تعوّد الباحثون في النّص الأدبي الرّحلي، على أنّه مجسم تناسقت أضلاعه كما رسمه صاحبه، وصمّم له، و وينظر النّقاد إلى الجانب السّردي فيه على أنّه "**نشاط إرادي يرتّب من خلاله الكاتب العناصر و الأسس الفنيّة الرئيسيّة التي تكوّن منها حبكة فنيّة مرتبة ترتيبا إراديّا**"[3]، إذن فهي عملية مسبقة مخطّط لها تخطيطا ذهنيا، لها بداية كما لها نهاية و هدف صاحبها إبلاغ المتلقي او المرسل اليه، أو التاثير في نفسه، أو إقناعه بفكرة معينة، أو توجيهه إلى أمر بعينه وذلك بمقتضى الغرض من النص المبرمج وطبيعته.

1-المصدر نفسه السّابق، ص 104.

2-الحسين بن محمد الورثيلاني، الرّحلة، مصدر سابق، ص105.

3-خالد أحمد ابو جندي، الجانب الفني في القصة القرانية، دار الشهاب للطباعة و النشر، باتنة،الجزائر د.ط ، د.ت ص 119.

من المتعارف عليه في عالم السرد، أنّه ما من عمل في هذا المجال إلّا وسبقه تخطيط خاصّ به فيجعل له تصميما قبليا، من خلال المحاكاة لنصوص مشابهة سابقة، أو من ناقدة المخيلة، ثمّ يخرجه في شكله العملي أي المُنْتَج باعتبارا السّرد" **محاكاة لفعل كامل وتام في ذاته، له بدايةو وسط ونهاية**"[1]، وهكذا يتعامل النّقاد مع أيّ نصّ على أنّه يبدأ من نقطة انطلاق، وهي حين يكتمل النّص المنتج لدى صاحبه، ليعرض على جمهور القراء وغيرهم، وهي نقطة النهاية بالنسبة له.

أمّا غريمارس فينظر إلى النّص السّردي، على أنّه لابدّ له من تخطيط مسبق، و هو ضروري لا يتملّص منه أي مُنْتَج سردي، على أنّه "**كلام واقعي موجّه من طرف السّارد إلى القارئ**"[2]، وهذا ما يحيلنا الى الفكرة الشائعة التي مفادها، أنّه مامن منتج سردي إلّا و له تصوّر قبلي، وخطة اولية تساعد في عملية البناء الفني من وضعية الانطلاق، أي من حدث بسيط إلى نهاية حتميّة كيفما كانت (سعيدة أو حزينة او مفتوحة) .

5- عتبات النص الأدبي الرّحلي عند الحسين الورثلاني :

للنّص الرّحلي عتبات، تعد معالم يهتدي بها لتحليل النصوص و تفكيك شفرتها وبنيتها، فالعتبة الأولى هي العنوان، وهو علامة اختصار و اختزال لدلالات لامتناهية للنص المدروس، و هي المؤشر الأوّل الذي يحيله إلى جنسه الأدبي، أمّا المقدّمة، فهي وثيقة الارتباط بالنّص الرّحلي لأنّها انعكاس لخلفياته، وأمّا العبارة الأولى فيه فهي ما يسمى بالمشهد الجذري أوضعية الانطلاق في كلّ عمل سرديّ.

1 بول ريكور، الزّمان و السّرد،ترجمة: فلاح رحيم، مراجعة جورج زيناني، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1 2006، ج2، ص48.

2تزفتان تودوروف، مقولات السّرد الأدبيّ،ترجمة الحسين سحبان و فؤاد صفا، مجلة آفاق، ص42

5-1-دلالة العنوان في الرّحلة و تخطيطه :

5-1-1- دلالة العنوان:

أ-لغة :

يهيئ الفضاء المعجمي طيفا دلاليا شاسعا لمفردة العنوان، (العُنْوَانُ) أي بضم العين وكسرها، و(العُلْوَانُ)، عبر انحدارها النسبي من ثلاث وحدات معجمية (عَنَنَ، عَنَا، عَلَنَ) ويمكن لنا الاقتراب من أسرار هذا الطيف الدلالي باستثمار موسوعة ابن منظور اللغوية[1] حيث ورد في لسان العرب لابن منظور :

" في باب العين و في مادة "عَ نَ نَ" :عَنَّ الشيء يَعِنُّ ويَعُنُّ عَنَنًا وعُنْوَانًا: ظهر أمامك و عَنَ و يَعِنُّ عَنًّا وعُنُونًا ، واعْتَنَّ: اعتراض وعرض، ومنه قول امرئ القيس:

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دُوَارٌ فِي مَلَاءٍ مُذَيَّلِ

وقول الحطيئة ايضا :

فَبَيْنَمَا هُمَا عَنَتْ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةً قَدْ انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْقِ مسْحَلِهَا نَظْمًا

و الاسم: الْعَنَنُ والْعُنَانُ قال الحارث بن حلزة:

عَنَنَا بَاطِلاً وَظُلْمًا كَمَا تَعْ ثُرُ عَنْ حُجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّبَاءُ

وعَنَنْتُ الْكِتَابَ و أَعْنَنْتُهُ لكذا، أي عرضته له وصرفته إليه، وعَنَّ الكتاب يَعِنُهُ عَنًّا و عَنَّنَهُ كعَنْوَنَةِ و عنْوَنْتُهُ و عَلْوَنْتُهُ بمعنى واحد مشتق من المعنى، وقال اللّحياني: عَنَنْتُ الْكِتَابَ تَعْنِينًا إِذَا عَنْوَنْتُهُ، أبدلوا إحدى النونات ياء و سُمي عُنْوانًا لأنّه يَعِنُّ الكتاب من ناحيته و أصله "عَنَانٌ " فلما كثرت النونات قلبت إحداها واوا ، ومن قال علوان الكتاب جعل النون

1-خالد حسين حسين في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصيّة)دار التكوين للتاليف و الترجمة و النشر ط 1 2007 دمشق ,سوريا ,ص 56

لاما، لأنّه أخفّ و أظهر من النون و يقال للرجل الذي يعرض و لا يصرح: قد جعل كذا و كذا عنوانا لحاجته و أنشد :

وَ تَعْرِفُ فِي عُنْوَانِهَا بَعْضِ لَحْنِهَا وَ فِي جَوْفِهَا صَمْعَاءُ تَحْكِي الدَّوَاهِيَا

قال بن بري: العُنْوَانُ الْأَثَرُ قال سوار بن المضرب :

وَ حَاجَةٍ دُون أُخْرَى قَدْ سَنَحْتَ بِهَا جَعَلْتَهَا لِلَّتِي أُخْفِيَتْ عُنْوَانًا

قال : وكلّما استدللت بشئ تظهره على غيره فهو عنوان له كما قال حسان بن ثابث يرثي عثمان (.....) :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطٍ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَ قُرْآنَا

نلحظ أنّ مادّة عَنَنَ إضافة إلى ماسبق تضمّنت معنى التّعريض و الأثر [1].

ب- مادّة "عَنَا"

تضمّنت المعاني التالية: عَنَا النَّبْتُ يَعْنُو إِذَا ظَهَرَ

عَنَاهُ الْأَمْر، يَعْنِيهِ عِنَايَةً و عَنْيًا: أَهَمَّيةً

"عَنَيْتُ فُلَانًا، قَصَدْتُهُ، و عَنَانِي أَمْرُكَ أَيْ قَصَدَنِي .

عَنَيْتُ بالقول كذا: أردت / و مَعْنَى كلّ الكلام مَعْنَاتُهُ و مَعْنَيَتُهُ: مَقْصِدُهُ

أمّا عُنْوَانُ الكتاب مشتق فيما ذكروا من المعنى و فيه لغات: عَنْوَنْتُ و عَنَيْتُ و عَنَنْتُ.

وقال الأخفش :عَنَوْتُ الكتاب و أعَنْتُهُ و أنشد يونس:

- 1-ابو الفضل جمال الدين ابن منظور , لسان العرب ,مادة عنن من باب العين دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، المجلد 7، 1997، ص 315.

فَطِنِ الْكِتَابَ إِذَا أَرَدْتَ جَوَابَهُ وَ أَعِنْ الْكِتَابَ لِكَيْ يُسَرَّ وَ تُكْتَمَا

قال ابنْ سيدة: العُنْوانُ و العِنْوَانُ سمة الكتاب وعَنْوَنَةً و عَنَاهُ، كلاهما وسمه بِالْعُنْوَانِ

وقال أيضا: و الْعُنْيَانُ سمة الكتاب وقد عَنَاهُ و أَعنَاهُ و عَنْوَنْتُ الْكِتَابَ و عَلْوَنْتُهُ.

وقال يعقوب: وسمعت من يقول: وَاطِنْ وَ أَعِنْ الْكِتَابَ أي عَنْوِنْهُ و اخْتِمْهُ [1].

قال ابن سيدة: في جبهته عنوان من كثرة السّجود أي أثر.

وحكاه اللّحياني و أنشد: وَ أَشْمَطَ عُنْوَانٌ بِهِ مِنْ سُجُودٍ كَرْكَبَةُ عَنْزٍ مِنْ عُنُوزِ بَنِي نَصْرٍ [2].

ومعنى كل شيء محنته وحالته التي يصير إليها أمره، وروى الأزهري عن أحمد بن يحيى قوله بأنّ المعنى و التّفسير و التّاويل واحد.

-فمادّة عنا أيضا حملت معنى الظّهور و الأثر زيادة عن القصد و العناية أمّا معنى العنوان فيحافظ على معناه من المادتين عَنَّ و عَنَنَ، وهو مايتعلّق بتسمية الكتاب وبذلك فهو يحمل في طياته اشتراك معاني مادة عَنَنَ وعَنَا مع معاني العُنْوَانُ .

ج- مادّة عَلَنَ: وتظهر مادّة علن كالآتي: "**وعُلْوَانُ الكتاب يجوز أن يكون فعله فعَلْوَنْتُ من العلانية يقال :عَلْوَنْتُ الكتاب اذا عَنْوَنْتُهُ و عُلْوَانُ الكتاب عُنْوَانُهَ** "[3]، وإذا أمعنّا النّظر في البيانات المعجميّة نجدها تعزّز لنا النّوى الدّلالية المحرّكة للنّشاط الدلالي للعنوان ذلك وفق انساق منتظمة فيها دلالات أساسية كما رسّخها محمد فكري الجزار على النحو الآتي:

"الظهور العلانية (عَنَّ -عَلَنَ)

-الإرادة القصد المعنى (عَنَّ-عَنَا)

1-ابو الفضل جمال الدين ابن منظور ,مصدر سابق ص 315

2,المصدر نفسه، ص316

3,المصدر نفسه، ص316

-الأثر السّمة (عَنَّ – عَنَا)[1]

إضافة إلى ما سبق بستفيض محمد فكري الجزار في تعريف العنوان متكئا على المعاني التي وردت معاجم اللغة العربية، فيجعل له تعريفا لغوياّ أقربما يكون للتّعريف الاصطلاحي فيقول" العنوان للكتاب كالاسم للشيء ، به يعرف وبفضله يتداول ، يشار به إليه ، ويدل به عليه ، يحمل وسم كتابه، وفي الوقت نفسه يسمّى العنوان – بإيجاز يناسب البداية– علامة من الكتاب جعلت عليه "[2]، و يبقى العنوان السمة الأساسية لأي مؤلف أو مصنف، و به يعرف.

ب-اصطلاحا:

أمّا اصطلاحا فالعنوان فهو ذلك النّص المختزل في شكل جملة، و الذي ينشئه صاحبه ليدلّ به على عمله المنجز– أي مُؤَلَّفِهِ كبر حجمه أو صغر– وقد يكون العنوان طويلا أو قصيرا، ويمكن أن يرد في كلمة واحدة، أو اسم مركب، أومركب إضافيّ، أو جملة فعليّة تدلّ على الحركة و الدّيناميّة او اسمية تدلّ على الثّبات،إد أنّ " **إمكانات التّراكيب الّتي تقدّمها اللّغة كافة قابلة لتشكيل العنوان دون أي محظورات، فيكون كلمة و مركّبا وصفيّا و مركّبا إضافيّا، كما يكون جملة فعليّة أو اسميّة ز أيضا قد يكون أكثر من جملة**"[3] .

ونظرا لما يشكّله العنوان من أهميّة لدى المؤلّفين و الكتّاب وغيرهم، أصبحوا يعنون كثيرا باختيار عناوين مؤلفاتهم "**إذن إنّ العنوان هو المحور الذي يحدّد هوية النّص، وتدور حوله الدّلالات، وتتعالق به، ويظلّ يشير إلى مقاصد أراد المبدع أن يوجّه أنظار المتلقّين إليها**

1 محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتّصال الأدبي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، د ط القاهرة 1998، ص 20.

2 المرجع نفسه، ص15.

3 نفسه، ص02.

"[1]، أي أنّ العنوان حوصلة موجزة للموضوع المطروق ومتنه، كلّ جزئية فيه تجمع تحت طياتها زخما من الأفكار و المعارف و الأحداث، لذلك يجد أهل الإبداعات المختلفة في تآليفهم صعوبة في اختيار العناوين و إنشائها لأنّه "**ليس ترفا تزيينا، بل تعبير عن استراتيجية كتابة** "[2]، فيتجلّى كنهه حين تلقيه لدى النقّاد أو القرّاء(المتلقّين)، و يتمايز بين متلقّ و آخر، ثمّ يعود ليجتمع بمتنه تحت سقف القراءة الواعيّة، " **إنّ العنوان باعتباره قصدا للمرسل يؤسّس أوّلا: لعلاقة العنوان بخارجه، سواءكان هذا الخارج واقعا اجتماعيّا عاما، أو سيكولوجيا، و ثانيا: لعلاقة العنوان، ليس بالعمل فحسب، بل بمقاصد المرسل من عمله أيضا، و هي مقاصد تتضمّن صورة افتراضيّة للمستقبل، على ضوئها- كاستجابة مفترضة- يتشكّل العنوان لا كلغة، و لكن كخطاب**"[3]، و المقصود بالخطاب هو الفعل اللغويّ الاجتماعي.

خلاصة القول أنّ الأمر البديهيّ المتّفق عليه أنّ العنوان يحتلّ مكانة عظمى في الدّراسات الأدبيّة الحديثةّ، لذا أولاه النّقّاد اهتمامات كبيرة متخصّصة، حتى استقل بدراسات خاصّة تسمى علم " العنونة"، لكونه مفتاح نصّه و واجهته الّتي تكون أوّل ما يقع عليه بصر القارئ، و هي ما يحدث في نفسه التّاثير إيجابا، فيحدث الشّوق في نفسه لمعرفة ما في المتن، أو سلبا فينفر منه، إلى جانب ذلك نجده يحمل القارئ إلى تصنيف الإبداع و تحديد جنسه إن كان أدبيّا أم سياسيّا أم غير ذلك.

و المتأمّل في عنوان الرّحلة الورثيلانية الموسومة بـ"**نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار** " من أوّل وهلة يوحي بأنّه مُؤَلَفُ تاريخ بحت، لكن بالاطّلاع على ما احتواه المتن، يصدمك ذلك الزّخم غير المتوقع من مختلف العلوم و المعارف كالتّوحيد، والفقه و التّفسير، و الحديث، و التّصوّف، و الجغرافيا ... إلى جانب موضوعات أخرى كعلمي

1 سامح الرواشد،منازل الحكاية، دار الشروق للنشر و التوزيع، الأردن، 2006، د ط، ص134.

2 حاتم صكر، كتابة الذّات، دار الشروق، عمان الأردن، 1994، ط1، ص198.

3 محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتّصال الأدبي، مرجع سابق، ص21.

الاجتماع، و التّاريخ الّذي أولاه نصيبا لا يستهان به، دلالة منه على مكانته، وتوجيها إلى ضرورة العناية به، و الاهتمام بكلّ ما بخصّه، لأنّ هذا الكتاب في حد ذاته رحلة حمّلها صاحبها كل ما يمكن أن ينسجم وكنهها، و الدّراسات المختلفة تتعامل مع مثل هذه المؤلّفات "أي الرّحلات " من زوايا مختلفة بحسب الدّراسة المزمع تقديمها، فعلى سبيل المثال الرّحلة الّتي بين أيدينا تعالج من منظورات ثلاثة.

أ-منظور أدبيّ: ويقوم على هذا النّوع من الدّراسات المحقّقون في مجال الأدب و الأدباء و النّقاد، وكلّ من له صله بالأدب من بعيد أو قريب.

ب- منظور تاريخيّ: ويهتم بهذا الجانب المختصّون في التّاريخ، و المؤرّخون

ج-منظور جغرافيّ: وهذا ماتمثّله اهتمامات علماء الجغرافيا ويجدون فيها المعين الصّافي و المصدر الخام لأبحاثهم.

5-1-2- تخطيط العنوان :

كما أسلفنا الذّكر: أنّ للعنوان مكانة عظيمة ورفيعة جدّا سواء للكتب و المصنفات ام للكتب الادبية المختلفة وغيرها، وهذا ما يدفع للحديث عن تخطيطه في الرّحلات، فهو أمر ضروري ومطلوب، ولذلك خضعت الرّحلة في العهد العثمانيّ لنمط معّين من العناوين، و الّتي تعدّ في غالب الأحيان من جنس الرّحلة، وللعنوان مجموعة من المميزات، فتميز بطوله، و وروده على شكل جمل سرديّة، نظرا لكون الرّحلة تطرقّ أبوابا مغلقة موضوعاتها متشعبة، و العنوان يوحي بكلّ ما فيها و هذا ماكان يريده صاحب الرّحلة الورثيلانيّة .

تتنوّع عناوين الرّحلات، وتختلف لاختلاف مضامينها و أغراضها ويمكن تصنيفها كما يلي:

1-عناوين تولي أهمية قصوى لصاحب الرّحلة، كرحلة "محمد الكبير"لابن الهطال.

2-عناوين تعنى بالمكان المرتحل إليه لأهميّته "كرحلة إلى الشرق " للهلالي.

3-عناوين تركّز على نوع الرّحلة وصفاتها "كالرّحلة الشافية "للدّرعي"، فالعنوان هو آخر ما يكتب، و أصعب ما يشكّل لأنّه يمثّل نقطة البداية و الانطلاق الفعليّ في أي دراسة نقديّة أو تحليليّة لمتن النّص الرّحليّ,

فالرّحلة الورثيلانيّة هي مختصر العنوان المطوّل رحلة الحسين الورثيلانيّ، و هذا الاختزال يمثّل العموم و الشموليّة، في حين أنّ "**نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار** "عنوان مطوّل ورد في شكل جملة اسميّة، مبتدأها يتألّف من مضاف إلى مضاف إلى مضاف إليه معطوف على اسم آخر، للدّلالة على كثافة الأحداث وتنوّعها، وزخمها المعرفي، اتّصفت الجملة زيادة على الطّول بالسّجع ، والسّجعة فيه حرف الرّاء.

من خلال ما تمّ عرضه من عناوين وما ورد ذكره من الرّحلات تتجلّى كلمة " رحلة" في عناوينها كسمة بارزة تدل على جنس العمل، أو المنتج الفكري الأدبيّ مع دلالات أخرى في العنوان، تجعل كلّ رحلة متمايزة عن الأخرى، وفي ذلك دلالة على أنّ الرّحالة هنا –الحسين الورثيلاني – ابن بيئته فكرا و ثقافة، وما السّجع في العنوان إلّا من آثار الصّنعة اللّفظيّة الّتي كانت رائجة في عصر الرّحالة –العهد العثماني– ومن شاكله من الرّحالين و الأدباء، أمّا من حيث التّركيب النّحوي فقد وردت كلمة "نزهة" خبرا مبتدؤه محذوف تقديره " هذه نزهة الأنظار" العنوان جملة اسمية؛ ومن خصائص الجملة الاسمية الدّلالة على الثّبات و القوّة، ممّا يسمح بتجلّي هدف الكاتب من هذه الرّحلة وغرضه من تدوينها حيث يقول " **لما تعلّق قلبي بتلك الرّسوم و الآثار، و الرّباع و القفار و الدّيار، و المعاطن و المياه و البساتين و الأرياف و القرى و المزارع و الأمصار و العلماء و الفضلاء و النّجباء و الأدباء من كلّ مكان من الفقهاء و المحدّثين و المفسّرين و الأخيار، (...) أنشات رحلة عظيمة يستعظمها البادي و يستحسنها الشّادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبيّنا فيها بعض الأحكام الغربية و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة وبعض**

الأحكام الشرعيّة مع ما فيها من التّصوف ممّا فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة"[1]،

وهكذا فان عنوان نصّنا (رحلتنا) الموسوم "**بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار**" يتشابك مع عناوين نصوص رحلية أخرى في الكلمة المفتاحية الأولى "نزهة "من أمثلة ذلك :

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق "للإدريسي" المتوفى سنة (493هـ –560هـ)

2–"نزهة الأعين النّواظر في علم الوجوه و النّظائر "لجمال الدين أبو الفرج عبد الرّحمن بن أبي الحسن بن محمد المشهور بابن الجوزي (508هـ–597 هـ).

3–"نزهة الأبصار في محاسن الاشعار "لشهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الأصبحي العنابي (ت 776).

4–"نزهة النّظار في قضاة الأمصار "لأبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري المعروف بابن الملقّن (723هـ–804 هـ).

لا تقلّل المحاكاة في العنونة للنّصوص الرحليّة، من شأن صاحبها ولا تنزل من قدر رحلته، فتلك تسميات كانت مشاعا في العهود الإسلاميّة المتوالية حتّى العهد العثماني، كلمة "نزهة" حافلة بزخم من المعاني الدّالة على التّرحال و السّفر و الاستجمام و الترفيه و التجوّل والتمتّع، وما يرافقها من تعلّق النّفس بالمناظر الجميلة و العجائبيّة الّتي تستهوي النّفس البشريّة و تملأها متعة، رغم أنّ العنوان لا يشمل على كلمة " رحلة" و التي هي المقصود الخفي ولم يصرح به، فيتبادر إلى ذهن القارئ أنّه أمام كتاب تاريخي، يحتكم إلى عامل الزّمن البحت الدّال على التأريخ، وكأنّه بعيد عن كلّ ماهو أدبيّ، وذلك من خلال دلالة "فضل علم التاريخ و الأخبار "

1–الحسين بن محمد الورثيلاني الرّحلة، مصدر سابق، ص 13.

من الواجهة المباشرة – أي العنوان– تتجلّى كلمة "تاريخ" في هذه العتبة إنّما أوردها الرّحالة عن قصد؛ لعلمه بالنّظرة القاصرة الّتي كان ينظر بها الجزائريّون إلى علم التّاريخ آنذاك، وعدّهم إيّاه ضربا من التّرهات فيقول في ذلك " **علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم، فيحسبونه كالاستهزاء، أو انشغالا بما لا يعني، أو من المضحكات المنهي عنها**"[1]

رحلة الحسين الورثيلاني و المعروفة بالرّحلة الورثلانيّة –إنّما هي تسمية جزافية– أطلقها آخرون على الرحلة من باب التّخفيف في العنوان، كما لا يفوتنا في هذا المقام ملاحظة عدم إدراج صاحب الرّحلة اسمه في عنوانها، ولم يكن في وضعه عنوانه بهذا الشكل بدعا من الرّحالة، إنّما ماثلة في ذلك رحالة آخرون أمثال: ابن حمادوش الذي عنون لرحلته بـ "لسان المقال في النّبأ و النّسب و الحسب و الحال "و المعروفة برحلة ابن حمادوش الجزائري، ورحلة ابن عمار التي سماها " نحلة اللبيب في أخبار الرّحلة إلى الحبيب " وكذا رحلة أبي راس الناصري "فتح الإله و منّته في التّحدث بفضل ربي ونعمته" و آخرون غيرهم.

نستنتج ممّا سبق أنّ التسميات المميّزة للرّحلات الجزائريّة في غالب الأحيان، تميل إلى العناوين المسجوعة ذات النّمط السّردي، إنّما ذلك بحكم الخضوع العام للعنونة التراثيّة التي لا يشذّ عنها، إذ كانت العناوين تتميّز بالطول و التّفصيل و يغلب عليها السّجع[2]، و كثيرا ما يكون متكلّفا، وطول العنوان انعكاس لطول نفس الرّحالة في سرد ما صادفه، وما عايشه من أحداث مختلفة، فيوردها لأغراض مختلفة كالتّأريخ أو تصويب عادات خاطئة، أوتبيين الحكم الشرعي فيها، أو مآثر تعزى لأصحابها، فيذكر أسماؤهم وكنياتهم، و أسماء شهرتهم مشيدا بفضلهم ... و غير ذلك.

– 1–الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة، مصدر سابق، ص 697.

– 2ينظر: شعيب خليفي الرحلة في الادب العربي، لتّجنيس، آليات الكتابة، و خطاب المتخيّل، رؤية للتوزيع و النشر ,والقاهرة ،ط1، 2006، ص 287.

5-2- مقدّمة الرّحلة(خطاب التّقديم) :

الاستفتاح الذي يستهل به أي نصّ من النّصوص؛ عادة دأب عليها كثيرون حتّى صار مقصدا أساسيّا لفك شفرة أيّ نصّ و يأتي في المرتبة الثانية بعد العنوان لما له من أهمية و هو ما يسمى لدى الباحثين و النّقاذ بخطاب التّقديم الّذي ينظر اليه "**على أنّه من العتبات النّصيّة المهمّة في توجيه القارئ فضلا عن العنوان و المقدّمة إذ أنّها تضمّ من التّيمات الّتي تكشف عن مقصدية المبدع ونواياه الإيديولوجية التي تمثل إشارات وموجّهات أساسية تقود القارئ إلى فهم اشمل و أدقّ في النّصّ** "[1]، فالعنوان نصّ مختصر للنصّ الكبير(المتن)، فبمجرّد قرائته يستنطق المعنى العام للمُنْتَج.

يلجأ الكتّاب الى حسن صياغة المقدّمة؛ باعتبارها جسر التّواصل الثّاني بعد العنوان مع المرسل إليه أو المتلقّي، مهما كان جنسه أو عمره، أو ثقافته "فيشحنها بوابل من المقاصد و الأهداف التي يرنو إليها من خلال ما حمّلها من زخم معرفيّ وبناء فكري، يرغب في جعل القارئ يتبنّاه بفكره، فيقبل عليه بشغف وغرضه من ذلك "**الجواب على سؤال أو الدّفاع عن فكرة يتوخّى المقدّم من ورائها توجيه المتلقّي إلى قراءة معيّنة باعتقاد معيّن** "[2] و تلك عادة دأب عليها الكتّاب و المؤلّفون، خاصّة لدى القدماء، فالدّارس للتّراث العربيّ القديم؛ شعره ونثره يصطدم لأوّل وهلة في مقدّمة النّصّ الشّعريّ بمطلع القصيدة فينبهر لبراعة الاستهلال، أمّا النّثر فاستفتاحه كان متعارفا عليه، إنّما تعزي درجة تأثيره في المتلقّي إلى مدى بلاغة المرسل في التمهيد لتوجيه خطابه أو رسالته، وتلك سمات اشتركت فيها مختلف الأجناس الأدبيّة من خطابة و رحلة و رسالة و مقامة و غيرها.

1-خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية في (البئر الأول وشارع الأميرات)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001، ص 56.

2- خليل شكري هياس سيرة جبرا الذاتية ،مرجع سابق، ص 56.

أمّا الرّحالة فهي زاده الأولي و وسيلته الأمثل، لجرّ المتلقّي إلى جوّ الرّحلة و السّفر و المغامرة، ويضفي عليها من عناصر التّشويق بغية إغرائه بها، فيعمد إلى "**تقديم بعض المعلومات و الإيضاحات حول الرّحلة و أحيانا بتبريرات معيّنة** "[1]، هنا تكمن براعة المرسل في استقطاب المتلقي و إدخاله في أجواء الرّحلة.

يقوم صاحب الرّحلة ذاته بتدوين الرّحلة في غالب الأحيان، وقد يكلّف به كاتبا لديه، أو يكتبها أحد تلاميذ، أو ناسخ للرّحلة، لذالك أثناء تصفّحنا أيّ رحلة تصادفنا الطّبعة بمقدّمة الرّحّالة، و في أحايين أخرى نحتدم بمقدّمتين، أولاهما للرّحّالة ذاته و أخرى بمثابة الدّيباجة، و هي للنّاسخ أو التّلميذ و المعوّل عليه في الدّراسة هي مقدّمة صاحب الرّحلة، لكونها جزء من الرّحلة، لا يمكن بأيّ حال من الحوال فصله عنها، أمّا مقدّمة النّاسخ فهي بمثابة التعريف بالرحالة و الثناء عليه و مدح خصاله، وصفاته، كما يعمد إلى ذكر ما صحّح فيها من أخطاء أو ما أوضح من مبهم الكلمات،أو ما أضاف أو تصرّف فيه و قد فيه وقد أورد "محمد بن أبي شنب "في المجلّد الأول " **أمّا بعد فالرّحلة الورثيلانيّة الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار للإمام العلّامة و الأستاذ الفهّامة الشّريف النّوراني الحسين بن محمد الورثيلاني نسبة إلى بني ورثيلان قبيلة قرب بجاية، أنفس تصنيف رصّعت جواهره في وطن الجزائر (.....) و لمّا كان هذا التّأليف الحسن التّرصيف مطمح الأنفس (...) أمر سموّ الوالي العام بطبعه لتعميم نفعه** "[2]

تحدّد بنية خطاب التقديم طبيعة الرّحلة، و غايتها المنشودة، أى جانب شخصية الرّحالة ذاته ومكانته العلمية و إمكاناته الأدبية وحالته النفسية، و ملكيته لناصية اللّغة و طاقاته الإنشائية و الإيحائيّة و التّصويريّة ..... وغيرها، عوامل تجمّع في الرّحالة فينشئ نصّه الأدبيّ الرحليّ.

– 1–شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 03.

2–الحسين بن محمد الورثيلاني، الرّحلة، مصدر سابق، ص 03.

6- التّشكّلات السّرديّة في الرّحلة الورثيلانيّة:

عرفت الدّراسات السرديّة انتشارا واسعا في عصرنا الحديث و المعاصر في أوساط النّاقدين و الباحثين، امّا بالنسبة للتّراث العربي فجذور السّرد ضاربة في أعماقه و الشّاهد كليلة و دمنة، ألف ليلة و ليلة، البخلاء، الفرج بعد الشدّة للقاضي التّنوخي، رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، مقامات بديع الزّمان الهمداني ... وغيرها ، تلك النّصوص أضحت المعين الصّافي للدّراسات المختلفة في وقتنا الرّاهن.

يتجلّى السّرد بشكل كبير في "**أدب الرّحلة الذي أسّس للقصّة من فكرة رئيسيّة، و بناء وحبكة، و بيئة زمانيّة و مكانيّة، و شخصيات وبطل للقصّة، علاوة على اللّغة و الأسلوب، فالفكرة موجودة، و مجريات الرّحلة هي بناؤها و حبكتها، و البيئة الزّمانيّة و المكانيّة محدّدة، و الشّخصيات أدّت دورها واقعيّا، و بطلها الرّحّالة نفسه**"[1]، إذن فالفضل الأوّل في التّأسيس للسرديّات يعزى للفنون النثريّة التّراثيّة-الرّحلة على وجه أخصّ- لاحتوائها على العناصر الفنيّة والبنائيّة للسّرد بشكل واضح.

وما السّرد في مفهومه العام إلّا "**الكيفيّة الّتي تروى بها القصّة عن طريق قناة الرّاوي، و المروي له، و ما تخضع له من مؤثّرات بعضها متعلّق بالرّاوي و المروي له و البعض الآخر متعلق بالقصّة ذاتها**"[2] و كل عملية سرد تنطلق من حادثة معيّنة، تشكل نقطة البدء و المرتكز لأنّها، كما تشير بعض الدّراسات إلى أنّ إشكالية سرديّة الرّحلة مردها إلى كون الرّحلة خطابا واقعيا لمجموعة من الأحداث، ممّا يتعارض مع الخطابات السّرديّة الأخرى الّتي يغلب عليها التّخييل و يشكّل كنه سرديّتها مدى تتواتر أحداثها "[3]، و هو عدّة

1عواطف بنت محمّد يوسف نواب، كتب الرّحلات في المغرب الأقصى، دار الملك عبد العزيز، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، 2008، ص21.

2- آمنة يوسف، تقنيات السّرد في النّظريّة و التّطبيق، دار الحوار للنّشر و التّوزيع، سوريا، ط1، 1997، ص 28.

3لطيف زيتوني، السميولوجيا و الأدب، مجلّة عالم الفكر، مج24، ع 03، الكويت، 1998، ص 260.

الرّحالة في نقل تفاصيل تجربته النّي عاشها أثناء قيامه بفعل السّفر" **فهو العمود الرّئيسي للخطاب الرّحلي و لا يمكن أن يستغني عنه، حيث أنّ الرّاوي ينقل إلى المتلقّي أحداثا و أفعالا قام بها، و هذه الأحداث و الأفعال هي انتقال من نقطة انطلاق ثمّ العودة إليها**"[1] ولم يبق السّرد في قوقعة حبيس الأحداث الخياليّة فقط، بل صار يعالج أحداثا وقعت لأشخاص فعلا، أو يمكن تحقّقها في الواقع.

يختصّ كل عصر بأحداثه و مستجدّاته في كلّ مجال، لذلك كان لابدّ للسّرد أن يتطوّر حسب الزّمن و الحياة الاجتماعيّة و الثقافية للبشر، وقد ارتكز عبد الملك مرتاض في تعريفه للسرد على مرجعية لغوية تقليدية فعرّفه على أنّه " **التّتابع الماضي على سيرة واحدة و سرد الحديث و القراءة من هذا المنطلق الاشتقاقي، ثمّ أصبح السّرد يطلق في الأعمال القصصيّة على كلّ ما خالف الحوار، ثم لم يلبث أن تطور مفهموم السرد على أيّامنا هذه في الغرب إلى معنى اصطلاحي أهمّ و أشمل بحيث أصبح يطلق على النّص الحكائي او الرّوائي أو القصصيّ برمّته**"[2]، إلى جانب إشراك القارئ مع الروائي في عملية إنشاء السرد ذاتها، بل عدّه شريكا رئيسيا فيها.

1 عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائري الحديث، مكوّنات السّرد، دار هومة للطباعة و النّشر، الجزائر، د.ط، 2014، ص 218.

2 عبد الملك مرتاض، النّص الأدبيّ من أين و إلى أين؟، محاضرات على طلاب الماجيستر في الأدب العربي للسنة الجامعية 1981/80، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 م. ص 21.

تتمّ عملية التّواصل من خلال النّص الأدبيّ مهما كان جنسه، باعتباره خطابا أو رسالة واجب إبلاغها بوجود عناصر ثلاثة هي: المرسل (الكاتب)، و الرّسالة (الخطاب) و المتلقي(المرسل إليه)، و هذا ما يوضّحه المخطط التالي :

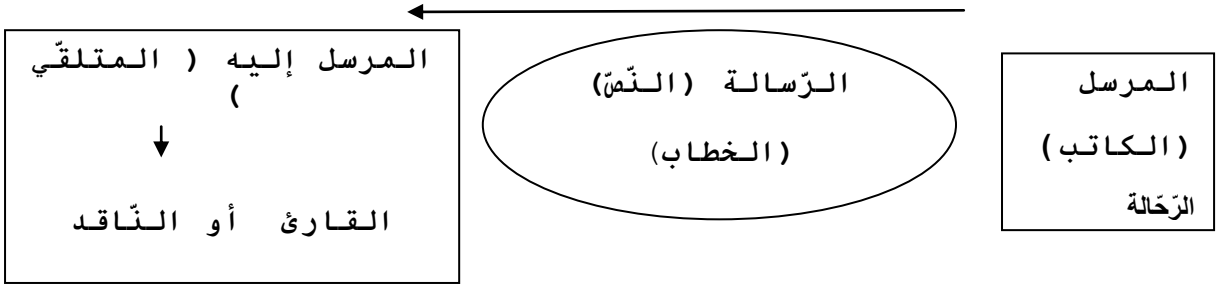

وحتّى تتحقق عمليّة التّواصل بشكل تامّ، لا بدّ من شفرة بين الكاتب (المرسل) و المتلقّي (المرسل إليه) "**فكيفما كان شكل التبليغ فهو يفترض وجود باث أو مستقبل او مرسل و متلق للنّبأ او المعلومة (information) و من أجل ان يفهم المتلقّي الباثّ الذي يرسل النّبأ أو المعلومة، فإن وجود وسيط مشترك بينهما و هو الشفرة (le code) أمر ضروري** "[1]

الأطراف الثّلاثة في عملية التواصل، متكاملة فيما بينهما و لا تتحقّق تلك العمليّة إلّا بوجودها مجتمعة، فلا إبداع (نصّ أدبيّ) دون مبدع (كاتب)، ولا قيمة له إلّا بوجود قارئ (متلق).

أمّا مقصدنا في هذا البحث هو الرّحلة الورثيلانية الموسومة بـ"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار" ، ترتكز على الحدث الدينيّ، على أنّ مرجعيتها دينيّة حسب ما يقتضيه السياق الديني لمادّتها فهيمنة المرجعيّة الدينيّة لها علاقة بالبيئة الّتي نشأ فيها الرّحالة الشيخ الحسين الورثيلاني، و يعمّم الأمر على معظم النّصوص التراثيّة.

1-- علّال سنقوقة، المتخيل و السلطة، نشر رابطة الاختلاف، الجزائر، ط1، ص 21 .

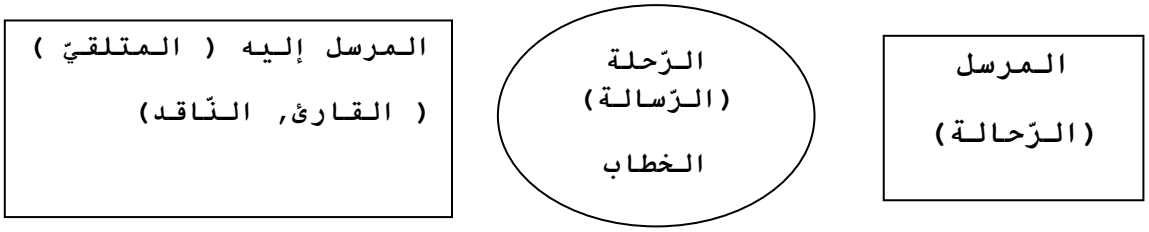

الرّحلة الورثيلانية ترتكز في بناء متنها على مرجعية دينيّة، وذلك لكون صاحبها رجل جمع بين الدّين و الأدب، فاجتمعت له موضوعيّة رجل الدّين وفنيّة الأديب، وهو هنا الرّاوي للعمل الابداعيّ الّذي لا يتمّ إلّا بوجوده "**و لن يتحوّل إلى حقيقة ما دمنا لا نتصوّر حكاية دون سارد**"[1]، و قد وقع لدى بعض الدّارسين و النّقّاد خلط بين الرّاوي الكاتب؛ إذ ليس الكاتب هو الرّاوي دائما.

ونظرا لأهميّة المرسل في عملية التّواصل، ولكونه المعتمد في هذه العمليّة لأنّه منبع الخبر، و راوي الحدث ، وطبيعة نصّنا المقترح للدّراسة و العصر الذي أنتج فيه تفرض علينا التركيز عليه لخصوصية هذا الجنس الأدبيّ ظاي أدب الرّحلة في العهد العثمانيّ فالإبداع (النّص) تراثيّ، و المبدع (الرّحالة) تقليديّ، وسنجد أنفسنا نحتدم بسلطة الذّات المتكلّمة و السّاردة، لكونه هذا الأمر كان سائد آنذاك و المرسل إليه هنا سيكون إمّا مستمعا بفعل المشافهة، و قارئا إذا كان الحدث مكتوبا مدوّنا.

كتب الورثيلانيّ رحلته بأسلوب جعله يكسب القارئ بفعل عنصر التشويق في السرد، ودغدغ مشاعره بالضرب على الوتر الروحيّ باستثارة عواطفه الدّينيّة و الغوص في روحه الإيمانيّة، مهما كان عصر المتلقي .

1 عبد العالي بوطيب، مفهوم الرّؤية السّرديّة في الخطاب الرّوائي بين الائتلاف و الاختلاف، مجلّة فصول، مج 11، االعدد4، 1993، ص68.

شخصيّة الرّحالة هي عمود الأساس في بناء هيكل الرّحلة و انشائها، و حوله تدور أحداث الرّحلة، و هو الذّات المهيمنة من بداية الرّحلة إلى نهايتها أثناء الذهاب و بالمثل حين العودة، لذلك وجب العناية بشخصيّته، خاصّة أنّ الرّحلته من نمط خاص، فالقصد منها زيارة بيت الله الحرام و التبرّك بأرض تشرّفت بموطئ قدمي رسول الله صلى الله عليه و سلم، فشخصيّة الرّحالة هنا تتميّز بالصّبر و التّاقلم مع كلّ طارئ و صعب صادفها في رحلتها، و هذه نماذج تؤكّد هذا الحال:

1-موارد الماء وطبيعتها:

كان طريق الرّحلة محفوفا بالمخاطر المختلفة؛ لعلّ موارد الماء أهمّها على الإطلاق إذ قال الرّحّالة "**نزلنا الحوراء بعد المغرب، و تفرّق النّاس في مياهها و هي على حفائر على ساحل البحر، يحيط بها ديس كثيرة، و فيه ملوحة كثيرة، و القريب العهد بالحفر أجود، وكلّما طال في الإكثار منها يورث إسهالا مفرطا** "[1]، فشكّلت عاملا رئيسا من العوامل المعادية في مسار الرّحلة.

2-حالة المناخ:

تكاثفت العوامل المعاديّة فعرقلت مسار الرّحلة، فإلى جانب ندرة المياه، تسبّب المناخ في تصعيد تلك العراقيل "**و لمّا التقينا بالرّكب المصريّ بالعقبة، أخبرونا عن حالهم مع البرد وأنّه قتل منهم اثنين ليلة العقبة، و قرب عجرود ,ما ما ينيف على الخمسين نفسا، و ذكرواأنّ الإنسان يكون في حمل الخشب، فيوجد ميتا، و على الدّابة كذالك، و حدّثنا بعض حجّاج القدس التقوا مع الرّكب المصريّ في سطح العقبة ة الثلج و المطر ما يقضي منه العجب، مكثوا يومين و ليلتين ما أوقدوا نارا و لا قدروا عليها، و لا أكلوا من كثرة المطر و عاينوا الموت الأحمر** "[2]، رغم معاناة الحجّاج في مثل تلك الظّروف القاسيّة إلّا أنّ

- 1- الحسين بن محمد الورثيلاني، الرّحلة الورثيلانية، مصدر سابق، ص 347.

2- المصدر نفسه، ص 336.

الرغبة الملحّة في زيارة البقاع المقدّسة و مجاورة قبر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، عملت على تقوية عزيمتهم، و ساعدتهم على الصمود.

3-قطّاع الطّرق و اللّصوص:

كان يسمع صراخ من كانوا في آخر في كثير الرّكب من الأحيان، بفعل سطو اللّصوص عليهم، و أحيانا احتجازهم بغية ابترازهم "**فلا ترى أحدا تاخر إلّا أخد و سلب، أوهلك, فالحمد لله علينا نتاخّر نحن معشر الإخوان عن الرّكب كثيرا، و اللّصوص في آثارنا فلا نرى منهم (...) الأعراب الّذين صدّوا الحجّاج في العام الذي قبلنا ... لأنّهم أخدوا ركب الحجّاج الجزائريّ و الطربلسي بل اخذوا منهم كيت و كيت من الدّراهم، و بذلك خلّوا سبيلهم، و لو لا عطاؤهم و إقامة أمير مصر ما جاوزوا العقبة و لا مرّوا عليها** "[1]

4-الموت و العطش الشّديد بسبب الحرارة :

تعرّض الحجّاج لمواقف كثيرة، و عوامل شديدة الوطأة أهلكت بعضهم، و أمرضت آخرين، لكنهم تحدّوها بالصّبر، و واصلوا مسيرتهم "**ثمّ سرنا كذلك إلى أن دخلنا وادي النّار، و هذا الوادي قد وافق فيه الاسم المسمّى إذ لا يخلو من شدّة تقع فيه للحجّاج، من عطش و موت و مرض، و هو واد كبير قد انطبق علية الجبلان من النبط إلى الخضيرة، فينعكس الربح إلى الوراء، و تحدث الحرارة و السّموم (بفتح السين) في الهواء و ينشأ الهلاك منه ... فإذا قبح الهواء مع الحرارة, مات من النّاس ألوف مؤلّفة في أسرع مدّة فيأخد الرّجل الماء، فلايضعه من يده حتّى يموت، و قد صار ذلك في رجوعنا**"[2].

يورد الرّحالة شخصيات ثانوية عديدة، و هي شخصيات معروفة و فاعلة، ذكرها كما هي بأسمائها وواقعيّتها، لا اختيار له في ذلك و لا قصد كما هو الحال في الرواية التقليديّة

1- المصدر نفسه، ص 332 .

2- المصدرنفسه، ص 350.

"و لمّا كانت الشّخصيّة من منظور النّقد الرّوائيّ التّقليدي، و الكتابة الرّوائيّة التّقليديّة معا؛ هي كائنا حيا مسجّلا في الحالة المدنيّة: يولد؛ فيعيش فيموت؛ فقد كان منتظرا أن يربط الحدث بالشخصيّةعلى شيء من هذا الأساس. أي من جنس المجتمع... ممّا أهّل الشّخصيّة أن تكون صورة دقيقة، أو قريبة من الدقّة، لحقيقة المجتمع و واقعه[1]

إذن فوجود الشخصيات في الرّحلة امر ضروريّ و بديهيّ، و هي غير تلك الواردة في الرواية ,لأنّ الروائيّ يختارها حسب الضّرورة الفنيّة، و الغاية المرجوّة من وجودها، في حين هي واقعيّة في الرّحلة، والرّحالة إنّما يركّز على ذكر مكانتها الاجتماعية و طبعا و مزاياها و عيوبها ،أمّا شخصية الرّحالة فهي الشخصيّة المركزيّة في الرّحلة، فهو المنتج للاحداث الدّائرة حوله باعتبار النّاقل للأخبار والأقوال، فالذّات الحاضرة في الرّحلة هي الذّات السّاردة، أي ذات الرّحالة نفسه، و حضور سلطة "الأنا" و باقي الشخصيات إنّما تدور حولها الأحداث المكمّلة.

يتحرّى كلّ رحّالة في رحلته الطريقة المثلى لفرض سلطته، فيعمد أحيانا الى توظيف ضمير المفرد المتكلّم " الأنا" أو يتحدّث بصيغة الجمع، و يتجلّى ذلك في الرّحلة من بدايتها الى نهايتها، "**و لهذا تسرد الرّحلات بضمير المتكلّم، الّذي هو ضمير الحضور، فصاحبه يجب أن يكون حاضرا وقت النطق به، و من هنا كان الوجود الفعليّللشّخصية على مدى النّصّ، و يتجلّى ضمير المتكلّم كبؤرة مركزيّة للقول والفعل و الموافق باعتبارها فاعلا و مفعولا، راحلا و مستمعا للعلماء و منشدا للأشعار و معلقا على ما سمع أو راي اوقرأ، باحثا و محقّقا، إنّه يفعل ذلك ليضفي الصّفات المكتسبة على الذّات، لترشيحها تدريجيّا لتكون شخصية عالمة محقّقة باحثة**"[2]، إذ أنّ الأنا السّاردة(الرّحّالة) عاشت و عايشت

1- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت، 1998 ص84.

- 2- إسماعيل زردومي، فنّ الرّحلة في الأدب المغربي القديم، نسخة مخطوطة أطروحة دكتواره، إشراف عبد الله العشي، جامعة باتنة ،2005، ص 131.

الأحداث(المرويّة) واقعا ملموسا في الماضي، أمّا أثناء قصّها من خلال عملية الاستحضار سردا لغويّا، بالموازاة مع تخييل ذاكرة المتلقّي.

الرّحلة بوصفها جنسا أدبيّا يعتمد على القصّ و الحكي و السّرد كغيره من الفنون السرديّة، و القائم على ذلك فيها هو الرّحالة ذاته لكونه الشخصيّة المحوريّة أي شخصية البطل (الرّحالة)، باسمه المعروف به، أو كنيته الذّائعة الصّيت، وهو في معظم الأحيان شخصيّة مرموقة بين أفراد المجتمع، ذو علم و ثقافة واسعة، عالم، أو فقيه، أو إمام أو مؤرّخ أو أديب ...

6-1-شخصيات الرّحلة:

6-1-1- الذّات السّاردة (الرّحالة):

البطل في الرّحلة هو الرّحالة ذاته (الشخصيّة المركزيّة)، الذي أسّس لبنية السّفر القائمة على فعل الانتقال و الحركة، ومن خلال سرده أحداثها بإسهاب دون أن يهمل شاردة أو واردة، من منطلق أنّه صاحب الرّحلة، و المتحكّم في زمامها منذ انطلاقتها إلى حين العودة إلي الديّار،"**لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من "الأنا"المحرّكة لكل هذه المشاهدات و المرويات و التّنويع التّخييلات و الأحلام**"[1]، فالورثيلانيّ هنا هو الشخصيّة المركزيّة، فالرّحلة رحلته، وهو شاهد عيان على أحداثها، فقد عاشها وعايشها، حاضر في محطّاتها ومطبّاتها.

يصف حاله وهو يفارق الأهل و الأحباب و الأصحاب إعلانا عن بداية الرّحلة "**و انفصلنا ووقع البكاء و الصّراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم مادمنا معهم، لايقع بهم إلّا الخير و البركة كلّ ذا بعد التّحيّل على المنع من السّفر أصلا، فلّما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلّا الصّبر و التّسليم بالله له في حكمه و إبرامه و قدراته و إرادته و علمه** "[2]

1شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربي، رؤية للنشر و التّوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006، ص43.

2- الحسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 104

يبدي الورثيلاني فخره، و اعتزازه بمقامه بين الناس، و الرّفعة الّتى كان يحظى بها بينهم، مبينا أنّها بقيت محفوظة، لم تؤثّر فيها محن السّفر للحجّ، و كثيرا ما كان يحرص على الصّورة الّتي تنزله منزلته في بيئته و بين معارفه و ذوية "**فلما سمعوا بنا لقيّنا من بها من العامّة و الخاصّة فرحين مسرورين ببنادقهم و غير ذلك من أنواع الفرح فكلّ يعزم علينا، و يرغب في المبيت عنده، إلى أن وصلوا إلى الفتنه بسبب ذلك** "[1]

ويروي الرّحالة، أنّه أثناء عودتهم من الحجّ و ولوحهم حدود الوطن، تفاجأوا بضخامة الاحتفالات الّتي أقيمت احتفاء بعودته و أصحابه، فما من منطقة عبروها، إلّا اشرأبت الأعناق للقائهم ورؤياهم و التبّرك بهم، حتّى أنّ العامّة اختصموا في شأن استضافتهم فيصفهم بقوله "**فوجدنا أكثر الأحباب منتظرين من وطننا، و وطن بني يعلى، إذ فرحوا بقدومنا و سرّوا برجوعنا العامّة و الخاصّة أحياهم الله على السنّة و أماتهم على السّنّة ....فامتلا الوعر و السّهل و الغيضة و غيرها بالنّاس الّذين رغبوا في رؤيتنا و اغتنام البركة منّا من كلّ فجّ عميق لتشهد أحوالنا و تقتبس أنوار أصحابنا**"[2]

كان ذلك عند من ذاعت شهرته بينهم و بلغهم صيته، أمّا بين أهله و ذويه و أقاربه، فمشاعر اللّقاء بعد الفراق بها لوعة وشوق، وذلك ما كان فعلا، فقد كان الاحتفاء عظيما وطالت مدّته وتوالت الزيّارات و تكاثفت ردحا من الزّمن، وهو يقول في ذلك "**ثم إنّه بعد ذلك تأتينا الوفود من كلّ وطن تارة ألفا و تارة أكثر من ذلك نحو الألف و أربعمائه ثمّ كذلك على حسب القلّة و الكثرة إلى أن انقطعوا في مدّة طويلة نحو الشّهرين** "[3]

وظّف الشّيخ الحسين الوريثلاني في كثير من تعابيره ضمير الجمع المتكلم، الدّال على مشاعر الانتماء لمجتمعة الّذي يعيش فيه، و ما هو إلّا انعكاس له وصورة عنه فالمرء ابن

1- المصدر نفسه ، ص، 806.

2- المصدر نفسه، ص 809-810.

3- نفسه، ص 813.

بيئته، المتكلّم بلسان حالها، فالرّحالة هنا ينظر إلى نفسه على أنّه جزء من الرّكب الّذي سار فيه من معارفه، راويا أحداثا وقعت، فيعبر عنها بكلمات مثل "احوالنا ""اصحابنا"...

نجد أنّ البطل (الرّحالة) في استراتيجية الرّحلة، خطّط مسبقا، ليجعل من المتلقي شريكا فيها بإفادته و تقديم الخدمات له، و الشّاهد قوله "**مبيّنا بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة، و بعض الأحكام الشرعيّة مع ما فيها من التّصوف ممّا فتح به عليّ أو منقولا من الكتب المعتبرة ممّا يناسب المحلّ، جعله الله خالصا لوجهه، وعملا متقبّلا بين يديه و حصنا حصينا من كل بلاء دينا و دنيا** "[1]

كما وظّف أفعالا بصيغة الجمع "انطلقنا، دخلنا، خرجنا، بدأنا، سمعنا ... فالجمل الفعليّة تدلّ على الحركة و الدّيناميّة، و هذا دليل فطنة و وعي من الرّحالة، كما نجده في كثير من المواضع قد تقمّص شخصية الرّجل المصلح، بل رجل الدّين المصلح، المتفطّن لما يحدث حوله، الغيور على دينه، لاحظ الانحراف عن المسار الصحيح، وحاول باجتهاد منه تصوبية، و انتقاده بجرأة و حزم.

تمعّض البطل المصلح الاجتماعي في كثير من المواقف، من بعض الظواهر الاجتماعية الّتي خرجت عن مسار شرع دين الله القويم في بعض المدن و القرى و العروش و القبائل، و البوادي، فرغم استحسانه استقبال أهل "زمّورة" إلّا أنّه ينتقد أمورا جمّة عاينها، فيقول عنها " **كثيرة السّمن واللّحم و القمح، و المياه الباردة، و الدّيار الواسعة، و الثّياب الحسنة الرّهيفة من الصّوف و الكتّان، وكلّ ذلك مناقض للخشية أوصاف العبوديّة، و إنّما هو مثير للشّهوات و المخالفات من إظهار المعاصي ,.. وقد اشتدّت القسوة على قلوبهم، وهي أشد قسوة من الحجارة، و قد ألفوا ذلك من آبائهم و أجدادهم، قبّح الله رأيهم، فان أنكرت عليهم أو تغيرت بسببهم ربما عادوك، ورموك بما لا يليق بك ... حاصلة أهل هذه البلدة متّصفون بالبدع و الشيعة، و الاحوال الخسيسة من الرذائل المنهي عمها**

1- نفسه ، ص 13.

شرعا، وزادوا على ذلك أنّهم لاتأخذهم الأحكام، إذ يأكلون التّراث أكلا لمّا ويحبّون المال حبّا جمّا .....حاصله أوصافهم و طبائعهم، خارجة عن طرق أهل الإصلاح"[1]

ينمّ كلام المرء عن مكنونات داخلية، وذلك ما يوحي به كلام الشيخ الورثيلاني فيما سبق إيراده، و هو الّذي لبس ثوب المصلح الديني، الذي رأى صورة الإسلام مشوّهة في مجتمع يدّعي التّديّن بدين الإسلام –حسب رأيه– لكنّه وجده على شاكلة بعيدة عنه، رغم أنّهم في العصر نفسة، وتسري عليهم الظّروف نفسها، فوقف موقف المنتقد المستنكر لما يحدث، ناظرا إليهم على أنّهم حادوا عن جادّة الصّواب، فصنّفهم خارج دائرة المسلمين، الّذين يعتبر الرّحالة واحدا منهم وتهميشا لهم، تحدّث عنهم بصيغة الغائب، منصّبا نفسه مرشدا دينيّا، عمل على التنبيه إلى ما رآه يخالف الشّرع، و تلك أولى خطوات الإصلاح و التأديب.

و نظرا لكون بطل رحلتنا عالم دين وفقية، يتأثّر لما يحدث لأبناء مجتمعه الذين صاروا بعيدين عن العقيدة الصّحيحة في مناطق كثيرة زارها، رأى فيهم جهلا بأمور الدّين، غير مبالين بحدود الشّرع، فيذكر أثناء رحلته في الذّهاب إلى بلاد الحجاز للحجّ، عند حلوله بمنطقة بضواحي مدينة بسكرة 'ببلدة "طولقة" بالتحديد "**ولمّا دخلت مسجدها لم أجد قارئا و لا مدرسا، سوى رجل واحد متّكئ يقرأ لوحة و هو ملقى أمامه على غير أدب و لا استقامة و أخبرني بعض أصحابنا أنّه وجد رجلا واحدا يسرد البخاري وحده، و وقف عنده و قال له رح يا حاج و وجد آخر كذلك، و لعمري أنّ هذا أدلّ دليل على الخراب و أقرب الأّسباب له بدليل ماروي عن النبي صلى الله عليه و سلم أنّه قال "إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بماله فيهم ... ولقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته ... ولقد وددنا عمارتها بالعلم و العمل و رفع الحرج عنها، برفع ذوي الزيغ و العلل وتدريس العلم و ذكر الله آناء الليل و أطراف النّهار**"[2]

1– الحسين بن محمد الورثيلاني، الرّحلة، مصدر سابق، ص808.

– 2– الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق، ص 121.

التّمظهرات الدّينيّة لشخصيّة البطل (الرّحالة)، تبدو جليّة في المقتطف السابّق من الرحلة ,ففي جميع المواقف، وكلّ مراحل الرّحلة، وفي عامّة محطّاتها، تجلّت روح العقيدة الإسلاميّة بقوّة سلطانها على شخصيّة الرّحّالة، فانتقد كلّ الصوّر السلبيّة الّتي ظهرت بها منطقة "زمّورة"، ومناطق مختلفة من ضواحي مدينة بسكرة، قد جعلها بطل الرّحلة متواترة معطوفة على بعضها دلالة على تفشّيها بين أفراد تلك المجتمعات .

6-2-العوامل المساعدة في الرّحلة :

ما من أحداث واقعية تحدث أو خياليّة تنسج، إلّا و يتواجد أثناء عملية السّرد عوامل مساعدة لشخصية البطل، و أخرى معادية، كان الرّكب الّذي رافق بطل الرّحلة الورثيلانيّة (الرّحّالة) في رحلته للحج عونا له، إلى جانب شخصيات اجتمع بها أثناء رحلته، كان بينه وبينها اتّفاق دينيّ و فكري، خاصّة الّذين لا زموه منذ انطلاق الرحلة من بلدته قاصدا بلاد الحجاز، إلى حين انتهاء الرّحلة بالعودة الى الديّار، وهم الّذين شاركوه آلام فراق الأهل، ومكابدة مشاقّ السّفر، و مصاعب الرّحلة، مع شخصيات صادفها في طريق رحلته، فوجد الأنس في قربها، و الألفة في الاجتماع بها، فكان منهم رجال الدّين و التّصوف، الذين يستسهل بوجودهم الصعاب، و تذلّل المشاقّ " **في الصّعبة إلّا كالعرائس تتلألأ وجوههم نورا وتنبسط آثار محبة الله في طلعة أحدهم** "[1]، و حدث ذلك ذهابا و إيّابا.

6-3- العوامل المعادية :

وأمّا المعاديّة الّتي صعّبت على بطل رحلتنا دروبها، وعملت على التّثبيط من عزمه عديدة، منها ماهو طبيعي كالحرارة الشديدة، و الزّوابع الرمليّة و غيرها، و عوائق بشريّة لقطّاع الطّرق و اللّصوص "**تضمنت الرّحلة العديد من المخاطر منها الظروف الطبيعية مثل الحرّ و الزّوابع الرمليّة ... يضاف إلى ذلك بعض العصابات من قطّاع الطّرق التي تعمل خارج ولاية الحاكم، فتترصّد مواكب الحجّ وتأتي على أمتعتها عنوة و بقوّة السّلاح و أيضا**

1- المصدر نفسه، ص 92.

بعض النّصابين الّذين يستغلّون حسن نوايا الحجّاج، فيسلبون مالهم من مال بالغدر و الخديعة"[1]، فكان أذى قطّاع الطّرق أقوى المعوّقات و أشدّها على الحجّاج أثناء رحلتي الذهاب و العودة.

6-3-1- استراتيجية مسار الرحلة :

يمكن اختصار الرّحلة حسب المراحل الثّلاث التاليّة :

6-3-2- تحضيرات ما قبل الرحلة:

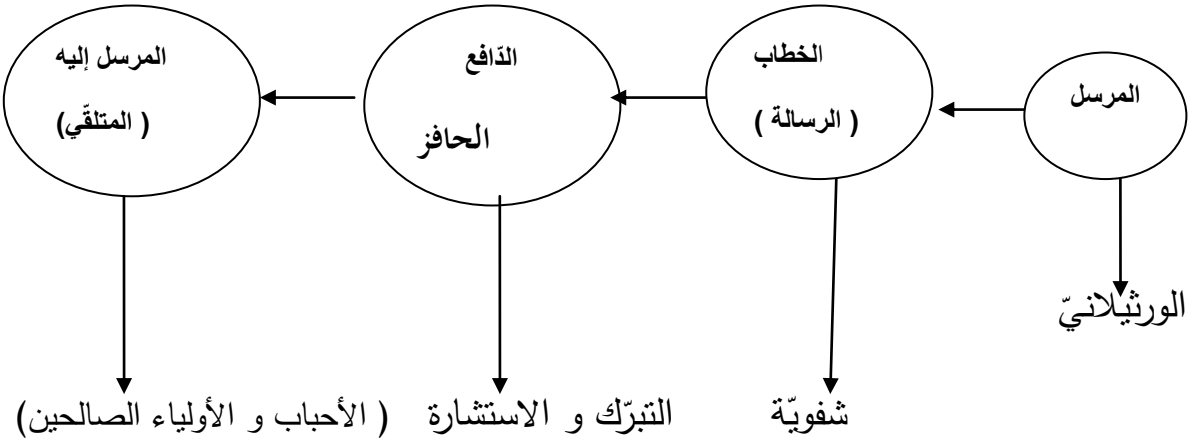

6-3-3-رحلة الذهاب :

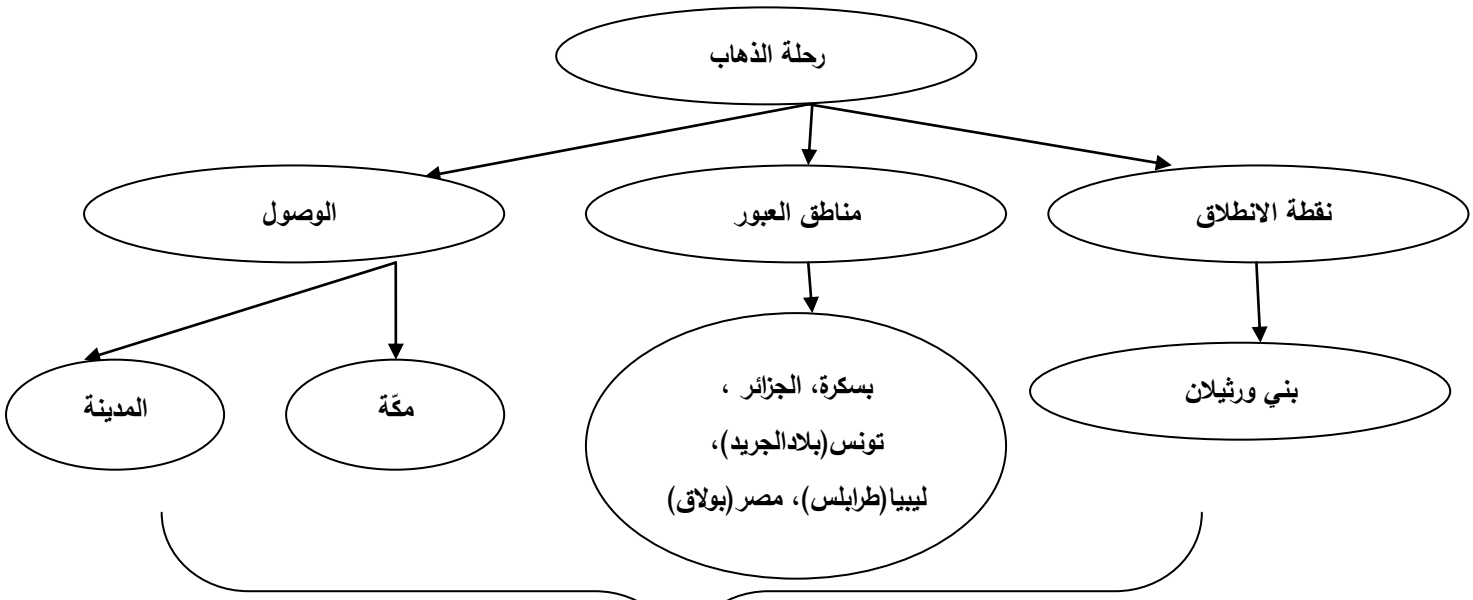

1- عبد الرحمن عزّي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية ، مؤسّسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع الأبيار، الجزائر، دط، 2011، ص55.

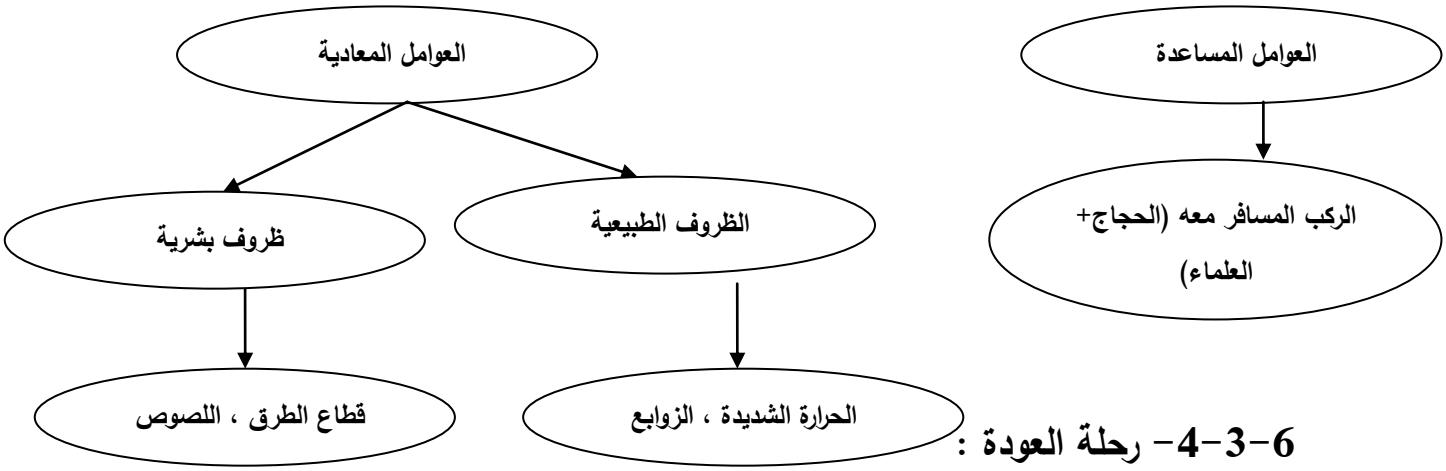

6-3-4- رحلة العودة :

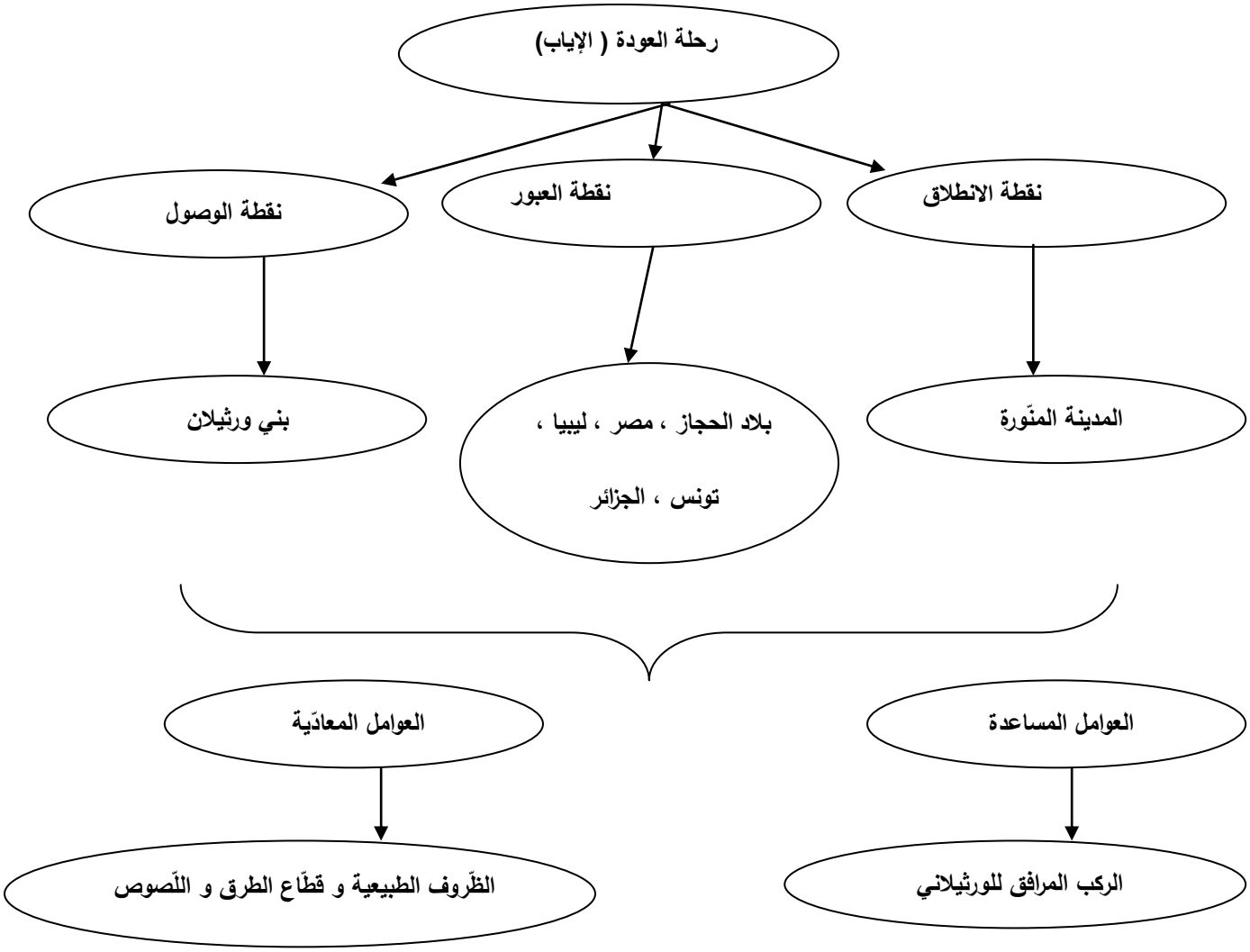

الملاحظ : أنّ مسار رحلة العودة هو نفسه مسار الذهاب معكوسا، بعد أداء الورثيلاني ورفقته مناسك فريضة الحج، و زيارة قبر المصطفى عليه الصّلاة و السّلام دبّ في نفوسهم الحنين للعودة الى الديار، بعد فراق طويل، و صارت نقطة نهاية رحلة الذهاب هي نفسها نقطة بداية رحلة الإيّاب.

6-3-5-علاقة شخصية البطل بالشّخصيات الثانويّة :

ما من رحلة إلّا تعدّدت شخصيّاتها، فوجود الشخصية المركزية (البطل)أي الرّحّالة يقابله وجود شخصيات ثانوية، لأنّ "**تميّز الشخصيّة المركزيّة، يحيل على وجود الشخصيّة الثانويّة**"[1]

تعدّ شخصية البطل في الرّحلة، وهي الشخصيّة المحوريّة الّتي تدور في فلكها الشخصيات الثانوية، و الّتي ما هي إلّا شخصيات من الواقع التي تمثل"الآخر" لذلك أورد الرّحالة أسماءهم، و أحيانا يلمّح إليها تلميحا، وذلك حسب ما يقتضيه الحال و تتطلّبه الحالة.

6-3-6- صورة الشخصية الثّانويّة في الرّحلة الورثيلانيّة:

يحمل النّصّ الرّحليّ بين ثناياه رؤية، و خطابا يترجمان آراء الأنا الكامنة في ذاته بمعزل عن الآخر، يؤوّل من خلالها العالم و التّاريخ و الذّات.

يتمظهر الآخر في مخيّلة الرّاوي (الرّحّالة) من خلال السّماع، أو المحكي، أو المقروء من كتب التّالريخ و الجغرافيا، أو من خلال المعاينة إن حدثت بشكل مباشر، فتثبت الصّورة أو تنفيها من خلال المقارنة بالأشباه، بالاحتكام إلى الاعتقاد أو الموروث الدّينيّ و الأدبيّ و الفكريّ، و ترد الصّورة في شكلين مباشر و غير مباشر.

1- عبد الرحيم مؤدن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنشر و التوزيع ،أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط ، 1 2006، ص 234.

اهتمّ كثير من النّقّاد و الباحثين في الأدب المقارن بالصّورة (Imagologie)، رغم إشكالية المنهج الّذي يمكن للباحث اعتماده، فالصّورة ليست التقاطا فتوغرافيّا، بقدر ما هي رؤية اتجاه الآخر في الحقيقة.

يعزى الفضل في الاهتمام بعلم الصّورة إلى المدرسة الفرنسيّة المقارنة القائمة على مبدأ التّاريخ المشترك للثّقافتين المقارن بينهما، و من الدّارسين المتوغّلين في علم الصّورة جان ماري كاريه(Jean Marie Caree)، فرنسوا ماريو غويار(F.M.Guard)، و غيرهما، قاموا بدراسات تحليليّة للصّورة الّتي تمثّل تاريخ و ثقافة و أفكار شعبين مختلفين لغة و ثقافة، أي دراسة ذات صلة وطيدة بالأنثروبولوجيا، على عدّ علم الصّورة منهج علمي مرتبط بالخيال الاجتماعيّ" **كمعطى موضوعي يتجسّد عبر المتخيّل و يكتسب دلالات جديدة**"[1]، أي الصّورة المسبقة الّتي ترسمها الذّاكرة قبل المعاينة عن قرب، و بهذا تمكّن من" **مقاربة المتخيّل من حيث هو دلالات الواقع لأنّه مرتبط به عضويّا**"[2]، فمقارنة الأنا بالآخر، هي وصف الآخر بالموجه الآخر المكمّل للأنا الّذي يعكس صورة الآخر تاريخيّا، اجتماعيّا، و أدبيّا، في الواقع انطلاقا من صورة متخيّل سابقة.

6-3-7- صورة العلماء و الأولياء الصّالحين:

حثّ الإسلام على طلب العلم و تحصيلة، ورفع من شأن العلم و العلماء، فمدحهم النّبي صلى الله عليه وسلم، بأنّهم ورثة الأنبياء فورثوا عنهم العلم و الأدب و الخلق الرفيع، ولذلك علا شأنهم وارتفع قدرهم لدى العامّ و الخاصّ ممّن يعرفون للعلم قدره ويحفظون له مكانته .

ولا يعرف للعلم و العلماء قدرهم إلّا علماء أمثالهم، و الوريثلاني عالم جليل في زمانه، وفي تدوينه لرحلته احتفى كثيرا بذكر العلم و الصّالحين، وأولاهم من العناية ما يليق بهم، فأورد أسماء الفقهاء وعلماء الدّين، و الأولياء الصّالحين و المفسّرين و المحدّثين

1 حسين خمري، فضاء المتخيّل في الرّواية، مقاربات في الرّواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002م، ص41.
2 المصدر السّابق، نفسه، ص41.

و الرّحّالين على اعتبار أنّ المقصود بالعلماء – في عهدهم– علماء الدّين لا الدّنيا، فوصفهم ومدح خصالهم، بغية أن يعرّف بهم، ويحفظ سيرتهم لدى السامعين أو المرسل إليهم تدوينا(المتلقّين)، و الشّاهد قوله "**إنّما نذكر من ذكر الإخوان و المحبّين وبيان أوصافهم ليتحقّق السّامع بأحوالهم ويتّصف بأوصافهم و الأقلّ أن تحضر عنده بركتهم**"[1]

و أسهب في ذكر ما يتعلّق بمهنهم، وحرفهم، و كلّ من له بهم علاقة كشيوخهم و تلاميذهم و مريديهم، و ما ذكر عالم من العلماء إلّا أردفه إلى كلمة "سيدي" دلالة على علوّ مكانته ورفعتها، من أمثلة ذلك قوله "**سيدي يحي من الحسين**"**وسيدي ناصر الخلفي** "**كان فقيها حافظا للانقال وهو من قرننا هذا**"[2]، وفي هذا التّعبير دلالة تواضع منه أمام العلم و العلماء، علما أنّه كان بما يزينهم بصفاتهم التي اشتهروا بها و اختصوا فوصف بعضهم بالصلاح الكامل، و آخرون بالعلماء الربانيين، وغيرهم بالمحبّين للنبيّ المصطفى صلّى الله علية و سلم.

كلّ تلك الشخصيات التي أطرى عليها، ومدح خصالها إنّما هي ممّن تنتمي إلى دائرة الدّين الإسلاميّ، العلاقات التّي تجمعها قائمة على عملتي التّأثر و التّأثير بفعل التّواصل و التلقي و التّفاعل بين الرّحالة ومجموعة المرافقين، وحتّى ائتلفت أناه مع الآخر (الرحالة و ركب و العلماء)، خاصّة فرقة المتصوّفة فيشيد بفضلهم، ويمدح مناقبهم، وفي ذلك دلالة على سيره على نهجهم، وقد أثنى على أحدهم وهو ممّن عاصروه بقوله "**صاحب الورع و العلم الصحيح، و الزهد والدّواء لإخوانه ممّن هو بالحبّ جريح، العالم في كل المذاهب، الذي طاعت وانقادت له المواهب، سيدي أحمد المعزي**"[3]

– 1– الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق ، ص 178.

2– المصدر نفسه ، ص 95.

3– الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق، ص 177 .

ضمّت الرّحلة الورثيلانيّة بين ثناياها عديد الشخصيات الثانوية، ويعبر عنها أثناء عملية التواصل بـ"الآخر "ويقصد به الآخر العربيّ و الآخر التركيّ و الآخر الصديق ، و الآخر العدوّ، كلّ حسب موقفه في المجتمع وموقعه من شخصية البطل (الرحالة).

6-3-8- صورة الحاكم العثماني:

تميّز الورثيلانيّ بخصال عديدة، خاصّة الصّدق و الجرأة، فكان يبدي رأيه علنا و بجرأة كبيرة، و لا يخشى أحدا، فيظهر صورة الأتراك بالظّالمين الّذين عثوا في الأرض فسادا، و أشاعوا الجهل و الفقر، خاصّة عند ما مروره بمنطقة زمّورة "**اجتمع عليها أمران ظلم الأتراك و ظلم الأعراب (....) حتى صارت في قلّة حيث انسلخت عن أوصاف الأمصار، بل عن أوصاف المدن الصغار (....) غير أنّ الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما يأكلون منها وينتفعون أتمّ الانتفاع (.....) بل لما طغوا و تمرّدوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا هذا و العياذ بالله سبب اندراس العلم و أهله** "[1]، ففي نسقه الظّاهر حاكم مسلم ظالم، أمّا في مضمره فدخيل طغى و استباح لنفسه ما ليس له.

6-3-9- صورة الصّديق أورفيق السّفر :

و الصّديق بالنسبة للورثيلانيّ هو الرّكب بالإضافة إلي الشخصيات الّتى التقاها أثناء الرحلة ذهابا و إيابا، فأثّرت فيه إيجابا بفعل حسن التعامل، فأعانته أو قدّمت له يد المساعدة، أو احتفت بمقدمه عليها، كالعلماء الرّبانيين و الفقهاء و التّجار و أصحاب الحرف و الفلّاحين، وعامّة النّاس من الّذين حدث اللّقاء بينهم صدفة، فيقول عنهم "**ولمّا ودّعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر** "[2]، فكان ذلك الصّديق عونا له في سفره، و قد ألبسه صورة العامل المساعد.

- 1- الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السّابق، ص 146.

2- المصدر نفسه ،ص 43

6-3-10- صورة العدوّ(معرقلات الرّحلة) :

و المقصود بالعدوّ، كل من كان سببا قي عرقلة مسار الرّحلة، أمثال قطّاع الطّرق المسّلحين الّذين كانوا يسطون على القوافل و المارّة، خاصّة قوافل الحجيج، فيسطون على ممتلكاتهم، ويسلبون أموالهم، ويغتصبون كل مالديهم من زاد ومتاع، ولا وجود لصورة الكافر، بحكم أنّ الرّحلة بدأت و انتهت في بلاد الإسلام، فأحداثها تواترت استطرادا حسب التّسلسل الزّمنيّ و المكانيّ لها، كانت الانطلاقة من مدينة بسكرة (الجزائر) مرورا بمدينة قابس (تونس) عبر بلاد الجريد، ثمّ طربلس (ليبيا)، بولاق (مصر)، وصولا إلى الحرمي.

خاتمة :

- شخصية الورثيلاني هي الشخصية المركزيّة التي استطاعت أن تفرض سلطتها على الرحلة منذ بدايتها الى غاية نهايتها، وأحصت الكثير من أسماء الأماكن و الشخصيات بأسمائها الحقيقية، وأرّخت لأحداث و وقائع عديدة في حينها، وهذا ما يضفي على هذه الرّحلة مصداقية لدى القارئ أو السّامع أو المتلقي (المرسل إليه)، وعدها وثيقة تاريخيّة صالحة للحجاج.

-غلب على الرّحلة كثير من الحشو، الجمل الطويلة و الاستطرادات الكثيرة ، و التكلف و الصّنعــة اللفظية ، كالمبالغة في سجع الكلام، زيادة على ما ضمّه متن الرّحلـــة بين ثناياه من العلـــوم المختلفة، كالتّاريخ و جغرافيا وفقه وتصوّف، و عادات و تقاليد.

– يمكن الاستفادة من زخم مادّتها التّارخيّة في إعادة صياغة تاريخ الجزائر، و بعض الدّول العربيّة الّتي مرّ بها الرّحّالة ذهابا و إيابا، خلال عهد الحكم التّركي لتلك البلدان.

الفصل الثالث : التّمظـــــهـــرات النّسقيّـــــــة

و آليـــــات إنتـــــــاج النّـــــصّ

توطئة

1-الأنساق الأدبية في الرّحلة الورثلانيّة

2-الأنساق المعرفية

3-الأنساق الاجتماعية

توطئة :

يصنّف النّصّ الرّحليّ المغاربيّ على أنّه امتداد للنّصّ الرّحليّ العربيّ، و مجدّد له، هذا النّصّ الّذي يهدف إلى البحث عن الحقيقة، من خلال قناة يمتزج فيها الذّاتيّ بالموضوعيّ، بحيث يجسّد الرّحّالة كلّ ما رآه و سمعه، و يضفي عليه نظرته الشّخصيّة أو الرّسميّة الثّقافيّة، و يصبّ فيه من وعيه، وحمولته المعرفيّة، و العقديّة، فينتج نصّا رحليّا ثريّا بمنظور عقديّ، سياسيّ، ينبعث من أغوار نسق ثقافيّ دينيّ، تاريخيّ، اجتماعيّ، معرفيّ، أدبيّ تصهره ذات الرّحّالة وقدرته اللّغويّة، و هويّته الخّاصّة.

تعدّ النّصوص التراثية على وجه أخص، أكثر النّصوص اكتنازا للمعارف و العلوم المختلفة، الإنسانيّة منها و غيرها، لذلك تحمل بين ثناياها زخما فكريّا، و تعداد ثقافيّا، و إنسانيّا معرفيّا حمولته ضخمة، و لعلّ المتون الأكثر مطابقة لتلك الأوصاف السابقة ما اختصّ به أدب الرّحلات و مقامات بديع الزّمان الهمداني، حي بن يقظان لابن طفيل، الكامل للمتمرد، الأمالي لأبي علي القالي، أدب الكاتب لابن قتيبة، البيان و التبيين للجاحظ، الأغاني للأصفهاني، بهجة المجالس و أنس المجالس ابن عبد البر، العقد الفريد لابن عبد ربه...

تتشكّل بنية النّصّ الرّحليّ من عناصر مختلفة، تآلفت فهي تجربة، و أقوال، و علاقات، و تصوّرات، و تفاعلات، رغم ظاهرها التّقريريّ في نقل الأحداث و تواريخها، و غلبة الذّاتيّة عليها في الملاحظات و التّعليقات.

و لأجل قراءة نقدية جادّة متمعنة لتلك المتون، وجب التمكن من ناصية اللغة، و امتلاك آليات نقدية فاحصة تمكن صاحبها من استقراء المرجعية الثقافية للنّصوص و استنطاق ما اختبأ بين ثنايا تلك المتون .

يتميز النّص التّراثيّ القديم بثقل حمولته المعرفيّة و المقصود هنا أدب الرحلة و تعدّد الأفكار و الرّؤى ممّا يؤهلّه لاستقطاب كل المناهج النقدية التي تعمل عليه، فيصبح ملاذها الفريد

المتميـز، غير أنّه يوقـع باحثيه في التّيـه لاتّساع أفقه و تعدّد توجّهاتـه الفكريّة و العقديّة و الفلسفيّة، و الحضارية، مما يدفع إلى البحث في أنساقه المتعدّدة، و التي المبتغى من ورائها البحث و التعمّق في الذات البشريّة التي سعت لإقامة العلاقات المختلفة من خلال دائرة التواصل (مرسل،خطاب، مرسل إليه)، أي إنتاج ثقافة جديدة هي نتاج التّواصل مع أجناس بشريّة أخرى بفعل الإحتكاك، ثقافة مركبة من ثنائية (المرسل أي الأنا) و (المرسل إليه الآخر) و العكس، فيصبح الرّحالة حلقة وصل بين ثقافات مختلفة هي انعكاس لحضارات عددية، بل له الدّور الجسور في عملية المثاقفة الكبرى بين مختلف البيئات الثقافية، فيصبح الرّحالة ذاته نقطة اجتماع لإنسانيّة فرّقتها المعتقدات و الإيديولوجيات، مع بقاء الخصوصية لكلّ أمّة، فالأنساق الثّقافيّة لكلّ أمّة راسخة فيها مميزة لها، فالأمة الإسلاميّة لها خصوصياتها الّتي تميزها عن بقية الأمم من يهود و نصارى، و ماجوس و وثنيين ... و غيرهم .

من الأثار الإيجابية لتطوّر مناهج النّقد، إبداعها النّقد الثّقافي الّذي أضحى الآلية الأنجع لاستنباط ما اضمر من أنساق ثقافيّة، و قيامه على عملية فك شفراتها بالوقوف على علاماتها الدّلالية، و من ثم بيان ما استتر من مآثرها و مكامنها و أوحت به بعض معالمها التي طفت بين ثنايا المتن من حين لآخر، و لعلّ أدب الرّحلات أولى بهذه العناية، خاصة القديم منه الذي يشكل زخما فكريّا و حمولة معرفية ضخمة لجملة من العلوم و المعارف الإنسانية .

ما تجدر الإشارة إليه في موضوع أدب الرّحلة، أنّ الرّحلة ما هي إلّا حركة انتقال لشخص أو مجموعة من الأشخاص من مكان لآخر، و هي عملية تدوين حكائية من طرف الرّحالة لما صادفه من وقائع أثناء سفره .

يصنّف أدب الرّحلة على أنّه جنس أدبيّ له من الخصوصيات ما يميّزه عن الأجناس الأدبيّة الأخرى، إذ يعدّ بجدارة" **نشـاط فكـريّ يتّخذ من الثّقافـة بشموليتها موضوعا لبحثه و تفكيره**

و يعبّر عن مواقف إزّاء تطوّرها و سماتها"[1] و قد صنّفه شعيب حليفي في خانة الأجناس الأدبيّة الخالصة إلى جانب المقامة، و الحكاية الشعبيّة ...، أمّا الأشكال الأدبيّة الهجينة فتضمّ الخبر، و المحكيّات الصّغرى المتفرّقة ثمّ أدب القيامة، و التّراجم و الطّبقات وأخبار الشّعراء[2]، في هذه وجهة نظر شعيب حليفي، في حين يخالفه عبد النبي ذاكر الذي يراه جنسا أدبيّا هجينا "**إنّه جنس متكامل يحطّم قانون صفاء النّوع، و ذلك بإدماجه أنماطا خطابيّة متنوعة من حيث الأشكال و المحتويات،.. إضافة إلى شدّة تعقدّه واحتماله لأنماط و أساليب و مضامين كتابية تبعده عن البساطة لتجعل منه جنسا مركبّا"**[3] و ذهب كل من جبور الدويهيّ، و عبد الرّحيم موذّن، و يرى بول هازار (paul hazar) أنّ الخطاب الرّحلي نوعا أدبيّا غير واضح الحدود"[4]، شمولية هذا التّعريف تقترب كثيرا من الجنس الأدب الرّحلي، لكونه مجالا نقديّا رحبا يجد فيه كلّ من المؤرّخ و الجغرافيّ و دارس الأنثربولوجيا أو الإثنوغرافيا و الأديب ... و غيرهم، موردا ثريّا لنوع الدّراسة التي يريدها، إذ " **لا أحد ينكر ما أفاده المثقّفون – منذ أقدم العصور– من أدب الرّحلات، فتنوّع موضوعاتها جعلها قبلة لمنتج المعلومات الجغرافيّة و التّاريخيّة و الشعريّة و الصوفيّة و الإثنولوجيّة "**[5]، إذ شكّل النّصّ الرّحلي طفرة نوعية في عالم الّنثر العربيّ، لما زخر به من حمولات معرفيّة و ثقافيّة، تكشّفت باستنطاق أنساقها الثقافيّة المختلفة.

1-الأنساق الأدبيّة في الرّحلة الورثيلانيّة :

1 أحمد بن العباس بن رشيد بن حمّاد البغدادي، رحلة ابن فضلان إلى بلاد التّرك و الرّوس و الصقالبة، مطبعة أروى، وزارة الثّقافة، عمان، الأردن، ط1، 2013، ص56..

2 ينظر: شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب المغربي، دار القرويين، الدار البيضاء، ط2013،2،ص20.

3المحتمل في الرّحلة العربية إلى أوربا، و أمريكا و الاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ سعيد علوش، نوقشت بكلية أكادير عام 1998، ص83.

4عبد النبيّ ذاكر، الواقعي و المتخيّل في الرحلّة الاوربيّة إلى المغرب، منشورات كليّة الآداب، أكادير، 1997، ص08.

5المحتمل في الرحلة العربيّة إلى اوربا و أمريكا و الإتحاد السوفياتي، مرجع سابق، ص21.

1-1- العجائبي :

ترتبط العجائبيّة بكلّ أمر من قول أو فعل أو خبر أو حدث غير مألوف يثير الدّهشة، و لها " **مسارات متعدّدة تستقطب كلّ ما يثير و يخلق الإدهاش و الحيرة في المألوف و اللّامألوف** "[1]، تتصّل العجائبيّة اتّصالا وطيدا بالدّراسات الأدبيّة، بل حتى اللغويّة منها، بوصفها جنسا أدبيّا أضفى على المتون الأدبيّة صبغة الجدّة بكسره الرّتابة المعتادة للدّراسات النقديّة السّابقة، و العجائبيّة اختراق المألوف إلى عالم الدّهشة و الإثارة و الجدل، ما دفع بنقّاد كثر للتّنظير لها أمثال تودوروف (Todorov) .

تناولتها المعاجم العربيّة القديمة و الحديثة بمعان مختلفة، لكنّها متقاربة المعنى في أحايين كثيرة، منها ماجاء في لسان العرب، في مادّة (ع،ج، ب)، فالْعُجْبُ و الْعَجَبُ، معناه إنكار الوارد علينا لقلّة اعتياده ...، و المعنى المقصود بالعجب هو النظّر إلى شيء لم نألفه و لم نعتد عليه [2].

و يعرّفها الزبيدي على **أنّها تعني التعجّب و الّذي هو انفعال النّفس لزيادة وصف في المتعجّب منه و الاستعجاب شدّة التّعجّب** "[3]، و يذهب الفيروز أبادي إلى عدّ : "**العجب إنكار ما يرد عليك كالعجب محركة و جمعها أعجاب و جمع عجيب عجائب و أمر عجب و عجيب و عجاب ...، و العجاب ما جاوز حدّ العجب**"[4]، و يرد تعريفه في المعاجم الحديثة بمعان متقاربة و منها ما ورد في المعجم الوسيط فقد عرّفه على أنّ :" **العجب روعة تأخذ**

1 شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب،ط1 ،2005، ص199.

2ينظر : أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بم منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مج10، ط1، د.ت، ص 38.

3الزبيدي، تاج العروس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي،ج3، مرجع سابق، ص320.

4الفيروز أبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، د.ت، ج1، ص105.

الإنسان عند استعظام الشيء، يقال هذا أمر عجب، و قصّة عجب، و العجب ما يدعوا إلى تعني أشياء (Merveille) العجب "[1]

ورد في قاموس (محيط المحيط) لصاحبه "بطرس البستاني" **أن العجب إنكار ما يرد عليك و استطرافه، وروعة تعتري الإنسان عند استعظام الشيء(...) و التعجّب: انفعال نفسيّ عمّا خفي سببه"**[2]، و يذهب كرم البستاني في قاموسه "المنجد في اللغة و الأعلام " إلى أنّ العجب إنكار ما يرد عليك، العجب ،ج أعجاب : انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه [3]، و خلاصة لتلك التعريفات الواردة في القواميس الحديثة، فالعجيب عندهم باتفاق، هو انفعال نفسي للإنسان .

يذهب القزويني (ت682هـ)، في كتابه " **عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات** "، إلى تحديد مفهوم العجائبي بقوله: " **العجب حيرة تعترض الإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء، و عن معرفة كيفيّة تأثره به** "[4]، و بذلك الرأي قال الجرجاني فربط كلاهما العجيب بالحالة النفسية للإنسان، و لم يجعلا فرقا بينه و بين الغريب، في حين خالفهم الجاحظ بقوله: "**لأن الشيء من غير معدنه أغرب و كلّما كان أظراف كان أعجب، و كلّما كان أعجب كان أبدع، و إنّما ذلك كنوادر الصّبيان و مُلَحِ المجانين فإنّ ضحك السّامعين من ذلك أشّد و تعجّبهم به أكثر** "[5]، قد ذهب إلى تبيين علاقة المرسل بالمرسل إليه، أي أثر كلام المرسل (السّارد على المخاطب (المتلقي)، و مدى انفعاله أمّا عند بعض المحدّثين العرب فيختلف؛ كقول محمّد أركون أنّها مفهوم عقدي يرتبط ارتباطا وثيقا بالسيّاق القرآني، فهو " **في الإسلام،**

1مجمع اللّغة العربيّة، مصر، المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، مكتبة الشروق الدّولية، القاهرة، 2004، ص 584.

2بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس مكولة اللغة العربيّة، مكتبة لبنان، طبعة جديدة، بيروت، 1987، إعادة طبع ،1993، ص 576.

3ينظر: كرم البستاني و آخرون، المنجد في اللغة و الأعلام ،ط2 .

4القزويني، عجائب المخلوقات و غرائب المخلوقات و غرائب الموجودات، تحقيق : فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،1981 ،ط4،د.ت، ص31.

5 أبو عمر الجاحظ، البيان و التبيين، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، د.ط، ص50.

مثلما في المسيحيّة أنّ الفكر الدينيّ، الأرثوذكسي، و عقلانية النّخب نجحا في كبت العجيب في المعتقدات و الآداب الشعبيّة، أي مستوى النّشاط الثقافي الدّوني"[1]، إذن فالعجيب في مفهوم التّفكير العربيّ هي الدّهشة التي تنتاب المتلقي لجهله سر الأمر أو سببه ...، ذلك العجيب الّذي سرعانما يصبح مألوفا لتكرار رؤياه، فتزول عنه الدّهشة "[2].

تتبّعا لمساراته الإصطلاحيّة في عرف النّقد الغربيّ، فقد تراوح بين مقاربات تاريخيّة و أخرى دلالية و ثالثة بنيوية [3] و يميل النقد الحديث إلى الأخذ بمنظور " تودوروف (todorov) لدقّة تعريفه العجائبيّ و عدّه تعريفا إجرائيّا دقيقا له، حيث قال عنه " **التّردّد الّذي يحسّه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعيّة، فيما هو يواجه حدثا فوق طبيعيّ حسن الظّاهر** "[4]، و يزيد تعريفه توضيحا بقوله : " **إنّ العجيب هو ما بيعث التّردّد في القارئ و هو طبيعيّ يثير و يرعب أو على الأقل يعلّق القارئ بقلق** "[5]، و استنتاجا ممّا سبق يكون العجائبي اختراقا استثنائيا في الأعمال الأدبيّة، أسّس لمصطلح ينضوي بين ثنايا العمل الأدبي، و هو ما يسمّى بالفانتاستيك الذي فرض تقنيات مؤسسة للعمل السّردي الّذي يرتكز على عدد من الأسس الأدبيّة التي قامت لأجل " **تكسير الرتابة التي هيمنت على ذائقة القارئ طويلا، بخلق غرابة مغلقة و النّفاذ إلى الشّعور و الذّاكرة و تفتيتها إلى ذرّات مرتبكة وذلك عن طريق إبراز ما هو فوق طبيعيّ و تقليص دور ما هو طبيعيّ**"[6]"، **إذ** تطغى على ظاهرة " الفانتيسك" سمة التّردد HESITATION الذي تمتح منه الأحداث الواقعية و المتخيلة لإنتاج جمالية جديدة للخطاب

1محمد أركون، توفيق فهد، جاك لوكوف، العجيب و الغريب في إسلام العصر الوسيط ترجمة و تقديم عبد الجليل بن محمد الأزدي مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002، ص 19.

2ينظر : ضياء الكعبي، السرد العربي القديم، الانساق الثقافية و اشكاليات التأويل، المؤسسة العربيّة للدّراسات و النشر، بيروت، 2005 ،ط1 ،د.ت، ص 33.

3ينظر : شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكيّة، دار العربيّة للعلوم الناشرون، لبنان ،ط1، 2009، ص ص28-29.

4توفيتان تووروف، مدخل للأدب العجائبيّ، ترجمة الصّديق بوعلام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات القاهرة، ط1، 1994، ص64.

5 المرجع نفسه، ص19.

6 شعيب حليفي، شعريّة الفانتاسيكيّة، مرجع سابق، ص 189.

المرسل، تكرّسه ردّة فعل تتم من خلال الصدمة ثمّ الإيلاف بتكرارها، و بذلك تتبدى أهمّية العجائبي في الأدب خاصّة التّراثي منه لما له من دور فعّال في إثراء حقل الأدب .

ورد في رحلة الورثيلانيّ توليفة من العجائبيّة، فشملت الأمكنة و البلدان التي زارها في طريق رحلته ذهابا و إيابا، و الأولياء و الصّالحين و كراماتهم، الرّحلة حافلة بالمتخيّل، و العجيب و الغريب على حدّ سواء، و قد أستفتح الرّحالة متن رحلته بما يهيء المتلقيّ إلى استقبال مختلف الأخبار، فيبتدرها بقوله " **أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، و يستحسنها الشّادي، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبيّنا فيها بعض الأحكام الغريبة و الحكايات المستحسنة و الغرائب العجيبة ...**"[1]، يذكر الرّحالة الورثيلانيّ منذ البداية عجائب و غرائب صادفته أثناء رحلته، مشيدا بمحاسن رحلته و ما احتوته من محاسن الأخبار في التّاريخ و الأخبار العجيبة و الغريبة [2].

عرف الورثيلانيّ بنزعته الصوفيّة، التي هي نتاج تربيّة دينيّة بحتة، و نشأة في بيئة دأبت على حبّ الصّالحين و التّبرك بهم، و قد ورث ذلك كابرا عن كابر، عندما عزم على الحجّ، قصد الأولياء الصّالحين الأحياء لاستشارتهم و الأموات بتركا بأضرحتهم، و ذلك من خلال رحلة داخليّة قام بها استعداد لرحلته نحو البقاع المقدسة " **اعلم أيّها الأخ لمّا أراد الله المشي منا للحجّ و قد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسع و تسعين ومائة و ألف (1199) مع إجابة و تلبية للخليل عليه السّلام حين قال له الله تعالى و أذن في النّاس بالحجّ يأتوك رجالا و على كلّ ضامر يأتين من كلّ فج عميق الآية، حيث لنا العزم بإذن الله تعالى** "[3] و أمّا عن بتركة بالأولياء فيقول :" **و قد دخلنا طولقة فاجتمعنا بها أيضا مع أهل العلم والفضل وفيهم من الفضلاء ما لا يحصى كالسيد الفاضل الشيخ سيدي علي بن المبارك**

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، ج1، ص ص12-13.

2ينظر : مختار بن الطّاهر فيلالي، رحلة الورثيلاني، عرض و دراسة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1998 ،د.ط، ص ص 62-63.

3 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ج1، ص13.

نجل سيدي علي الطيار، و في ذلك السفر زرت الشيخ الغوث ابا جملين في المسيلة، أفاض الله علينا من بركاتهم و أعاد علينا من أنوارهم" [1]. وكانت تلك الزيارات من بين الاستعدادات الأولية قبل الرحلة " **فلم يترك وليّا أو عالما إلّا زاره من شرق الجزائر إلى غربها و من شمالها إلى جنوبها**" [2]، وحتى في المدن التي زارها و الأمصار التي دخلها، زار أولياءها و تبرّك بهم، كأولياء تونس، وليبيا و مصر، فزار فيها مقام " سيدي علي البدوري رضي الله عنه و منها قبر الخزرجي ... قبر الإمام الفاكهاني و منها قبر الإمام الشيخ الصالح سيدي عبد الرزّاق أجلّ تلامذة الشيخ سيدي أبي مدين رضي الله عنهما ..."[3]، و مزارات أخرى أتى الرّحالة على ذكرها بإسهاب في الجزءين الأوّل و الثاني من الرّحلة .

تصنّف رحلة الورثيلانيّ ضمن الرّحلات الواقعيّة بالدّرجة الأولى إلّا أنّها لا تخلو من تخييل و عجيب، فليست العجائبيّة حكرا على جنس أدبيّ دون آخر، خاصة و أنّ المتصوفة يرتبطون ارتباطا لا محدودا بالكرامة، إذ " **التصرف في العوالم بأنواع الكرامات، و هي بالنسبة لهم مقابلة للمعجزات التي يختص بها الأنبياء، و تقوم هذه الكرامات على مبدأ استعمال الخوارق من الأمور**"[4]، حسب أهل التصوّف، لا تتواجد الكرامة إلا حيث تتوفّر البيئة الطّاهرة، و يتجسّد الدّين الحقّ بجميع مقتضياته من ذكر و فضائل، وزهد و تقوى، و لعلّها السّمة الغالبة على الأدب الصوفيّ، إذ يري شعيب حليفي أنّ هذه النّصوص تشكّل " **الجانب الثري في الأدب العربيّ من حيث تضمنّه العديد من الخوارق، و التي يتمّ إدراجها ضمن كرامات أولئك الشّخوص مقابل معجزات الأنبياء** "[5]، فينتج عن ذلك تشكّلات تأويليّة مختلفة لدى المتلّقي، الخاصّ منه و العام، فالخاص منه و هو المتصوّف يتلقّفها ذهنه خطابا دينيا

1المصدر نفسه، ج1، ص16.

2مختار بن الطّاهر فيلالي، رحلة الورثيلانيّ، مرجع سابق، ص 29.

3 ينظر: الورثيلانيّ، الرّحلة، ج2، ص 657.

4العجائبية في أدب الرّحلات، رسالة ماجيستر، إعداد علاوي الخامسة، إشراف أ.د عبد الله حمادي، قسم اللغة العربية، جامعة قسنطينة، 2005، ص97.

5شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتستيكية، مرجع سابق، ص 16.

مقدّسا لا جدل فيه، أمّا العام فيرى فيها الجانب الأسطوري المقدّم الذي لا طائل منه، و قد يتبدّى له خطابا يخرج عن نطاق الشّرع.

ترد الكرامة على شكل أحداث مروية عن صاحبها أو منقولة إليه مشافهة أو كتابة، أو على شكل رؤيا ... أو غير ذلك، و ظهور الكرامة في الرّحلة الورثيلانيّة ليس ابتداعا منه " **لكن حضور العجائبي المرتبط بالدّين يظلّ مهيمنا لاعتبارات شتّى، منها هيمنة النّصوص الرحليّة الحجّية و الزياريّة و المعجزات** "[1]، و يذكر الرّحالة الورثيلانيّ أنّه أثناء مرورهم و الرّكب المرافق لهم بمنطقة الحجاز، أحسّوا بعطش شديد، فحدث لهم أمر روحاني عجيب " **فاصابنا عطش شديد، و نحن كذلك إلى ان أشرفنا على النبط فزاد بنا شدة الحرّ و قوّة العطش و اذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فأسقى جميعنا ظنّا منّا أنّ هذا الشّخص لم يرمنا إلّا الفلوس فشربنا الماء أحلى من العسل و أبرد من الثلج، فلا نعلم أنّه من ماء المطر أو من العيون التي في الجبال، فلما أتى عن آخرنا ارتقبنا منه أن يتكلّم و يسأل الدّراهم كما هي عادّة عرب الحجاز ... هبّ الرّيح، فلم يطلب من أحد دعاء و لا سأل شيئا منه بل رفع قربته و لم يلتفت إلى أحد منّا، فعجب جميعنا منه ووقع في قلوبنا أنّ هذا الرجل من أهل الله و أنّه من عباد الله الصالحة إذ يعلوه جلال وهيبة و نور** "[2]، و قد ندم الجميع حسب ما ذكره الرّحالة، لأنّهم لم يسألوه الدّعاء، لشدّة تعلّق الصوفيّ بالكرامات، تجده يعتبرها المعجزة الخارقة التي لا يمكن تكذيب حدوثها و أنّها من المسلّمات، حتّى و إن لم يحضرها إنّما بلغه خبرها، و هي عنده من المقدّسات الغيبيّة، و من أمثلة ذلك ما يروي عن إحدى كرامات الشيخ سيدي يحي " **أنّ من تعدّى عليه هلك بغتة و قد كان له زرع في امّالوا و بات فيه جماعة من النّاس بخيلهم من غير علم أنّ الزرع للشيخ فلما أصبح الله بخبر الصّباح مات جميع خيلهم و حمالوا سروجهم على أعناقهم** [3]"، تحيلنا تلك الكرامات هي الى تتّاصّ مع ما يرد في سير

1المرجع نفسه، ص 471.

2الورثيلانيّ ،الرحلة، ص 226.

3المصدر نفسه، ص 21.

الأنبياء عليهم السلام في معجزاتهم " **فالكرامة بهذا المفهوم محاكاة للنبوّة، و استمرار للزمن الأصلي فأصحاب هذه الكرامات يواصلون عمل النبيّ الذي ينتمون الى دينه، أي متابعة الدّعوة إلى هذا الدّين بواسطة الخوارق لمن يحتاج إليها، فكّل ما كان معجزة لنبيّ يجوز أن يكون كرامة لولي** "[1]، و لمثل هذه الحادثات اعتقادات خاصّة عند مريدي الصوفيّة، فلا جدال فيها، و مثل ذلك يروي عن سيدي احمد بن مزيلن " **أنّه أتاه فقير في أيّام الحج فقال له و الله أن أحجّ في هذه الأيام فلما ألحّ على الشيخ و ذلك في زمن الخريف أعطى له عنقودا فكمل أكله في مكة المشرفة ثمّ لمّا كمل حجّه وجد نفسه في داره** " [2]، و اذا ما دققنا في هذه الكرامة المطلقة، استدعانا ذلك لمقارنتها بتلك المعجزات التي حدتث للأنبياء، أو الصالحين ببركة الدعاء الأنبياء لهم، و لكن ما يطرح من سؤال هنا، هل عملية التلقي لمثل هذه المرويات سيكون ذاته للعام و الخاص ؟ بطبيعة الحال لا، فالعام و هو عامّة المستمعين (المتلقين) ستنحصر ردّات أفعالهم بين مصدّق و مكذّب، أمّا الخاصّ (الصوفيّ) فيتلقاها مسلمّا بصحتها لا جدال إذ " **يشكل الوليّ و الولاية و ما يتصل بهما من طقوس عالما عجيبا محضا، أولج في عالم الخيال منه في عالم الحقيقة، لأنّ الأولياء قادرين على منح بركاتهم و هم أحياء يرزقون كما يظلون قادرين على التّصرف و التأثير حتى ما بعد الموت** "[3].

و تلك معتقدات مسلّمة لاشية فيها لدى الصوفية و مريدهم، و تمتزج كراماتهم ما بين رؤى، و غيبات و خوارق، و تحوّلات و اختفاء ... و غيرها، و منها ما رواه عن سيدي عبد الرّحمن الثعالبي من وصول سيدي السعيد لعلمي إلى إحدى نواحي بجاية، بات بقرب ضريح سيدي عبد الرّحمن الوغليسي، الّذي قام من قبره و اجتمع برفاقه من العلماء ليقرئهم، و لم يكمل

1 شغموم الميلودي، المتخيل و القدسي في التصوف الإسلامي الحكاية و البركة، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، مطبعة فضالة المحمديّة، ط1، 1991 م، ص ص 102-103.

2 الحسين الورثيلاني، الرحلة، مصدر سابق، ص49.

3العجائبية في أدب الرّحلات، رسالة ماجيستر، اعداد علاوي الخامسة، مرجع سابق، ص79.

ختمه، و لكنّه أتّمها لهم في قبره [1]. و تتزاحم الكرامات في مسار حياة الصوفيّ، و تتشكّل بصفات مختلفة كما سبق الذّكر (من رؤى و غيبيات و خوارق ... و غيرها) .

و قد تجسّدت كلّها في الخطاب الصوفيّ النثريّ لدى الورثيلانيّ، حيث تمكّن هذا النّص المبثوث للرّحالة و أمثاله، من استقطاب عدد كبير من المتلقّين عكس الخطاب الشّعري الّذي ظلّ وقفا على طائفة المتصوّفة و أتباعهم و مريديهم .

1-2- الصّورة الفنيّة:

يسطّر الأدباء و الشّعراء إبداعتهم على قدر ملكاتهم الفكريّة و اللّغويّة و الفنيّة، لذلك نجد الصّورة الفنيّة هي الصّوت الفارق بينهم و تميّز أحدهم عن الآخر تفوّقا و إخفاقا، رغم أنّ النّثر أقلّ حاجة من الشّعر إليها، و حجّة بعض النّقّاد و الباحثين في ذلك كون الشّعر عماده الوصف التّحليليّ، و لا يمكن الاحتكام إلى هذا الرّأي على أنّه من المسلّمات، ثمّة أجناس أدبيّة تزخر بالصّوّر الفنيّة المتعدّدة كأدب الرّحلة، و قد أسهب الورثيلانيّ في تجسيدها في رحلته بأسلوب بليغ و واضح، في نقل ما واكبه من أحداث حتّى تبدو كأنّها حاضرة يراها المتلقّي مباشرة.

يعدّ الشّيخ الحسين الورثيلانيّ سيّد الرّحّالة في عصره، و تعدّ رحلته باكورة الرّحلات الجزائريّة الحجازيّة، و ميراث ضخم في أدب الرّحلة الّذي هو" **هو لون أدبيّ ذو خصوصيّة تميّزه عن غيره من الألوان الأدبيّة النثريّة الأخرى، فهو يتّفق مع الرّواية في الإفادة من معطياتها الفنيّة و مشاكلتها للسّرد و الوصف، إلّا أنّه يحمل سمة، إذ يجمع إلى جانب ماسبق العناية برصد الواقع كما هو، دون اللّجوء إلى الخيال إلّا في محاولة اختيار الأسلوب، و تقديم المعلومة في ثوب أدبيّ**"[2]، و هنا نجد أنّ الحسين الورثيلانيّ قد اتّكأ على مقدرته الأدبيّة في توظيف الصّورة الفنيّة، من حيث تركيزها و استطاعته الرّبط بين تفاصيلها و إبراز المشاعر و العواطف و

1 ينظر: الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، ص159

2 فؤاد قنديل ، أدب الرّحلة في التّراث العربيّ، مكتبة دار العربيّة للكتاب،مصر، د.ت، ط2، 1423هـ/2002م ص 174.

الانفعالات من خلالها، و قد تمكّن الرّحّالة من تقديم صورة تفصيليّة عن الأحداث المختلفة، خاصّة الشّعوريّة منها كالفرح و الحزن و الألم، و الغضب و الرّضا ... و غيره.

تكسب الصّورة الفنيّة الخطاب الرّحليّ الجزائريّ، قديمه و حديثه رونقا متفرّدا لكلّ رحّالة، معبّرا من خلالها عن تجربة واقعيّة و صادقة بحسّ مرهف و كلمة جميلة، يحاول من خلالها التّبليغ و الامتاع في الوقت ذاته، بنقل جلّ ما رأى و سمع و علم، مفرغا كلّ طاقته الإبداعيّة الّتي رصدتها بؤرة المعايشة و التّأثّر في حينها، محاولا من خلال ذلك التّأثير في كينونة المتلقّي بما ترسّب لديه من كنه التّجربة، عن طريق التّذكّر و الاستحضار، ثمّ إعادة التّركيب فالإبلاغ، فيتراءى في تلك الصّورة البشر و الشّجر و الحجر، و الأمكنة و الأزمنة، الأحداث و الحوادث، الحياة و الموت، الطّريق، الذّهاب و الإيّاب، الأجواء و الفضاءات،...، و لكأنّه مدعاة للتخييل، فيحظى كلّ عنصر من العناصر (أي كلّ حدث) بما يلزمه من التّوصيف " **و بخاصّة في سياق أدب الرّحلة، الّذي يتطلّب من الرّحّالة الأديب قدرا كبيرا من القدرة على توظيف خياله في صياغة المشاهد صياغة لا تبتعد عن الواقع أو تزييفه، بقدر ما تمنحه شحنات خياليّة ذاتيّة**"[1]، و تكسب الرّحّالة قدرة كبيرة على استجماع شتات الأحداث المتعلّقة بشخصياتها و الأماكن الّتي وقعت فيها، و الفترة الزّمنيّة الّتي احتوتها، راصدا كلّ ذلك بلغة خاصّة محاولا من خلالها التّأثير في نفسيّة المتلقّي و إقناعه.

تبرهن الصّورة الفنيّة على قدرة الرّحّالة على توظيف الخيال لكونها" **قائمة على الابتكار، حتّى تستطيع أن تمثّل إعجاب النّفس، و تفاجئها بالمعاني و الدّلالات الإيحائيّة التّخييليّة الّتي لا عهد لها بها، فتثير دهشتها و استغرابها، و تستدرجها لاتّخاذ الموقف المناسب من التّجربة الشّعوريّة الّتي تعرض من خلالها، لأنّ الاستغراب و التّعجّب حركة للنّفس إذا اقترنت**

1 عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمّادي، أدب الرّحلة في المملكة العربيّة السعوديّة، رسالة ماجستير، إشراف أ.د محمد الصّالح جمال بدوي، قسم الدّراسات العليا العربيّة، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1997، ص 127.

بحركتها الخياليّة"[1]، حيث تتجلّى من خلالها الملكيّة اللّغويّة و الخياليّة للرّحّالة في الإسقاط على التّجربة الرّحليّة بكلّ مكوّناتها من وقائع و أحداث و مشاهد، بتلقائيّة تامّة و إن كان غرضها التّبليغ و التّأثيرو الإيصال، و إثارة الدّهشة من خلال عنصر التّشويق، و بسط نفوذ الصّورة الفنيّة الّتي تعدّ" **الطّريقة البلاغيّة المعتمدة على التّشبيه، و المجاز، و الكناية، أو كانت وصفيّ سرديّة لا تعتمد على الألوان البلاغيّة**"[2]، ممّا يضفي على متن النّصّ الرّحليّ جماليّة بأبعاد متفاوتة تجلّيها الحقيقة و يزيّنها التّخييل، ممّا يحيل صورة الواقع المجرّد انفعالات شعوريّة عاكسة للحالة النّفسيّة للرّحّالة لتتسرّب في مشاعر المرسل إليه (المتلقّي)، فتثيرها بما تحدثه فيها من وقع غير معهود.

و قد سبق الخوض في قدرة الكاتب على التّأثير في نفسيّة المتلقّي، من خلال عملية التّوصيف القائم على على التّصوير الفنّي، الّذي يعمد فيه الرّحّالة إلى استرجاع وقائع حدثت عاشها أو عايشها، ليرصدها للمتلقّي من خلال عملية الاستحضار خيالا لواقع سابق بديناميّة مؤدلجة، تستثير كوامن التّلقّي لدى السّامع أو القارئ...، و يتمّ له ذلك تضمينا منه لما اختلج في ذاته المبحرة في ذكريات الرّحلة، أو تصريحا أو سكوتا، و في المسكوت عنه أرقى أنواع التّعبير عن المواقف و الأحداث، إذ تتلوّن لغة الرّحالة بلون الواقع الّذي خاض غماره، و عاين حلوه و مراره.

يعطي زخم الأحداث الّذي يسوقه القدر في مسار الرّحّالة الأدبيّ، نفسا متجدّدا و تصويرا انبعاثيّا من تراكمات استجمعتها الذّاكرة، لتعيد بثّها من جديد في مشهد انفعاليّ لدى المتلقي من خلال تلك الصّورة الفنيّة الّتي يقدّمها الأديب الرّحّالة فتأتي" **نابعة من قوّة الشّخصيّة الأدبيّة الّتي يمتلكها من مصادر مختلفة، تتيح للكاتب التّمتع بأسلبة معيّنة، فتخلق المتعة قيمتها قيمتها الفنيّة في النّصّ الرّحليّ، انطلاقا من الأسلوب الّذي يتّخذ من الصّورة الفنيّة**

1 محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النّفسيّة لأساليب البلاغة العربيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 159.

2عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمّادي، أدب الرّحلة في المملكة العربيّة السّعوديّة، مرجع سابق، ص 127.

و الجماليّـة للمتلقّيّ، إذ يعدّ الأسلوب ظاهرة قويّـة في تجسيد الذّات في تفاعلها بالأحداث و العوالم المختلفة، و هي قدرة خلّاقة لا تتأتّى إلّا من سبيل أدبيّ يجسّده الأديب المقتدر، و هي تتفاوت من أديب إلى آخر"[1]، و تهم بذلك في إعطاء النّصّ الرّحليّ صفة الإمتاع من خلال كسر رتابة السّرد المألوفة في الأجناس الأدبيّة الأخرى، فيعمد إلى توظيف المجاز و المشابهة و الكناية، غايتها إحداث الاستجابة لدى المتلقّي من خلال رافدي التّأثير و التّأثير المنتج لحالات من الدّهشة و الانفعال.

استطاع الشّيخ الحسين الورثيلانيّ استثمار قدرته الأدبيّة و اللّغويّة، في طرح صورة فنيّة جموحة ترفع من أفق التّخيّل لدى المتلقي(السّامع، القارئ، النّاقد)، بتفعيله آليات التّخييل، فنجده على سبيل المثال يصف مدينة أثريّة قرب الجبل الأخضر، ببعد خمس مراحل عن مدينة الإسكندريّة، فيقول عنها" **مدينة لبدة قد خلت في العصور الأوائل و بقيت آثارها و رسومها قد أكل البحر كثيرا منها، و فيها مبان عظيمة، و هياكل جسيمة، و أبراج مبنيّة بالحجر المنحوت في غاية الإتقان قد هرم الدّهر وما هرمت، و تعاقبت عليها الأزمنة و ما ثملت، فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مدّ البصر**"[2]، و مثل هذه الصّورة واردة بكثرة في متن الرّحلة، خاصّ لدى وصف الرّحّالة الأماكن الّتي أبهجت ناظره، و تعلّقت مراسمها بخيال ذاكرته في مواضع المدح أحيانا، و الذمّ أخرى لما كان له من الواقع السلبيّ في نفسه كقوله:" **و نخل هذا السّاحل رديء التّمر كلّه لا يدّخر و لا ييبس إلّا بعد إزالة النّوى منه فيبقى الجلدة فيه و لا حلاوة ولا طعم، قال الإمام أبو سالم لا تكاد تفرّق بينه و بين لحاء الشّجر**"[3]، و يمثّل هذا التّصوير الّذي كان مطواعا للغة الرّحّالة المالك لناصية بلاغتها، ما مكّنه في مواضع عديدة من الخلاص من المشابهة، إلى تجسيد المشهد المعيش رؤية عين، و تركيب مشهد من لمسات الخيال، يتبدّى للمتلقّي صورة حيّة قابلة للمعاينة و لو تصوّرا.

1عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائريّ الحديث ، مرجع سابق، ص 503.

2 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة ، مصدر سابق، ص 223.

3 المصدر نفسه، ص 224.

تقوم الرّحلة في معظم متنها على التّوصيف، هذا الإجراء التّجسيدي الّذي غايته النّقل بأمانة و الإمتاع في الوقت ذاته، مركّزا على ما يتاح له من طاقة استعاريّة كامنة في لغته الخاصّة تقريبا للصّورة من مخيّلة المتلقّي، فينشئ خطابا يحرّك فيه السّاكن، و يسكن الرّوح في الجامد، و يجسّد المعنويّ، كقول الشّيخ الورثيلانيّ في سيدي أحمد زرّوق البرنسي في التّبرّك به بزيّارة ضريحه:" **كانت بصيرته نافذة إلّا سلوك طريقه لتستنير سريرته و تعلوّ همّته و يظهر أمره عند الأكوان، فيكون شمسا لها، و غيثا لقلوبها و دواء لعللها فيرحم الله به أمّة ضعيفة و يسقي به قلوبا ضمآنة، من لم يصبها وابل فطلّ، و يغني أشخاصا فقيرة، و يعزّ أناسا ذليلة، و يجبر أفئدة كسيرة**"[1]، أمّا المتلقّي فاستجابته تتوازى عمقا و سطحا بقدرته على التّذوّق حسب تأثّره أي ردّات فعله إيجابا و سلبا، الموقوفة على تأويله لمعطيات الرّحّالة و تفسيرها، ممّا يكون بمثابة المنعكس الشّرطيّ، الّذي تخلّفه الصّورة الفنيّة في نفسيّة المتلقّي من أثر ما انطبع في النّفس بالمشابهة أو الاستعارة أو الكناية.

يقوم المرسل (الرّحّالة) في لحظته الآنية بتوصيف المشاهد حسب ما يقتضيه الحال، مستقيا وسيلته الإجرائيّة من مدركاته البلاغيّة المستحضرة من تلك اللّحظات، لتصبح وسيلته للإبلاغ لدى المتلقّي، الّذي يحيلها إلى صور تبسط ذاتها في خياله، فيشكّلها من جديد حسب ما توفّر في ملكته اللّغويّة من دلالات لم تكن لغة المرسل كافية للتّعبير عنها، فلجأ إلى المشابهة الّتي تعكس مقدرته البلاغيّة.

1-3- توظيف الشّعر في الرّحلة:

للشعر خصوصيّة في التّعبير عن المشاعر، لذلك قيمته كبيرة في القلوب، ووقعه خاصّ في النفوس، و مكانته لدى العامّ و الخّاصّ معلومة و لم يخف هذا الأمر على الرّحالة فلجأ إليه أي الشّعر في أحايين كثيرة ، يعبّر به عن لواعج النّفس، وحرفة القلب، فها هو ينشد ما اختلج في

1 المصدر السّابق نفسه، ص 243.

صدره بسب فراق أرض هي مهاجر الرّسول صلي الله علية وسلم، ضمّته حيا و ميتا، فبعد وصوله الى المدينة المنوّرة و مجاورته قبر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مضت الأيّام في لمح البصر، وحان موعد الأوبة، فاضت عيناه دمعا بعدما خنقته العبرة، وتقطّعت أحشاؤه ، وتمزّقت نفسه فأنشد قائلا:

يَــا رَسُولاً لَنَــا أَتَــى بِكِتَـابٍ لَمْ تُعَـارِضْ آيَاتِهِ بِاتِّفَـاقِ

وَ الكَرِيمُ المِعْرَاجُ وَ البَرْقُ خِلَّانِي طَرِيحًا سَارَ فَوْقَ البُرَاقِ[1]

ثمّ يقول معبّرا عن عدم ارتوائه بما يكفي من جوار قبره الشريف عليه الصلاة و السلام

أَنْ عَنْ قَبْرِكَ الشَّرِيفِ انْصِرَافِي وَ انْصِرَامِي وَ مَا شَفَيْتُ اشْتِيَاقِي

وَ لَئِنْ كُنْتُ بَلَلْتُ غَرَامِي بِالْتِئَامِ وَ الثَّرَى فَعِنْدِي يُوَاقِي[2]

لم تعرف النّصوص القديمة ما يسمّى بالتّخصّص، فقد كانت توليفة من الأجناس الأدبيّة الممتزجة في متن واحد، و لا مناص أن تتّصف الرّحلات القديمة بذلك، فتداخل فيها الشّعر بالنّثر، و القصّ بالسّرد و الحكي، ... و غير ذلك، أمّا الشّعر فله من الخصوصيّة ما يميّزه، إذ يعدّ عنصرا هامّا في تشكيل متن الرّحلة، و هذا دأب الأدباء القدماء.

لا يقتصر أدب الرّحلة بخصائص الفنون السّرديّة فقط، بل تجاوزها إلى فنون أدبيّة أخرى، كالشّعر، فالشّعر ديوان العرب الّذي لا يمكنهم الاستغناء عنه، لذلك نجد له في هذه الرّحلة حضورا كبيرا، فكثيرا ما لجأ الشّاعر لتوظيفه للاستشهاد به، فأورد منه ما ماهو من نظمه لإظهار قدرته الشّعريّة و النثريّة على حدّ سواء، أو أشعار غيره دلالة على سعة إطلاعه، و قوة ملكته الحافظة، ممّا منح الرّحلة دعامة قويّة، و ساهم في الارتقاء بالخطاب الرّحلي إلى المستوى الفنّي الجماليّ، الّذي ينقل المتلقّي من مرحلة الإقناع إلى مرحلة الامتاع[3]، و قد اعتمد

1 المصدر نفسة، ص 213.

2 الحسين بن محمد الورثيلاني، مصدر سابق، ص 213.

3 ينظر: حبيب بوزوادة، المضامين العلميّة في الرّحلات الحجازيّة الجزائريّة، رحلة الورثيلانيّ أنموذجا، مجلة آفاق فكريّة، عدد خاصّ 2018، الجزائر، مج 4، ص ص 64-65.

الرّحّالة تلك الأشعار لغايتي التّبيج أحيانا و التّبليغ أخرى، فبعدما أخذ الشوق لزيارة الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم مأخذه، و عزم على الحجّ راح ينشد مودّعا أهله و أحبابه:

مَا أَصْعَبَ التَّوْدِيعِ بِالْأَحْبَابِ وَ عِنْدَهُ بِالْحُزْنِ وَ اكْتِئَــابِ

وَ كُلُّ نَفْسٍ تُزْعَجُ لِلافْتِرَاقِ لِفُقْدَانِ الْمَأْلُوفِ بِاخْتِنَـــاقِ

فَأَشَدُّ النِّيرَانِ نَارُ بِافْتِرَاقِ لَعَمْرُكُمْ قَدْ هَبَّتْ نَارُ بَاحْتِرَاقِ

فَتَحْوِيلُ الْوَجْهِ عَنِ الْوَدَاعِ بِشِـدَّةٍ يَرْجِـــعُ بِالصُّـــدَاعِ

أَيَّتُهَا النَّفْسُ تَحَمَّلِي وَ اصْطَبِرِي لِتَوْدِيعِ الصَّحْبِ لَخَيْرٍ وَ خَيْرٍ[1]

ودّع الشّيخ الحسين الورثيلانيّ أهله و أحبابه، في جوّ تملأه الآهات و العبرات المسكوتة، و الصّراخات المتعالية، و لكنّ الرّغبة الشّديدة في زيارة بيت الله الحرام، و الشّوق لجوار رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أولى، و الفراق لا بدّ منه عن الأهل و الخلّان.

يعدّ الوقوف بعرفة من أجلّ المواقف في نفس الحاجّ، أكسبته قداسة المكان هيبة و رهبة، يمتزج فيها الخوف بالرّجاء، و قد فاضت قريحة الرّحّالة بفيض من المشاعر، فنظم قائلا:

فَكَمْ حَامِدٍ كَمْ ذَاكِرٍ كَمْ مُسَبِّحٍ وَ كَمْ مُذْنِبٍ يَشْكُو لِمَوْلَاهُ بَلْوَاهُ

وَ كَمْ خَاضِعٍ كَمْ خَاشِعٍ مُتَذَلِّلٍ وَ كَمْ سَائِلٍ مَدَّتْ إِلَى اللهُ كَفَّاهُ

وَ سَاوَى عَزِيزًا فِي الوُقُوفِ ذَلِيلًا فَكَمْ ثَوب ذلّ فِي الوُقُوفِ لَبِسْنَاهُ

وَ رَبٍّ دَعَانَا نَاظِرٌ لِخُضُوعِنَا خَبِيرٌ عَلَيْهِ بِالَّذِي قَدْ أَرَدْنَـــاهُ

وَ لَمَّا رَأَى تِلْكَ الدُّمُوعِ الَّتِي جَرَتْ وَ طُولِ خُشُوعٍ مَعَ خُضُوعٍ خَضَعْنَاهُ

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، ص 104.

تَجَلَّى عَلَيْنَا بِالمَتَابِ وَ بِالرِّضَى وَ بَاهَى بِنَا الْأَمْلَاكَ حِينَ وَقَفْنَاهُ

وَ قَالَ انْظُرُوا شَعْثًا وَ غُبْرانَـهُمْ أَغِثْنَا أَجِرْنَا يَا إِلَهَا عَبَدْنـــــاهُ

وَ قَدْ هَجَرُوا أَمْوَالَـهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَ أَوْلَادَهُمْ وَ الكُلُّ يَرْفَعُ شَكْوَاهُ

إِلَيَّ فَأَنِيَّ رَبَّهُمْ وَ مَلِيكَهُمْ لِمَنْ يَشْتَكِي الْمَمْلُوكُ إِلَّا لِمَوْلَاهُ[1]

أخذت الأبيات المذكورة من قصيدة نظمها في اثنين و أربعين بيتا، بصف فيها حال كلّ العباد في ذلك اليوم، صغارا و كبارا، فقراء و أغنياء...

نظم الشيخ الورثيلانيّ رحمه الله شعرا في مدح بعض الصّالحين– رغم انّه لم يعاشرهم–تأثّرا لما سمع عنهم من شيوخه فيقول: " **وقد أخبرني عمّي سيدي محمد الصّغير إذ هو علّامة زماننا أنّه كان يتعلّم عليه المختصر، و كان يقرئ من الأجهوري، و أنّ بعض الطّلبة أعني سيدي محمد بن باب الملقّب بالأوجه...بأن يترك المكرّر منه كالشّيخين بعده سواء بسواء إلّا في عين اللّفظ، و مآثر سيّدي الصّادق، و أولاده كثير و قلت فيهم:**

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فَاعْلَمْ قَدْرَهُم لِأَنَّهُمْ سَحَابَةً مَعَ غَيْثِهِمْ

قَدْ اخْضَرَّتْ أَشْعَارُ أَهْلِ الْعَصْرِ وَ أَثْمَرَتْ فَوَاكِهَا بِثَمَرِ

فَهُمْ كَحِصْنٍ مَانِعٍ يَلُوذُ مَنْ لَهُ الجِنَايَةُ بِحَقٍّ أَوْ ضِمْنَ

رَحْمَتُهُمْ تَعُمُّ كُلَّ بَلَدِ وَ سِرُّهُمْ مِنْ سِرِّ فَضْلِ أَحْمَدَ

قَدْ سَكَرُوا بِحُبِّهِ وَ قُرْبِهِ فَمُنِحُوا مِنْ عِزِهِ وَ حِلْمِهِ

فَأَسْكَنُوا قُلُوبَهُمْ دَارَ الْوُصُولِ بِجَذْبَةِ الْإِلَهَ صَرْفًا بِالحُلُولِ

فِي جَمَعَ الجَمْعِ بِالتَّجْرِيدِ وَ سَيْفَهِمْ لِلْقَهْرِ بِالتَّهْدِيدِ

1 المصدر نفسه السّابق، ص 461،

يِحُلِّيهِ الْإِلَهِ فَقَدْ جَمَّلَهُمْ وَ شَرْحِهِ الصَّدْرَ فَقَدْ زَيَّنَهُمْ"[1]

مدح بهذه الأبيات، و الّتي هي من أصل خمسة عشر بيتا، سيدي الصّادق و أولاده، أثنى عليهم، و عدّد خصالهم، و أشاد بحصافة عقولهم، و جميل صنائعهم، و حسن أخلاقهم، و فضائل أخلاقهم، و رفعة مكانتهم بين النّاس، فهم علماء زمانهم، و من خيرة الفقهاء.

كما وظّف الشّعر لوصف كثير من الأماكن الّتي راقته جدّا، خين وقع عليها بصره، كجمال بعض المناظر الطّبيعيّة، و محاسن بعض العمران، ... و غيرها، إذ وصف المكان الّذي يسمّى بركة الحاج، لكونه المكان الّذي يلتقي فيه الحجّاج، فهو بمثابة المحطّة بالقرب من القاهرة على الطّريق البرّي، فقال عنه:

فِي بِرْكَةِ الْحَجِّ تَرَى نَخْلًا زَهَا وَ لَكِنْ عَجَبٌ

زَبَرْجَدَا يَحْكِي وَ مَا ثْمَـــــارُهُ إِلَّا ذَهَـــــبٌ

فِيهَا نَسِيمٌ رَائِــقٌ بِلُطْفِهِ يَشْفِي الْوَصِبَ

وَ الطَّيْرُ فَوْقَ مَائِهَا يَشْدُو بِأَنْوَاعِ الطَّرَبِ

فَيَا لَهَا مِنْ بِرْكَةٍ تَبْلُـــغُ القَـلْبَ الْأَرِبَ

عَوَّذْتُهَا مِنْ طَارِقٍ وَ غَاسِقٍ إِذَا وَقَـبَ[2]

قدّم الرّحالة– رحمه الله– وصفا جميلا أمينا للبركة، حتّى تراءت لنا صورتها من خلف هذا الوصف، بنخيلها، و ثمارها، و طيورها، و نسيمها، حتّى بلغت من نفسه مبلغا عظيما، فدعا لها بالحفظ من كلّ النّوائب.

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص ص 83-84.

2 المصدر نفسه السّابق، ص 383.

لم يكتف الرّحّالة بتدبيج الرّحلة بأشعاره الّتي نظمها بنفسه، بل أورد أشعار بعض شيوخه، لغرض مدح أو رثاء ثلّة من علماء، وفقهاء و أمراء، و مرموقي زمانه، و يصرّح أنّه لم يأخذ عن النّسخة الأصليّة:" **نقلت الرّسم المذكور بحروفه من غير زيادة و لا نقصان، مع وجود بعض التّصحيف به، و لم أغيّر شيئا، بل تركته كما وجدته، و لم أكتب من الرّسم الأصليّ، بل من رسم نقل منه و الله أعلم انتهى**"[1] ، إذ يبيّن سبب مدحه للشيخ أحمد الأكبر، الّذي كان ببلاد المغرب، ثمّ استقرّ بمدينة قسنطينة، فيبيّن سبب مدحه: " **أقول في مدحه و الاستغاثة به لتزول عنا حجب الغفلة و كدرات النّفس، و غطاء البشريّات و لعلّي أرقى إلى مراتب التّجليات، و أشرب من عين اليقين، و أتحلّى بحلية المعارف، و لذلك قلت و على الله اعتمدت:**

أَلَا أَيُّهَا الْقُطْبُ الْهُمَامُ تَعَلَّقَتْ مَجَامِعُ قَلْبِي بِالسَّعْدِ الْمُنَوَّرِ

شُغِفْتُ بِحُبِّهِ لِأَنَّهُ مَدَّ يَدًا يَقُومُ بِأَوْرَادٍ وَ يَسْقِي بِأَجْدَرِ

فَقَدْ دَنَقَتْ نَفْسِي بِأَوْصَافِ مَا بِهِ تَحَلَّى أَمَامَنَا مَنْ كُلِّ مُتَصَوَّرِ

مَنْ الَّذِي أَبْدَعَ الْإِلَهُ فِي رَسْمِهِ مِنْ أَحْسَنِ زِينَةٍ وَ أَحْلَى تَذَكُّرِ

فَطَيْفُهُ قَدْ أَسْبَى مِنَ النَّاسِ أَفْكَارًا وَ لَفْظُهُ قَدْ أَعْمَى بَصَائِرَ بِالسِّحْرِ

وَ لَكِنَّهُ سِحْرٌ مِنَ الْحَقِّ قَدْ أَتَى لِيَجْذِبَ أَقْوَامًا تَأَيَّدُوا بِالنَّصْرِ

عَلَى عَدُوٍّ سَنَا نَرَاهَ تَحَقَّقَا وَ إِنَّمَا يَخْتَفِي لِيَقْطَعَ بِالْفِكْرِ

فَصَدُّهُ قَدْ بَدَا عَنْ كُلِّ كَرِيمَةٍ وَ لَعْنَتُهُ مِنَ اللهِ حَقٌّ"[2]

1 نفسه، ص 247.

2 المصدر نفسه السّابق، 247.

و من أمثلة هذه القصائد كثيرة، متنوّعة الأغراض، إلّا أنّه لا يمكن استيفاؤها كلّها في هذا البحث، و رغم ذلك وجبت الإشادة بحسن توظيف الرّحّالة لزخم كبير من القصائد، الّتي اندمجت مع النصّوص النثريّة الّتي كان لها الحظّ الأكبر من متن الرّحلة، و كما سبق القـول، فقـد أثبـت الرّحّالـة تجربتـه الشّعريّـة الّتي زاحمت التّأليف النّثريّ، فوصف، و مدح، و رثـاء، و وعظ ... ، إلى غير ذلك من الأغراض الشّعريّة المطروحة في الشّعر العربيّ.

1-4- البعد الجماليّ:

يجمع كثيرون على أنّ الجمال شيء معنويّ، و أنّه لا مجال لتعريفه، لأن"ه صعب المنال، رغم أنّ العامّ و الخاصّ يتداولونه، فقيل عنه أنّه معنى وجداني يختلف تقديره من شخص إلى آخر، إنّما يستشعر من خلال الأشياء الجميلة[1]، و قد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: **{ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ }**[2]، و ذلك لما فيها من نفع ماليّ، و في المعيشة، و صورتها المستحسنة و هي ترعى(أي المواشي).

تتبدّى صوّر الجمال من الجانب الأدبيّ بأشكال مختلفة، و لعلّ أدب الرّحلة قد حظي بالوافر منها، فطول زمن الرّحلة قديما، و بطء ديناميتها، يجعل من منشئها(الرّحالة) يتعاطى مع كلّ منظر استوقفه فراقه، أو مكان نال إعجابه، راصدا له لإضفاء صورة انفعاليّة في حالة انتشاء، فيعمد إلى الإطناب و الاسترسال مرّة، و يجمّلها بألوان من البديع أخرى، فتتفرّد بذاتها(عملية استشعار الجمال) غير مباليـة بحكي أو سرد، إذ يتكـاثف المجاز و المشابهة و الاستعارة و الزّخرفة اللّفظيّة (البديع)، لتنشئ صورة متكاملة تعزى إليها وظيفة نقل القصد المضمر للرّحالّة، ليتماهى مع ظاهر الصّورة المنقولة للمتلقّي، الّذي يرصده بذوقه الخاصّ فيعيد تحليلها ثمّ تركيبها، ليستبين معاني الجمال فيه ظاهره و باطنه(المضمر).

---

1 ينظر: صالح أحمد الشّامي، الظّاهرة الجماليّة في الإسلام، المكتب الإسلاميّ ، بيروت، ط1، 1407هـ/1986م، ص ص 23-24.

2 سورة النّحل، الآية 06.

احتفى الرّحّالة– رحمه الله – بألوان البديع الّتي تجمّلت بها الرّحلة و تزيّنت، وعلى رأسها السّجع، الّذي طغى على متن الرّحلة فهو " **في النّثر كالقافية في الشّعر، و أصله اعتدال في مقاطع الكلام**"[1]، و ذلك ديدن الرّحّالة في ذلك الزّمان، إذ يقول: " **و منهم ذو الفضل العظيم و الخير العميم، الولي المشهور و السرّ المأثور**"[2]، واصفا الولي الصّالح سيدي العلمي الجودي، المولود في آخر القرن العاشر، و يقول في وصف مدينة زمّورة" **و زمورة كثيرة المياه، و أرضها ذات زرع و ضرع بلا اشتباه، طعامها جيّد، و سوقها عامر مفيد، و فيها برج للنوبة من التّرك، حفظها الله تعالى من أكابر المعاصي و الشّرك، و فيها قائد و لأهلها سائد...**"[3]، كثيرا ما تثير المناظر و الأفعال و الأماكن الجميلة مشاعر النّاظر فتنشئ الخطاب الإنفعالي م، و هو الرّحّالة في هذا المقام، الّذي يروم به التّعبير عن مظاهر الحسن و الجمال، من خلال تذوّقها و التّعاطي مع كينونتها و كنهها، الّذي لا يراه إلّا هو في آنه، فقد لا يشاركه فيه الرّأي غير هو و إن حيز له حظّ رؤياه في الوقت ذاته، فمعيار التّذوّق لا يتأتّى إلّا لمن امتلك حاسّة استشعار الجمال، فالتذوّق، فالانفعال، فالتّعبير. أمّا الصوّر البيانيّة من مجاز و مشابهة و استعارة... ، فقد سبق التطرّق إليها في الصّورة الفنيّة.

تفنّن الرّحّالة – رحمه الله – في تعداد ألوان الجمال، و طريقته في التّعامل معها استحسانا و تبرّكا، ففي وصفه عود الأراك أو السّواك– الّذي أعطاه إياه أحد الصّالحين– دليل على تنامي مكنون الجمال في نفسه إذ يقول: " **كأنّه عود الأراك أو من الرّيحان فلم أميّزه لما فيه من اليبس، فلمّا وصل إلى يدي شممت منه رائحة المسك، بل أقوى رائحة، و تلك الرّائحة لا نظير لها كافورا أو عنبرا أو زبدا أو مسكا، فهو أي ذلك العود يعبق شذاؤه**"[4]، و هكذا يستدلّ الرّحّالة دلائل الجمال بشعوره الخاصّ، فعملية تذوّق الجمال تختلف صعودا و نزولا.

1 مأمون محمود ياسين، في البلاغة العربيّة، من روائع البديع، دار الفكر العربيّ، دبي، ط1، 1997م، ص69.

2 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، ص 64.

3 المصدر السابق، نفسه، ص 108.

4 نفسه، ص 620.

تمايزت أنماط الوصف الجمالي على قدر جمال الأمكنة، و مكانتها في نفوس النّاس عامهم و خاصّهم، خاصّة في وصفه جمال الأمكنة المقدّسة، و الوصف هنا هو مجرّد امتثال لخلفيّة مرجعيّة، كونها وشما مسبقا راسخا في الذّاكرة، يستحضر أثناء الوصف مكرّرا لصورة ذهنيّة سابقة، تمثّل تطابق العمران الإسلاميّ خاصّة المقدّس منه[1]، مضفيا عليه من الطّباق" **و هو الجمع بين الشّيء و ضدّه**"، نحو قوله:" **ثمّ أقول كما قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصّه فشاهدنا البيت العتيق الّذي تزيح أنواره كلّ ظلام و قد تدلّت أستاره، و أشرقت أنواره، و قد شمّر البرقع عن أسافله...**"[2]، في ظاهر الكلام أنّ الظّلام عكس النّور و ضدّه، أمّا من حيث المعنى البلاغيّ المضمر(النّسق المضمر) فجمال الشيء فيتبدّى بمنافسة ضدّه، و الضدّ بالضّدّ يعرف، و في وصفه سانية قرن الزّعفران بمدينة سيرت اللّبيّة فيقول: " **رأينا سانية غزيرة الماء... وهي أحساء في مدخل البحر، ماؤها طيب و عليها كثبان من رمل أحمر تظهر من بعيد من وراء الكثبان من ناحية البرّ قصور سرت تخزّن فيها الأعراب ميرتها أي أرزاقها و هي الآن خالية لا عمارة بها**"[3]، تشكّل عمارة و خالية ثنائية متضادّة، نسقها المضمر يتضمّن التّحوّل من حال إلى حال، من حال العمارة إلى الخراب، ما يستدلّ منه على استحالة حال الأمور الدنيويّة، فمهما طال عمرها فهي تزول و تفنى، و يتجلّى الطّباق بكثافته اللّغويّة العاكسة لقوّة التّدبيج البلاغيّ للرّحّلة في قوله: " **إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوّله و آخره، قديمه و حديثه، خطأه و عمده، صغيره و كبيره، سرّه و علانيّته**"[4]، و هذا اقتباس من حديث الرّسول صلّى الله عليه و سلّم لعمّه العبّاس رضي الله عنه، حول ما يسمّى بصلاة التّسبيح، فأورد الثنائيات المتضادّة (أوّله، آخره)، (قديمه، حديثه)، (خطأه، عمده)، (صغيره، كبيره)، (سرّه، علانيّته)، فجاء النّسق المضمر دلالة الامتداد و الشموليّة.

1 ينظر: عيسى بخيتي ، أدب الرّحلة الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 575.

2 الحسين الورثيلاني، الرّحلة، ص 452.

3 المصدر نفسه، ص 263.

4 نفسه، ص 822.

يلجـأ المؤلّـف أثنـاء إنشـاء خطابـه إلى تفعيـل آليـات التّزويـق" **و يـعمـد إلـى الـزّخـارف و المحسّنـات، و يأتي الوصف في صورة محايدة، لا يعكّر صفوها حدث من أحداث السّرد**"[1]، فجاءت بعض الألفاظ يشاكل بعضها بعضا في اللّفظ، و هو ما يسمّى في البديع الجناس"**و هو تشابه كلمتين في اللّفظ مع اختلاف المعنى، و ينقسم إلى تام و ناقص**"[2]، فنجـده فـي قولـه" **أن تـحصـل لـهـذا رتبـة الشّهـادة أليـس الغريـق و الحريـق و ذو الهـدم و المبطون و غير هؤلاء كلّهم قد ورد أنّهم شهداء**"[3]، بين الغريق و الحريق، جناس ناقص، فهذا المحسّن البديعيّ اللّفظيّ في ظاهره لتحسين المعنى و في باطنه (نسقه المضمر) تبيين حكم من مات حريقا أو غريقا فيجمعهما حكم الشّهادة في سبيل الله، إلى جانب تحقّق التّوافق اللّفظيّ و الإيقاعيّ الّذي ينشئ جرسا موسيقيّا متناغم الأصوات، ممّا يكسب النّصّ حيويّة و تجدّدا، و يخرجه من رتابة الرّكود و الجمود و الملل.

يتّفق الذّوق البشريّ على وجود الجمال، لكنّه يختلف في تعريفاته، و مردّ ذلك صعوبة مفاهيمه و تشابكه، فهو معنى من المعاني الّتي تقوم على غيرها و ليس على نفسها، حتّى يتجلّى في الإنسان، و في الأشياء، و أفعال النّاس، و تصرّفاتهم، ... لأنّه يختلف باختلاف المتذوّقين له و طريقتهم في ذلك"[4]. ليس ثمّة معيار لتذوّق الجمال، و لكلّ نظرية و وسيلة في التّعبير عنه، و لعلّ ما يجمّل رحلة الورثيلاني الإطناب، رغم أنّ بعض الدّارسين وجد فيه حشوا كبيرا، فالإطناب في اللّغة حسب ما جاء في لسان العرب:" **هُوَ الْبَلَاغَةُ فِي الْمَنْطِقِ وَ الْوَصْفَ، مَدْحًا كَانَ أَوْ ذَمًّا، وَ أَطْنَبَ فِي الْكَلَامِ بَالَغَ فِيهِ، وَ الْإِطْنَابُ: الْمُبَالَغَةُ فِي مَدْحٍ**

1 عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائريّة الحديث، مرجع سابق، ص 474.

2 مأمون محمّد ياسين، في البلاغة العربيّة، مرجع سابق، ص45.

3 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص 307.

4 ينظر: صالح أحمد شامي، الظّاهرة الجماليّة في الإسلام، مرجع سابق، ص ص 23-24.

أَوْ ذَمٍّ وَ الْإِكْثَارُ..."[1]، إذن ليس المعنى سلبيّا كما يفسّره بعضهم، بل هو من دلائل بلاغة المتكلّم.

أمّا في الاصطلاح البلاغيّ فهو" **زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة**"[2]، و لأنّ المبالغة في المدح أو الذمّ من شروط التّصوير الفنّي الأدبيّ، فلا يصحّ في الأدب وصف الممدوح أو المذموم دون زيادة او نقصان، و إلّا انتفى عن الأدب تأثيره الجماليّ المؤثّر في النّفوس الذوّاقة، وقد حفلت الرّحلة الورثيلانيّة بوافر الإطناب في مواضع لا حصر لها، ففي زيّارته لأضرحة الصّالحين استفاض في مدحهم، إذ يقول:" **زرت الشّيخ أبا الجملين في المسيلة افاض الله علينا من بركاتهم و أعاد علينا من أنوارهم**"[3]، و في زيارته قبر سيدي يحي العبدلي قال:" **و مررنا على قبر الوليّ الصّالح و القطب الواضح رحمة وطننا وغيث بلدنا**"[4]، و قد قيل" **لعمرو بن العلاء(ت 154هـ/ 770م) هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم، كانت تطيل ليسمع منها، و توجز ليحفظ عنها**"[5]، و على هذا المنهج سار الرّحّالة الشّيخ الحسين الورثيلانيّ في تدوين رحلته، فأطنب غالب الأحيان مادحا، و ذامّا في بعضها، إذ يذكر حالهم أثناء الإحرام فيقول: " **فآن إحرام الكلّ فشمّرنا عن ساعد الجدّ، ليتأهّب جميعنا لما فيه الكمال بالكدّ، رمينا ما كنّا بصدده من مجاورة الضدّ، و نبذن اما كنّا عليه من مجاوزة الحدّ، بل طوينا مسافة الإعراض، و متابعة الدّنيا و ما فيها من الأغراض**"[6]، و ممّا أورده في ردّ سفيان الثّوريّ على رسالته هارون الرّشيد" **فأمّا بعد فإنّي قد صرمت حبلك و قطعت ودّك**

---

1 محمد بن مكرم بن منظور جمال الدّين أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 2010، مادة(طنب) ، ج1، ص 562.

2 ضياء الدّين بن محمد بن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب و الشّاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّباعة و النّشر و التّوزيع، الفجالة، القاهرة، 2010، ج2، ص 344.

3 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص16.

4 المصدر السّابق نفسه، ص19.

5 الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكريّ، الصّناعتين، الكتابة و الشّعر، تح: علي محمد البجاويّ، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، 1952م/ 1371هـ، ط1، 1952م، ص 211.

6 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، مصدر سابق، ص 443.

و خليت موضعك، في ظاهر الإطناب ذمّ لأفعال هارون الرّشيد، و في باطنها دعوة للزّهد و التّقشّف و حفظ الأمانة.

1-5- بنية الحكي في الرّحلة الورثيلانيّة:

احتوت رحلة الشيخ الحسين الورثيلانيّ بين طيّاتها عديد الحكايات، و أوردها على أشكال مختلفة، فمنها الخياليّة، خاصّة تلك الّتي سمعها من غيره، أو حقيقيّة عاشها و عايشها، أو شاهدها أثناء رحلته، فيوردها بحذافيرها لكونه طرفا فيها، و تتفرّد كلّ حكاية بأسلوبها، فيتراوح بين الوصف الموجز، و الموجز المكثّف، و الطّويل المفصّل، و قد أورد الرّحّالة معظم حكاياته مكثّفة الأحداث، واضحة المعاني، معلومة الشّخوص، زاخرة بالأفكار، مثيرة انفعالات كثيرة.

ممّا يزخر به أدب الرّحلة- و الّذي يصنّف من الأدب التّراثيّ- تداخل الأجناس الأدبيّة، و تحظى الرّحلة بوافر الحظّ منه، ممّا يوجب الالتفات إليه، و العناية به، في إطار البحوث الجادّة، فالرّحالة أثناء سفره و انتقالاته يعاين الأنساق المتنوّعة للحياة، فيمتزج التّاريخ و الدّين، و عادات الشّعوب و تقاليدها في بوتقة واحدة مشكّلة متن الرّحلة، و البحث في بنية الحكاية بغية إثبات تلك العلاقة الوطيدة، و المتلازمة بين الرّحّالة و الحكاية، الّتي وصلت ذروة فنيّة، و ذلك" **لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرّحّالة و بلوغه حدّا كبيرا من الدّقّة، علاوة على عملية الأسلوب القصصيّ السّلس و المشرق**"[1]، ممّا أكسب الجانب الحكائيّ في الرّحلة فاعلية كبرى، في تشكيل أرضيّة خصبة تثير الانفعال و الجاذبيّة لدى المتلقّي، من خلال تأثير عامل التّشويق، الّذي صاغ به الرّحّالة فنيّات الحكايات الّتي أوردها، و قد الإشارة إلى ذلك في حديثنا عن العجائبيّ في الرّحلة، و ما حملته من المغامرة و المجازفة بغريب أحداثها و عجيبه،

1 حسين محمّد فهيم، أدب الرّحلات، عالم المعرفة، الكويت، دط، د.ت، ص17.

حيث ربط المألوف بغير المألوف(ما رواه في قصّة أولئك الّذين باتوا في أرض أحد الصّالحين دون استئذان فماتت جميع خيولهم، و خرجوا منها يحملون سروجهم على أكتافهم).

1-5-1- بنية الحكاية التّاريخيّة و الاجتماعيّة:

يحاول الرّحّالة من خلال ترحاله، و تنقّلاته رصد الأحداث التّاريخيّة لكلّ الأفراد و المجتمعات الّتي خالطها، فسمع منها، أو طالع بعضا من أخبارها التّاريخيّة المكتوبة، بما يشكّله من دلائل و قرائن يستعين بها صاحب الرّحلة في تكثيف متن رحلته، فتصدر في شكل سرديّ غاية في الحبك، تعكس الوضع الإنسانيّ الإثني و الثّقافيّ، الاجتماعيّ و السّلوكيّ، و الاقتصاديّ، لدى أمّة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات.

يذهب الشّيخ الورثيلانيّ في عرضه لتاريخ المجتمعات السّابقة، إلى إثنية الأجناس المتصاعد تاريخها عبورا إلى ما وراء العصور الغابرة، كتاريخ طغاة التّاريخ أمثال " **فرعون** مصر"، أو من يلقّب بفرعون" موسى" عليه السّلام، في احتفاظه ببعض التّربة الّتي ماتت فيها الضّفادع الّتي سلّطها الله عقوبة على فرعون و قومه من بين العقوبات التّسع، فيقول: "**و حكي أنّ فرعون لعنه الله كان يفتن النّاس بها فيعدّ تراب فرائسها فيحفظه عنده و يعدّ مطر النّيسان في قوارير و يقيم عليه وكيلا و إذا أراد فتنة أحد أمر قيّم التّراب فيأتيه بقبضة منه، و يأمر الآخر فيأتي بشيء من مائه فيجعله في يده و يضمّها عليه مدّة حتّى يحسّ بتكوينه ضفدعا، فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدّعي أنّه خلقها عليه لعنة الله و الملائكة و النّاس أجمعين**"[1]، كما أورد ذكر تاريخ مدينة الإسكندريّة حسب ما ورد في الحديث الّذي أخرجه ابن الحكم عن عبد الله بن بن عمرو بن العاص:" **قال كان أوّل من عمرها و بنى فيها فلم تزل على بنائه و مصانعه إلى أن تداولها الملوك، ملوك مصر بعده**"[2]، و يسترسل في ذكر ما سمعه من حكايات عنها إذ يقول:" **فلمّا ظهر سليمان بن داود عليهما الصّلاة و السّلام**

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص303.

2 المصدر نفسه، ص648.

على الأرض اتّخذ بها مسجدا، ثمّ إنّ ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك و الفراعنة و غيرهم إلّا بناء سليمان بن داود لم يغيّره و لم يهدمه و أصلح ما كان خرب منه و أقرّ المنارة على حالها ثمّ بنى الإسكندريّة من أوّلها"[1]،

تجمع الحكايات المذكورة تفاصيل تاريخيّة، عن بناء مدينة الإسكندرية و تاريخه، إذ تبيّن مدى اهتمام الرّحّالة بتقصّي أخبار أعلام التّارخ الإنسانيّ، و سعة اطّلاعه، من خلال سرده تاريخ بناء مدينة الإسكندرية، و مختلف الحكّام الّذين ساهموا في إعمارها عبر العصور المختلفة، إذ تتماهى الأحداث، و تتشاكل لأجل توصيف المدينة من خلال الأخبار المنقولة، حقبقة مشهودة(ما رآه من عمرانها) أو ما بلغه من أخبارها، فلا يتدخّل فيما ينقله، بل يكتفي بسرده بأمانة مطلقة، و محايدة، فلم يظهر توافقا مع رواية، و لا اعتراضا على أي خبر عنها، و يختتم ما أورده عن مدينة الإسكندرية بالحديث عن بناء منارته من طرف كليوبترا الملكة، و أهمّ المساجد الموجودة فيها، ثمّ ينتقل للحديث العام عن المدينة و أهمّ منشآتها، و مرافقتها، و موقعها... و مختلف عجائبها.

تعدّدت الرّوايات حول مدينة الإسكندرية ذاتها بتعدّد الروايات، فالحكي يخضع للاخذ و الردّ من طرف عديد الرّواة لأنّ" **تعدّد الرّواة يؤدّي غالبا إلى تعدّد وجهات النّظر حول قصّة واحدة"[2]**، و قد تمركز الحكي هنا حول مكان واحد، و هو مدينة الإسكندريّة، و تاريخها و حكّامها و مجتمعاتها، لأنّ الرّحلة تقوم على " **تقديم معرفة متنوّعة مباشرة عن المعلومات الأدبيّة و التّاريخيّة و الجغرافيّة و الإثنوغرافيّة**، و **غير مباشرة يتشكّل من آراء و مواقف**

1 نفسه، ص648.

2 حميد لحميداني، بنية النّصّ السّرديّ، من منظور النّقد الأدبيّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، ط3، 200م، ص49.

الرّاوي عن ذاته و عن الآخرين"[1]، و بذلك صحّ تسميّة الرّحلة بالتوليفة الموسوعيّة الجامعة لشتّى العلوم و الفنون.

يذكر الورثيلانيّ في رحلته أوضاعا اجتماعيّة كثيرة، منها ما استحسنه، و منها ما استهجنه، كأحوال بعض النّساء في اختلاطهم غير المشروع بالرّجال، فيما لاحظه أثناء ترحاله ذهابا و إيّابا، لكونه رجل دين، فهو الإمام الفقيه المتصوّف، الّذي نشأ في بيئة محافظة، لا يمكنه استصاغة بعض المظاهر الّتي وجد عليها على بعض المجتمعات الّتي تنتسب إلى الإسلام بالظّاهر فقط، و كان يراها جاهلة بعيدة عن الدّين، فيورد ذكر بعض نّساء منطقة زمورة، إذ هي على مسيرة يومين من بلدته، و قد وصفها بوفرة الشّجر المثمر و النّخيل، كثيرة الأمطار و العيون و مع ذلك فهي كثيرة المعاصي[2]، إلى أن يقول عنها:"**و قلّ الحكم فيها و ارتفع، و زاد لما ذكر فنساؤهم باديات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن لأنّه من أعظم الآفات**"[3]، فالرّحّالة و هو يمتدح البلدة(زمورة) و ما حباها الله به من نعم، يستهجن ما كانت عليه نساؤها من سفور و تبرّج، ففي النّسق الظّاهر إفتاء بضرورة التّحجّب و السّتر، و في نسقه المضمر غيرة الرّجل الشّريف على نساء بلده، و الحفاظ على كرامتهن بالدّعوة للاحتشام.

اهتمّ الرّحّالة لأمر الظّروف الاجتماعيّة، و العادات و التّقاليد، فأورد طقوس الزّواج في المدينة المنوّرة، حيث يزفّ الزّوج إلى بيت زوجته إذ " **المعتاد في كثير من البلاد أنّ المرأة هي الّتي تزفّ إلى زوجها و أنّ الدّخول في بيت الزّوج، و عند هؤلاء لمّا كانت العادات الدّخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزّوج هو الّذي يزفّ، فإذا ذهب الزّوج ذهب من بيت الزّوجة إلى بيته، و أخذ في إطعام النّاس طعام الوليمة، و جاء النّاس لتهنئته، و في اللّيلة المقبلة تأتي**

1 شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربيّ، التّجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل، رؤية للنّشلر و التّوزيع، 2006م،ط1، ص 272.

2 ينظر: الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص 109.

3 المصدر السّابق نفسه، ص 109.

الزّوجة من دار أهلها إلى دار الزّوج، و لكلّ قطر عادة"[1]. يذكّر الرّحّالة ما اعتاده النّاس في حال الزّواج، من انتقال المرأة إلى بيت الزّوج، عكس ما يحدث في المدينة المنوّرة من عادات، و لا يجد في ذلك ضيرا و لا ما يخالف الشّرع، إنّما هي العادات الثّابتة لدى كلّ مجتمع، و هذا ما يجعلها ثابتة مقبولة في بيئة المجتمع المدنيّ.

تحقّقت بنية السّرد فيما يحكيه الشيخ الورثيلانيّ، عن الوضع الاجتماعي للمرأة في المجتمع الإسلاميّ، و ديناميّة اختلافه باختلاف البيئات، فأولى أهميّة كبيرة لذكرها و ذكر ما يخصّ أحوالها المختلفة.

1-5-2- بنية الحكاية الحلميّة:

حظيت الحكاية الحلميّة باهتمام كبير من طرف الشّيخ الحسين الورثيلانيّ، و هي إمّا ما رآه الرّحّالة في منامه، أو ما سمعه من رؤى و أحلام الآخرين، تصل في بعض الأحيان إلى العجيب أو الغريب الّذي يحتلّ حيّزا كبيرا من بنية السّرد الحكائيّ محقّقا بذلك" **وظائف خاصّة تنتمي للفكرة العامّة الّتي يقترحها النّصّ، بل إنّ توليد منامات مشحونة بفعل السّفر، تعمل في بعض النّصوص على تحقيق المنام الرّئيس، الّذي يعرضه الرّاوي في ابتداء النصّ، فكأنّنا بإزّاء وحدات حكائيّة مجترأة تنضمّ لبعضها مشكّلة بذلك الإطار الفاعل المحتضن للمشهد الحكائيّ الرّئيس**"[2]، و يخضع الحلم المحكيّ إلى ما يسمّى بالتّأويل استكمالا لآليات السّرد، و لا يتعدّى الحلم كونه" **تجربة سمعيّة أو بصريّة تروى على أنّها حدثت أثناء النّوم**"[3]، و الحلم يختلف عن الرّؤيا حسب ما جاء في الأثر، إذ أنّ" **الرؤيا من الله و الحلم من**

1 نفسه، ص589.

2 رعد النّاصر ، المنامات في الموروث الحكائيّ العربيّ، دراسة في النّصّ الثّقافي و البنية السّرديّة، المدرسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص168.

3 فدوى مالطي دوجلاس، بناء النّصّ التّراثيّ(دراسات في الأدب و التّراجم)، سلسلة دراسات أدبيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب 1985، د.ط، ص151.

الشّيطان"[1]، فالرؤيا الصّادقة من ميراث النبوّة، الّتي اكتمل أمرها و انتهى بوفاة النبيّ صلّى الله عليه و سلّم، و قد ورد ذكر الرّؤية في سورة يوسف عليه السّلام في قوله تعالى: **{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}**[2]، و صار تأويل الرّؤى علما مؤسّسا له، و قد ورد ذكر تأويل الرّؤى في السّورة ذاتها(سورة يوسف) في قوله تعالى:"**{ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}**[3]، و قد ورد في القرآن الكريم عديد الآيات الّتي تتحدّث عن الرّؤيا و تعبيرها، و يبقى تأويلها مرتبط بالتّوحيد و المقدّس و الدّينيّ، لارتباط معنى التّأويل بالآية، أمّا في الثّقافات الأخرىفقد ارتبط بالفلسفة، و لا علاقة له بالدّين[4]، و يعتدّ بها كثيرا "**إذ تشكّل الرّؤى و الأحلام جانبا هامّا من نصوصنا السّرديّة، نجدها في الحكايات الشعبيّة، و رسالة الغفران، و رسالة التّوابع و الزّوابع، و منامات الوهرانيّ، و ليالي ألف ليلة و ليلة، و الحكايات العجائبيّة، و قصص الأنبياء، و كتب الأخبار و الرّحلات**"[5]، فما من رحّالة إلّا جعلها من آليات تدبيج متن رحلته، ففيها استشراف لما سيقع من أحداث مستقبلا.

أورد الورثيلانيّ كثيرا من رؤيا الأولياء و الصّالحين و الفقهاء، منها ما رآه أحد الصّالحين – حسب ما أورده عن الشّيخ أبي سالم – في قضيّة إنكارهم خروج أهل المدينة إلى جبل أحد في رجب، و رآه من البدع حتّى" **رأى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و هو يدخل و يخرج من**

1 محمد بن سيرين، منتخب الكلام في تفسير الأحلام، مكتب البحوث و الدّراسات، دار الفكر للنّشر و التّوزيع،2010م، ص385.

2 سورة يوسف، الآية 04.

3 سورة يوسف، الآية 21.

4 ينظر: ألكسندر بوريلي، أسرار النّوم، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، سلسلة عالم المعرفة، رقم163، يوليو1992م، ص89.

5 جميلة روباش، أدب الرّحلة في المغرب العربيّ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة دّكتوراه علوم في الأدب الجزائريّ القديم، إشراف أ.د محمد بن لخضر فورار، جامعة محمد خيضر ، بسكرة، السّنة الجامعيّة 2015–2016، ص104.

الحجرة، و يقوم و يقعد، كفعل المتهيّء للسّفر، و أثاث السّفر معدّة بين يديه، فقال له: يا رسول الله ما هذا الّذي أرى، أتريد الانتقال عنا و الخروج من المدينة، قال: لا، إنّما أريد الخروج لزيارة عمّنا حمزة مع أهل المدينة، أو كلاما هذا معناه، فانتبه الفقيه من نومه، و تهيّأ للخروج مع النّاس، فتعجّبوا من ذلك و سألوه فأخبرهم بذلك"[1]، فكلّ أمور المسلمين متعلّقة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم تعلّقا روحيّا معنويّا، و في هذه الرّؤية إشارة إلى أنّ فعل أصحاب المدينة لا يخالف الشّرع، و أنّه مستحبّ.

في الرّؤى كثير من الاستشراف بناء على ما سيكون، و إن لم يستطع صاحبها تأويلها كما يجب، لكنّها صادقة للأولياء، كرؤية سيدي علي بن عبد الرّحمن البجائيّ، فيقول الورثيلانيّ:" **و سيدي علي هذا سمعت منه أنّه قال رأيت فاطمة الزّهراء في النّوم فقالت أنت من جيراننا، ثمّ إنّه ذهب إلى الحجّ و مات في المدينة المشرّفة و دفن في البقيع"**[2]، صدق الرؤيا للصّالحين و تحقّقها يبلّغها درجة الكرامة، و يضفي عليها قداسة مخصوصة، تتلاءم و صلاح الولي و رفعة مكانته بين الخلق.

يبدو من خلال الرّؤى الاستشرافيّة كأنّ" **الحالم يحقّق في أحلامه زمنا عجائبيّا يجب أن يتلقّاه المتلقّي بالتّصديق، و قد يتماهى في بعض الأحيان معه"**[3]، و تزيد مصداقيّة الرّؤيا كلّما تحقّق جلّها أو بعضها، فتصبغ على صاحبها صبغة الكرامة.

ينوّع الرّحّالة الورثيلانيّ في إيراد الرّؤى و الأحلام، فيورد رؤيا سيدي محمد بن القاضي الملقّب أبا وعثوش الّذي حكى له رؤياه بقوله: " **أنّي رأيته صلّى الله عليه و سلّم، و كنت أسأله الشّفاعة أو كلاما هذا معناه، و أعيد له ذلك المرّة بعد المرّة حتّى قال لي أنّي شفعت**

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص555.

2 المصدر نفسه، ص24.

3 ضياء الكعبي، السّرد العربيّ القديم، الأنساق الثّقافيّة و إشكاليّة التّأويل، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص72.

فيك أو أنّك مغفور لك أو لا تخف"[1] فأوّل ذلك ببشارة خير، فيها المغفرة و الشّفاعة، لأنّ رؤيا النبيّ صلّى الله و سلّم حقيقة حسب ما ورد في الحديث النّبويّ، و حسب ما ذكره المعبّرون، كابن سيرين[2] مستشهدا بحديث النبيّ صلّى الله عليه و سلّم:" **من رآني فقد رآني حقّا، و لا ينبغي للشيطان أن يتصوّر بصورتي**"[3]، فرؤيته صلّى الله عليه وسلّم حقّ و صدق.

تتحقّق الرّؤى لأصحاب الكرامات، من أولياء و صالحين، كما لو أنّها واقع مشهود، يحكي الرّحّالة" **قال أخبرنا شيخنا أبو مهدي عيسى الثّعالبيّ عن بعض مشائخه أنّ سيّدي عبد الوهّاب الشّعراني عزم مرّة على التّخلّف عن مولد سيدي أحمد البدويّ و أن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر ، فلمّا عزم على ذلك و قرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشّيخ سيدي أحمد البدوي و خليفته من بعده، فقال له مباسطا: يا عبد الوهّاب لا تنقطع عن زيّارتنا و نحن نطعمك ملوخية، و اتّفق أن ذهب الشّيخ عبد الوهّاب ن و لمّا بلغ المكان المقام فيه المولد عشاءهم ملوخية، و أنّ القائمين على المولد و الأسر، والقرى المجاورة لم يطبخوا غيرها فطعم منها**[4]، فتحقّقت الرؤيا كما هي، ليسرد بذلك حكاية كرامة احتوتها رؤيا و جسّدتها الحقيقة، فبنيتها الرّوحيّة هي بنيتها الواقعيّة، دلالة على تحقّق

الكرامات لأصحابها حتّى بعد مماتهم.

يرتبط النّصّ الغيبي المناميّ ارتباطا وثيقا بالاستشراف لما سيكون، فيتحوّل النّص المحكي المرتبط بقدسيّة المرئيّ له من متخيّل من عالم اللّاملموس، لينتج حقيقة انتقلت من زمن و مكان المتخيّل إلى عالم الواقع المشهود عن طريق الحكي.

---

1 الرّحلة، ص ص 556-557.

2 ينظر: محمد بن سيرين، منتخب الكلام في تفسير الأحلام، مرجع سابق، ص313.

3 المرجع نفسه، ص 313.

4 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص ص556-557.

يتشكّل النّصّ الرّحليّ المنتج من كلّ ما هو واقعي و استيهامي، و الحلم و الرّؤية يشكّلان شيئا واحدا، لكون بعض الرّحلات تنتمي إلى الحلم، الّذي تعود مرجعيته إلى الذّات الحالمة(الحالم)، إذ أنّ الحلم منصهر في النّسق الثّقافيّ و الدّينيّ[1]، إذن فلا غنى للنّصّ الرّحليّ عن الحلم، مهما كانت مصادره، سواء كانت للرّحّالة ذاته أو محكيّة له بطريقة ما، فيوردها مبثوثة بين ثنايا رحلته.

2-الأنساق المعرفيّة :

2-1-الفضاء الجغرافي بين الوصفين المعرفيّ و الفنّيّ:

اشتغل الحسين الورثيلاني بوصف الأمكنة و الأمصار التي زارها لأجل ملء الفراغ الذي كان ينتابه أثناء رحلته، و للتّخفيف من وطأة الحنين و الغربة عن الوطن، فأسقط مشاعره على تلك الأماكن، لينشئ خطابا وصفيا مسخرّا لذلك المستويين اللّغوي و المعجميّ، موظفا آلياته الفعاّلة محددا خصائص كلّ مكان نزل به، أو علم به من غيره ...، الوصف الّذي هو عملية تجسيم لتلك الأمكنة من خلال رؤيته الذّاتية، و منظاره الخاصّ .

تختصّ الجغرافيا بدراسة الأماكن ومواقعها و خصائصها، فلا تكاد أيّ رحلة من الرّحلات تخلو منها، فينتهج الرّحالة الوصف، الذي ترتسم من خلاله صوّر تلك الأمكنة في أذهان السّامعين أو القارئين، مرتدة عن الرؤية الوصفيّة لبؤرتها في مخيّلته، أثناء عمليتي الوصف أو السّرد.

يكتسي الوصف لدى الرّحالة صبغتين، أولى منظورها خاصّ بحسب ما كان يحياه في ذلك المكان من يسر أو صعوبة، سعادة أو حزن، و ما طبع في ذهنه عن ذلك المكان، بل روح المكان، و صبغة ثانية و هي مارسخ في ذهن المتلقّي حول ذلك المكان بكل حيثانية الوصفية و السّرديّة، و من ثم كانت الصبغة الأولى نسقا مضمرا و الثانية نسقا ظاهرا .

1 ينظر شعيب حليفي، الرّحلة في الأدب العربيّ، مرجع سابق، ص 418.

يختلف الخطاب الرّحلي عن بقية الخطابات، إذ أنّه يؤسّس لعلوم مختلفة غير متعمّد ذلك، فالرّحالة مثلا حين يرصد للمتلقّي الأمكنة لم يكن غرضه علم الجغرافيا في حدّ ذاته، بل يقصد من وراء الوصف الذي يقدمه التّوصيف لتجربته فنيّا و لغويّا .

تتميز الرّحلات على اختلافها بطغيان السّرد، الذي يجعل منه الرّحّالة استيراتيجية لتشكيل الحيّز المكاني، و ليس الوصف إلّا عنصرا من عناصر السّرد، و هو ركن رئيس في عملية التأسيس للعمل الحكائي، لذلك قصوره أو تذبذبه يؤدّي إلى اختلال عملية السّرد " **ممّا يحدث خللا داخل الإيقاع الزّمني و يحمله على مراوحة مكانه دون أن يفرغ الوصف من مهمّته لكي يستأنف مساره المعتاد** "[1]، فالوصف عنصر بنائي هامّ يساعد على استكمال عمل بقية الأنساق الحكائيّة ظاهرها و مضمرها .

تتشكّل صورة المكان في ذهن المتلقي من خلال وظيفة الوصف (وصف المكان) الّتي يقوم بها الرّحالة، قد نظّر له الكثيرون، من بينهم حميد لحميداني الذي حدّد مهمّتين أساسيّتين " **فالأولى جماليّة (تزيينية) و يشكّل الوصف فيها استراحة في وسط الأحداث السرديّة، أمّا الوظيفة الثانيّة فهي الوظيفة (التفسيرية)حيث يكون للوصف رمزية دالّة على معنى معين في سياق الحكي** [2]"، فحسن الوصف من حسن إقناع المتلقي، و دفعه لحسن القراءة و من ثمّ تتفتّق آفاق التّأويلات، ممّا يكسب النّص الرّحلي دلالات جديدة، لبيئات مختلفة، و إيديولوجيات متباينة .

ذكر الرّحّالة مدنا كثيرة زارها أو نزل بها، ممّا شكل كتلا جغرافية، اهتمّ بتجسيدها من خلال عملية الوصف كمدينة تونس الّتي قال عنها " **لمدينة تونس سور يدور بها و يقال، إنّ دورها أربعة و عشرون ألف ذراع و جامعها مليح الصناعة حسن الوضع مطلّ على البحر بناه**

1حسن بحرواي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 2009، ص ص 176-177

2حميد لحميداني، بنية النّص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص79.

عبيد الله بن الحجّاج هو و دار الصناعة سنة أربعتة عشر و مائة ألف يطّل عليها البحر و تونس في سفح جبل[1] "، فمن الأنساق الظّاهرة التي يمكن للمتلقّي استنطاقها العمران السّاحر لمدينة تونس، الذي يستقطب انتباهه و تفكيره اللّامتناهي عبر جغرافية المكان الموصوف، فيتنامى عنصر التشويق لدى المتلقّي، ممّا يجعل المكان المرسوم في خياله يتماشى مع الحقيقة، بينما يتشكّل النّسق المضمر في تجلّي تأثير المكان على وقع نفس الرّحالة، الذي ارتسم فيه بكل حيثياته حتّى رصده مجسّدا في ذهنه، من خلال بؤرة الوصف المحكم الدّقيق، لتتأصّل جغرافيته بجمالها في ذهنه و تنشأ الرّغبة لدى القارئ في زيارة ذلك المكان .

أسرف الورثيلاني في وصف الأمكنة الّتي نزل بها أو شاهدها، من المدن التي وصفها عند زيارته لها مدينة طرابلس التي قال عنها : " **و مدينة طرابلس مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، يضرب في سورها ماء البحر، و هو من حجر جليل من بناء أوّل، و من طرابلس إلى جبل نفوسه ثلاثة أيام، و من جبل نفوسة إلى القيروان ستة أيّام** "[2]، لجا الرّحالة إلى تقنية التّشويق لجلب انتباه المتلقّي إلى التّحفيز و التّرغيب من خلال عملية المسح البصريّ للمدينة باعتبارها حيّزا جغرافيّا أثريّا، و المشاهدة العينيّة لهذا المكان أكسبته مصداقية خاصّة لكون الوصف البصريّ أصدق مرآة عاكسة للواقع المرئي.

قصد الورثيلاني في طريقه أثناء رحلة الذهاب أماكن عديدة، منها مدينة بسكرة و لأن المكان يحتوي الاشياء الحسيّة التي تؤثر في نفسيّة المتلقي ففي نسقها الوظيفي الظّاهر تسويق، فأثناء تنامي العلاقة بين المتلقّي (المستمع أو القارئ أو النّاقد) و المكان الّذي يورد وصفه بطريقة ما فيحقق ما يجعله "**واحدا من القضايا الّتي يخترقها الإنسان بالبحث بغية التعمق في هذا المحسوس و تمام إدراكه** "[3]، و نظرا لأهمية المكان فقد خصّ بعلم يدرسه هو علم الطوبولوجيا (topology)، من أمثلة ذلك يورد الرّحّالة وصف مدينة "بسكرة" بقوله، " **و هذه البلدة –أعني**

1الحسين الورثيلاني، الرحلة، مصدر سابق، ص414.

2المصدر نفسه، ص 417.

3 مصطفى الضبع، استيراتيجية المكان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أكتوبر 1998، د.ط، ص60.

بسكرة– كثيرة المياه بين و خلال البيوت، فكل باب عنده ساقية من الماء تجري من ماء حلو كالعسل، و نخلها عظيم، و غلّتها كثيرة أيضا – أي زرعها – و كذا /187/ الفواكه خصوصا الزّيتون فإنّه كثيرا جدّا، و هذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان، و الجامع الأعظم يدلّ على ذلك، فإنه لا نظير له و صومعته ما أحسنها، و ما أوسعها، غير أنّ القديمة – أي المدينة – قد خرجت و صارت دكّا، و سبب ذلك فتنة بينهم، فأدخلوا الترك فأهلكوها حتى بقي القليل منها"[1] ، و من الأنساق المضمرة التي ترنو إليها عملية المسح البصري للمكان تحقيق المتعة للمتلقي، و بيان أثر سلبيّة الإنسان على واجهة المكان الذي يحيله من فضاء جمالي إلى خراب بلون الرّماد، فيظهر بصورة باهتة، فالتركي المتسلّط – حسب قول الرّحالة– أحال المكان من طابع جمالي الى مسحة من التّردي .

دأب الرّحالون على وصف الطبيعة التي يشاهدونها أثناء تنقّلاتهم، فصارت شغلهم الشّاغل، يستأنسون بمظاهرها و مناظرها الجميلة دفعا للوحشة و الشّعور بالاغتراب، فينتهج الرّحالة الوصف لتلك الطّبيعة، و يقارن بين مناخات البلدان التي يزورها أو يرتحل إليها طلبا لحاجة بعينها، فانكبّوا على وصف الجبال، و الأنهار و الأودية، و السّهول و السّهوب و الآبار و السّواقي و الجداول، و الدّور و القصور و الأبنية و الأقبية.

فصارت وسيلتهم وصف الطبيعة بتوظيف الأسماء المناسبة أو الأفعال القادرة على استيفاء الصّورة كاملة دقيقة المعنى، كما وظّفوا لذلك الحروف، فكانت هذه الآليات وسيلة لمسار خطاب أدب الرحلة، و التعبير عن الموصوف، و ذاتية الوصف تدفع الرّحالة إلى استخدام لغة معينة حسب ما يناسب المرسل إليه (المتلقي) و مستواه اللغوي و الفكريّ، فيحمل الصورة حركة نسقيّة معيّنة تمتزج فيها أنا الواصف (الرّحالة) بالموصوف (المكان)، فيحدث التّأثير في نفس المتلقي و يتفاوت من خلال التّأويل من مرسل إليه إلى آخر، و من أمثلة وصف الطبيعة بأماكنها المختلفة ما يورده الشيخ الحسين الورثيلاني في قوله :" **ثمّ مررنا بوادي الأراك**

1الحسين الوثيلاني، الرّحلة، مصدر سايق، ص 201.

و هو واد واسع يأتي من ناحية الشّمال و البحر عن يمينه قريب منه و فيه كثير من شجر الأراك الأخضر النّاعم ثم يسير الماشي في مضائق بين فدافد من جبال ذات حدور و صعود إلى أن يصل إلى بندر الوجه و فيه حصن حصين في جرف واد كبير يخرج بين جبلين و النّاس يتهيّأون* النّزول في أصل الوادي إذا كان الوقت وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي و في الوادي عدّة آبار بعضها أحسن من بعض و التي فوق البند أحسن من التي تحته و داخل البندر بئر تسنى بالبقر ... "[1] إذن " **يعتبر الوصف الطريقة المثلى لتصوير الأمكنة و الفضاءات المختلفة، على عكس السّرد الذي يصلح لصياغة الأحداث في تحوّلها الزّماني، إنّ الوصف ينسجم مع أدب الرّحلة باعتباره التقنيّة الأفضل لتسجيل المشاهدات** [2]"، فالرّحالة الذي يخاطب المتلقي من خلال الأماكن التي تعلّقت بها نفسه إيجابا، أو تأثّرت بها سلبا، ألهمته الوصف المناسب لها، فبؤرة التّصوير خضعت عنده للترسّبات الّتي خلفها كل مكان زاره أو عبره أو نزل به .

2-2- طوبوغرافيا الأماكن المقدّسة :

حفلت رحلة الشيخ الورثيلانيّ بذكر أماكن عديدة لا حصر لها، و لكن الأماكن المقدّسة حظيت بالعناية الوافرة وصفا و إطراء، و بالحديث عن تلك الفضاءات بصفة عامّة "**يمكننا التّمييز بين نوعين من الأفضية، أفضية طبيعيّة و أخرى ثقافيّة، و نعني بالفضاء الطّبيعيّ الفضاء الّذي لم تمتدّ إليه يد الإنسان بالتّغيير كالجبال، و الأوديّة و البطاح، و السّهول، و غيرها من الأماكن العذراء، أمّا الفضاء الثّقافيّ فهو المنجز الإنسانيّ** "[3]، و هذا ما قام به الرّحالة من مسح لتضاريس الحرمين الشريفين، فلم يستثن

1المصدر السّابق، ص 406.

2حبيب بوزوادة، مجلة آفاق فكرية، المضامين في الرحلات الحجازية الجزائرية رحلة الورثيلاني أنموذجا، مج 04، عدد خاص 2018، ص 64.

3 حبيب بوزوادة، سيميائيّة الفضاء المقدّس في الرّحلات الحجازيّة الجزائريّة (رحلة الحسين الورثيلانيّ أنموذجا)، جامعة معسكر، الجزائر، مجلة العلامة ، العدد06، جوان 2012، ص19.

مكانا منها مكانا وقع عليه بصره، فأحصى كلّ ذلك من خلال عملية الاستقصاء التي اعتمدها، فوصف من الجبال جبل النوّر، و جبل أبي قيبس، و جبل عرفات و الصّفا و المروة ...، و جبل أحد في المدينة المنوّرة .

كما أورد ذكر تلال الطّائف، و آبار المدينة مثل بئر الزّرقاء، بئر البصة، بئر بضاعة، بيرحا، بئر اليسيرة بئر رومة "**بئر رومة يضمّ الرّاء و بالهمزة و دونه و في الحديث نعم القليب قليب المزني فاشتراها عثمان فتصدّق بها وورد أيضا نعم الحفيرة المزني يعني رومة و عنه صلى الله عليه وسلم من يشتري رومة فله مثلها في الجنة و كان النّاس لا يشربون منها إلّا بثمن فاشتراها عثمان فجعلها لله و كانت لرجل من غفار أو ليهودي اسمه رومة فنسبت إليه و هي بئر جاهلية روي أنّه استقي منها لتبّع لما نزّل بقناة و هي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال و هي بعيدة من المدينة و الى الجوف أقرب** "[1]، و بعد شرائها جعلها للمسلمين، فكفاهم عناء العطش، كما ذكر الرّحالة أسماء أودية كثيرة في بلاد الحجاز منها: وادي رابغ، وادي العقيق، وادي عبقر، و غيرها .

2-3-النّسق الثقافي التّاريخيّ في الرّحلة الوثيلانية :

زخرت الرّحلة الورثيلانيّة بكثير من الأخبار التّاريخيّة، فقد أورد فيها أخبارا جمّة عن المدن و القرى الجزائريّة، و الأمصار الّتي زارها بذكر عاداتهم و تقاليدهم، و طبائعهم وصفاتهم إلى جانب جزء ليس باليسير من سيرته الذاتية، و يذكر أبو قاسم سعد الله أنّ هذه الرّحلة " **تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الغسلامي في القرن الثامن عشر ميلادي (18م) فهي من المراجع الّتي لاغنى عنها في هذا المجال و كان تكرار حججه و إتقانه للعربيّة و معرفته بعادات الشّرق و الغرب قد جعلت الورثيلانيّ حكما منصفا على العصر و أهله** "[2]، لذلك تكمن القيمة التاريخيّة لرحلة الشيخ الحسين الورثيلانيّ فيما تضمنته من

1الحسين الورثيلاني، الرحلة، مصدر سابق، ص 573.

2ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007، 2، ص 394-397.

معلومات و وقائع سياسيّة و اقتصاديّة، و رصد ثقافة البلدان الّتي زارها خلال رحلته، داخل الوطن و خارجه.

و ما يجعل من متن رحلته وثيقة تاريخيّة موثوقة، صدقه في عرض الوقائع و ذكر الأحداث التي عاشها و عاشيها في تلك البلدان، و لم يكتف بمشاهدته الخاصّة فقط في ذكرها بل استند الى مصادر سابقة تؤكد ذلك أمثال سالم العياشي، و أبي العباس، أحمد الغبريني، و أبي عبيد البكري (كتابه المسالك و الممالك).

اعتمد الشيخ الحسين الورثيلاني في عرضه للوقائع و الأحداث على تحرّي الحقيقة، فجاءت أحكامه صارمة، و انتقاداته لاذعة لحكام ذلك الزّمان لكونهم السبب الرّئيسي في انتكاس أحوال النّاس، عدم الاستقرار السياسي، حالات الفوضى و انعدام الأمن، تفشّي الرّذائل، و الرّحلات المطّردة الّتي كان يقوم بها، لذلك كانت تلك الرّحلات إلى جانب اتقانه للّغة العربيّة و اطّلاعه على عادات الدّول الّتي مرّ بها دافعا قويا إلى إصداره أحكام منصفة على أهل ذلك الزمان حكاما و محكومين[1]، و الشّاهد أنّ متن الرّحلة احتفى كثيرا بذكر أوضاع الجزائر المختلفة سياسيّا، و اقتصاديّا و اجتماعيّا و دينيّا ...، لذلك يمكن العودة إلى الرّحلة و الاستعانة بها في تدوين و إعادة صياغة تاريخ الجزائر زمن الحكم العثماني، لأنّها استطاعت تقديم صورة وافية شاملة عن البلدان التي زارها الورثلاني، خاصّة مداشر و قرى و مدن الجزائر و الدّليل على أهميّتها التّاريخيّة أنّ الفرنسيّ المحتلّ اعتمدها في الاطّلاع على عادات و تقاليد و نمط عيش السّكان منطقة القبائل، ممّا ساعده على الاستيلاء عليها، و الاستبداد بأهلها و الاحتراز من خطرهم عليه .

زار الورثيلاني في رحلته الداخليّة قبل أن يمّم صوب بلاد الحجاز، مناطق كثيرة في الجزائر منها : زمورة، قصر الطير، أولاد دراج، بريكة، طولقة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي

1ينظر: ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الاسلامي، ط1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1999م، ص 419-420.

ناجي، .... زواوة .... و غيرها. و من الأخبار التاريخية ذكره لأحوال طولقة أن يكون مادّة تاريخيّة موثوقة تؤرّخ بصدق للمنطقة، فكون الوثلاني غريب عنها، فرأيه في حكامها و سبل عيشها و كل أمورها سيورده دون تحيّز " **و بالجملة كما قال الإمام العياشي في رحلته ما رأيت في البلاد التي سبكتها شرقا و غربا أحسن منها و لا أحصل و لا أجمع لأسباب المعاش، إلّا أنّها ابتليت بتخالف الترك عليها و عساكر العرب فيستولي هؤلاء تارة و هؤلاء تارة أخرى إلى أن بنى التّرك حصنا حصينا على رأس العين الّتي يأتي الماء منها إلى بسكرة فملكوا البلد و أضروا بأهلها و أجحفوا بهم في الخراج ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكّنهم من الماء الّذي به حياة البلد و أهله و اجتمعت فيها غارات العرب من خارج و ظلم الأترك من داخل و قد اشرفت على الخراب**"[1].

ذكر الرّحالة أخبارا كثيرة حدثت في بلاد الحجاز لسنة حجته " و في تلك الحجّة، و هي عام ثلاثة و خمسين و مائة و ألف (1153) ذهب معنا العلّامة الفاضل و المنور الكامل تلميذ سيدي عبد الحفيظ المذكور سيدي أحمد التّليلي كان كريما فاضلا بحيث لا صبر له عن إطعام الطّعام في الطّرق و كان يعرف السّير كثيرا على أني زرت معهم في بدر و مكة و المدينة المشرفة "[2]، و كما سبق ذكره فإن الرّحلة الورثيلانية أرّخت لعديد الأحداث و الأوضاع السّائدة آنذاك، كأحوال الحجّاج و ما كان يعترض سبلهم من قطاع طرق، و احوال مناخيّة صعبة ... و غيرها من العوائق .

3-الأنساق الاجتماعيّة :

يعرّف النّسق الاجتماعي حسب تالكوت بارسونز " في مؤلفه عن " النسق الاجتماعي" **أنّه أعمال منسقة يقوم بها مجموعة من الأفراد بانتظام و يتصرّفون بشكل متشابه في المواقف المتشابهة، يتحكّم فيه عاملان هما: التنشئة الاجتماعية و الضّبط الاجتماعي، و هما رافدا**

1 الحسين الورثيلانيّ، الرّحلة، ص 117.

2 ينظر: المصدر نفسه، ص 153.

توازن المجتمع [1]، في حين يعتبر روبرت ميرتون، عالم الاجتماع الأمريكي النّظم الاجتماعيّة ينجم عنها بعض الخلل الوظيفي ممّا يعود على المجتمع سلبا، فيؤدي إلى الفشل في تحقيق الرفاهيّة لأفراد المجتمع [2]، و كذلك يرتبط أفراد الأسرة الواحدة بما يقرّه المجتمع من نظم و ما يقنّنه من قواعد لتسير حياتهم بعيدا عن الفوضى و الهمجيّة.

أهمّ ما في الجانب الاجتماعيّ للحياة البشريّة هي تلك العلاقات التّي تربط بينهم إيجابا و سلبا في إطار نسقي معيّن، و ذلك ما اختصّ به علم الأنثربولوجيا الذي هو" **علم دراسة الإنسان طبيعيّا و اجتماعيّا و حضاريّا** "[3]، فهو يدرس الإنسان من حيث أبعاده المختلفة، الاجتماعية، البيوفيزيائية، الثقافية، و يهتمّ بمسار تطوّر الأجناس البشريّة من حيث تطوّراتها الاجتماعية في أطرها السياسيّة و الدينيّة، اقتصاديّة، قانونيّة... و غيرها، بل حتى إرثها الفكريّ و أنماط القيّم، و إبداعاتها المختلفة، أدبيّة، فنيّة، جماليّة حتّى الموروث الثّقافيّ من عادات و تقاليد، ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانيّة المختلفة، و إن كانت لازالت تعطي عناية خاصّة للمجتمعات التقليديّة [4]، فمن خلال تتبع المسار التّفرعي للنّسق الاجتماعي، يمكن رصد مختلف النّشاطات الخاصّة بالمجتمع الإنساني حسب البيئة التي نشأ فيها و تكيف مع خصائصها .

أولى الحسين الورثيلانيّ عناية كبيرة للجانب الاجتماعي في حياة البلدان التي مرّ بها سواء داخل الوطن، أو خارجه أثناء رحلته، فرصد عديد مظاهر الانحلال الخلقي و التفكك الاجتماعيّ بدءا من موطنه بني ورثيلان وصولا إلى مكّة المكرّمة، ثمّ المدينة المنوّرة، و استعرض مدى تشابهها في مختلف الأمصار الإسلاميّة، و لعلّ ذلك يظهر الحالة المشتركة

1 طلعت ابراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزّيات، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الغريب، القاهرة، (د.ت)، ط1، (د.ت)، ص 72.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 76.

3شاكر سليم، قاموس الأنثربولوجيا، جامعة الكويت، 1981، ص 09.

4ينظر: أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، مدخل لدراسة المجتمع، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1981، د.ط، د.ت، ج1، ص 07.

التي كانت تعيشها الأمة الاسلاميّة آنذاك، فسرد أحداثا مختلفة عن الجهل، الظّلم، قطع الطريق على المسافرين، السّطور على الممتلكات، الخصومات و النّزاعات المختلفة بين القبائل و العروض، تفشّي ظواهر معاديّة للدّين تماما، كالبدع و الخرافات، الشركيات، و قد أرجعها الرّحالة إلى عاملين أساسيين هما:

أوّلا : البعد عن الفهم الحقيقي للدّين و تشريعاته و قيّمه الأصلية، ثانيا : تراجع نفوذ الحكم التّركي، و اقتصادره على مناطق التحضّر (المدن)، و يصور الورثيلاني حال وطنه و هو يغادره قاصدا البقاع المقدّسة، " **نعم صرنا في توديع النّاس من كلّ بلد من حمزة و وانوغة و وادي بجاية و غيرها و بالجملة فوطننا طيّب فيه العلم و بعض الكرم للغريب و فيه الزيتون و العنب و التّين بكثرة و الحرث غير أنّ الوطن عزيز غال و سبب ذلك كثرة النّاس غير أنّه خال من السلطان و أحكامه فالوطن سائب عمّره الله بالأحكام الشرعيّة** "[1]، ظاهرمشاعر الرّحّالة مدى تعلّقه بالوطن، بينما الخفيّ(المضمر) التسخّط على حكم الأتراك، و فساد سياستهم.

3-1-البعد الدينيّ (إصدار الأحكام الفقهيّة) :

نشأ الورثيلاني في بيئة متصوّفة متديّنة، متمسّكة بأحكام الشّريعة فقد كان إماما فقيها ملمّا بكلّ الأحكام الشّرعية، و كذلك كان شأن كلّ الرّحالة على عهده، لذلك جاءت الرّحلة زافرة بالنّقاشات الدّينيّة الّتي دارت بين الورثيلانيّ و الفقهاء و العلماء الّذين صحبوه في الرّكب، أو الذين اجتمع بهم في طريق السّفر أو في الامصار التي زارها في طريقه خاصّة مصر.

1الحسين الورثيلاني، الرحلة، ص ص43-44.

يرد على لسانه في الرّحلة موقفه من القرع على الدفّ للغناء آنذاك، و انّه يجده من المعازف الملهيّة كالمزمار و غيره من الآلات السّماعيّة خاصّة في أوساط العامّة، التي لا تزيدهم إلّا جموحا و قوّة، و شهوة و كليا و طفوحا، و الشيطان يكتفي منه بذلك[1]، أمّا عند بعض الطوائف الّذين يزعمون أنّه وسيلتهم للتّوبة و الاستقامة فيراه من الجهل الطّافح "**و قد عمت البلوى و العياذ بالله بانكباب أبناء الطّوائف على السماع بالدفوف و المزامير و سائر الآلات و الأشعار و الأركان و اتّخذوا ذلك صراطا مستقيما، و اتّبعوا فيه شيطانا رجيما، و نبذوا السّنة وراء ظهورهم، و زالت هيبة الشريعة من صدورهم، و كان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان، فصاروا مسخرة للشيطان**"[2]، و لكون الورثيلاني ابن بيئة صوفيّة صرفة، ففي جداله الفقهي مع بعض العلماء حول جواز الدّعاء للحكام و الولاة الّذين قاموا ببناء المدارس من الأموال المأخوذة عنوة من أفراد الشّعب، فمال إلى جواز ذلك، انتصارا منه للمصلحة العامّة، حجته في ذلك ما ذهب إليه الشيخ عبد الكريم الزّواوي في شرح الطريقة الوغليسيّة[3]، ورأى في مخالفة وي الامر فسادا لأمر المسلمين امتثالا للحديث " و عن ابن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة و لا حجّة له و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهليّة ، رواه مسلم "[4]، و استشهد بأحاديث نبويّة أخرى تدعو إلى طاعة ولي الأمر و تحريم شقّ عصا الطّاعة.

و أظهر الحكم الشّرعيّ في التّدخين دونما تردّد لما فيه من المفاسد و الأضرار " **و أنفق أرباب القلوب شرقا و غربا على التّنفير منه (أي التّدخين) و كراهته، و لم يزل الأمراء**

1 ينظر : الحسين الورثيلاني، الرحلة، ص ص 230-231.

2 الحسين الورثيلاني، الرحلة، ص 230.

3ينظر: المصدر نفسه ، ص ص 737-738.

4 ينظر: نفسه ، ص 795.

مجتهدين في قطعة و مع ذلك فلا يزاد إلّا شهرة "[1]، رغم إظهاره الحكم الشّرعي في التّدخين، إلا أنّه يحصي إقبال النّاس عليه و شيوع تعاطيه في صفوف العامّة و الخاصّة .

يتجلّى من خلال تلك الأحكام الفقهيّة التي أصدرها الورثيلانيّ بجرأة، قوّة الوازع الدّيني الرّاسخ في ذاته ، الدّال على شخصية العالم المتفقّه في دينه، المتمكّن من أحكامه و حلاله و حرامه ، الشيخ القدوة في التّوجيه و الإرشاد و الإصلاح، و قوّة التربيّة الروحيّة الصدفيّة المنعكسة عن التّنشئة الصّالحة .

تجلّت في الرّحلة ظاهرة شائعة في وسط البيئة المتصوّفة و قد سبق التّفصيل فيها في الحديث عن العجائبي في الرّحلة و هي التبرّك بالأضرحة ، الذّي هو عند العامّة من الطقوس المقدسّة التي لا جدال فيها .

يتميّز أهل التّصوف عن عامّة النّاس بإجلال أهل الله من الأولياء و الصّالحين و المحدّثين و الفقهاء و المشايخ ، و على ذلك النّهج سار الورثيلاني ، فعرّف بهم و أخذ عنهم النّصائح ، و تبرك بالأموات منهم ، فمدحهم لصلاحهم و إيمانهم بالله و رسوله –صلى الله عليه وسلم ، و حفظهم القرآن الكريم و العمل به ، و قد مدحهم الله تعالى بقوله :﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الذين آمنوا وكانوا يتقون (63) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)**﴾[2] .

خاض الشّيخ الورثيلانيّ في قضايا كثيرة مختلفة فقهيّة و عقديّة، و احتجّ على بطلانها مستشهدا بما لديه من أدلّة شرعيّة مختلفة على فساد المعتقد فيها أو البطلان كقوله في قضيّة الوجود و السّلب و ضرورة الاحتكام الى العقل و النّقل " **لما علمت أنّ بعض المعتقدات كالوجود و السّلب غير الوحدانيّة فإنّ فيها خلافا في الاكتفاء بدليل النّقل فيها أو لا بدّ من**

1الحسين الورثيلاني، الرحلة، ص 223.

2 سورة يونس ، الآيات 62-63-64.

دليل العقل و هو الرّاجح فلا بدّ فيها من دليل العقل فلا يكفي فيها دليل النّقل إذ لو عرف بدليل النّقل كدار و مادار لا يحصل عليها و بيان الدور ليس هذا محله و كذا مصحّحات الفعل كالقدرة و الإدارة و العلم و الحياة فلا بد فيها دليل العقل أيضا "[1]، فالنّسق الدّيني الظّاهر هنا هو الاعتماد على العقل و النّقل معا لاثبات صحّة العقائد، امّا المضمر فتمثّل في التّقليد، كتقليد الرسول صلى الله عليه وسلم باحياء سنته .

3-2-العادات و التّقاليد:

شاع في علم الاجتماع أنّ الإثنوغرافيا علم يهتمّ بدراسة العلاقات الّتي تجمع الشّعوب البدائيّة فيما بينها، و ما تشترك فيه من عادات و تقاليد، و هي كلمة مركبة من شطرين Ethno (ethnography) : بمعنى سلالة أو شعب أو ناس ، و graphy بمعنى يكتب، فنتج ما يفيد معنى: الكتابة عن الشعوب [2] أو وصف الشعوب و بعد ترجمته للعربيّة صار يعني (علم الإنسان الوصفيّ).

تهتّم الإثنوغرافيا بدراسة المظاهر الماديّة و الاجتماعيّة للمجتمعات العادات و التّقاليد المشتركة و أزمنتها، فتشتغل على دراسته العادات و التّقاليد المشتركة للمجتمع الواحد، فتبيّن محاولات الفرد في محاولته التّأقلم مع بيئته الطبيعيّة، و محاولة استغلال مواردها سعيا لتحقيق حاجاته الضروريّة و الاجتماعيّة المهمّة [3]، إذن فالإثنوغرافيا علم يدرس ثقافة المجتمعات بعاداتها و تقاليدها، و قيّمها الإنسانيّة، و ما يميّزها عن غيرها من فنون و مأثورات شعبيّة و خصائص اجتماعية تتفرّد بها عن باقي الامم، لذلك تعدّ الإثنوغرافيا عنصرا أساسيا في الأنثربولوجيا، و لها صلة وثيقة بالتاريخ، لكونها – أي الإثنوغرافيا – " **ملاحظة و تسجيل**

1 الحسين الورثيلاني ، الرّحلة ، ص151.

2 ينظر : احمد أبو زيد و آخرون ، إثنوغرافيا المجتمعات الإفريقيّة ، دار المعرفة الجامعيّة ، مصر ، ط1 ، 2012 ، ص09.

3 ينظر : أحمد زكي بدر ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيّة ، ساحة رياضي الصلح ، بيروت ، ط1987 م ، ص 140.

المادّة الثّقافيّة من الميدان، و هي تعنى أيضا بوصف أوجه النّشاط الثقافي، كما تبدو من خلال دراسة الوثائق التاريخيّة "[1] ، و كثيراما كانت ثقافات الشّعوب الوعاء الذي حفظ تاريخها و أمجادهخا ، كما كان عند العرب قبل الإسلام، فقد نظمت أهمّ الأحداث في تاريخهم شعرا، و تغنّوا بها زجلا.

أمّا الشيخ الحسين الورثيلانيّ، فقد اهتم في رحلته بعادات و تقاليد الأمصار التي قصدها أثناء رحلتي الذّهاب و الإيّاب، و لكل شعب خصوصياته الّتي تميّزه عن شعب آخر، أمّا عند المجتمعات العربيّة فهي متشابهة باختلاف قليل، و من أمثلة ما رصده من عادات و تقاليد أهل الحجاز، خاصّة المدينة المنوّرة و مكة المكرمة، لأنه أقام فيهما أياما و لياي، و من أمثلة ما ذكر:

3-2-1-التهنئة بحلول كل شهر هجري :

دأب أهل الحرمين الشريفين على تبادل التّهاني مطلع كلّ شهر ،" **و من عاداتهم أيضا في الحرمين الشريفين التّهنئة بالشّهر أي شهر كان خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإنّ التهنئة عندنا إنّما تكون بالأعياد و ما شاكلها و لديهم لا بّد من التّهنئة في أوّل يوم من كلّ شهر فيذهب كلّ واحد الى من له عليه ولاية أو شيخوخة أو صحبة حتّى يهنئه بالشّهر في منزلة**[2] ، و كذلك الحال طول العام ، حسب ما دأبوا عليه.

3-2-2- الخروج للبقيع يوم الجمعة و حمل الرّياحين :

اعتادّ أهل المدينة المنوّرة، الخروج كل جمعة إلى البقيع، و المقصود هنا الرّجال – لوضع الرّياحين على القبور" **خصوصا المشاهد المعلومة فيكون عندها أضغاث من الرّياحين و يؤتى**

1 مرسل مورس (1950-1972) ، أنثربولوجي فرنسيّ، و هو واضح علم الاجتماع الدور كهايمي موضع التغليق ، استفاد منه كلود ليفي ستراوس في نظرياته ، ينظر : مجلة الثقافة الشعبيّة ، المدرسة الأنثربولوجيّة ، الفرنسيّة مرسيل موس أنموذجا ، عبد الله الرحيم يتيم، الثقافة الشعبيّة ، البحرين ، العدد 06 ، 2020 ، ص 14.

2 الحسين الورثيلاني ، الرحلة ، ص 587.

بـه إلى الحجرة الشّريفة و يلقى من طيقان الشبابيك إلى داخلها فلا يزال هناك حتّى يذبل و يذوي و يخرج في كناسة الحجرة و يقتسمها الأغواث بينهم مع باقي الشّمع الّذي يوقد داخل الحجرة و ما يتساقط من الطّيب "[1]، و كان دافعهم في ذلك بغية التبّرك بطيب الحجرة النبويّة الشريفة.

3-2-3- كنس المسجد النّبوي يوم الجمعة :

دأب سكّان المدينة المنّورة على كنس المسجد النبويّ كلّ جمعة " **و من عاداتهم يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوي كله و يؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فتعلّق على أبوا المسجد و يؤتى برايتين سوداوتين من ديباج مخوص أيضا فيركّزان عن يمين المنبر و شماله و تكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النّعت و يعلّق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة** "[2] و *هاته* العادة تنمّ عن كرم نفوس أهل المدينة المنوّرة، و جميل صنعهم محبّة في رسول الله صلى الله عليه وسلم و تكريما للمسجد النّبوي الشّريف و استعظاما لمكانته في نفوسهم.

3-2-4- تعطيل الدّراسة :

جرت العادة عند أهل المدينة من المدّرسين " **تعطيل القراءة في المكاتب و التّدريس يوم الثلاثاء و يوم الجمعة و يقرءون فيها سوى ذلك من الأيّام خلاف عادتنا في المغرب من التّعطيل يوم الخميس و يوم الجمعة** "[3]، و التّعطيل عن الدّراسة أو العمل عادة كلّ البشر، لغرض الاستراحة و استجماع القوى و العودة إلى النّشاط المعتاد بكلّ جدّ و اجتهاد .

3-2-5-عادات أخرى :

1 نفسه ، ص 585.

2نفسه ، ص 585.

3 نفسه السّابق ، ص 586.

سجّل الرّحالة الورثيلاني عادات أخرى، منها أداء الصّلوات الخمس في المسجد النّبوي الشّريف مع تقديم الصّلوات في أوّل الوقت، إلّا صلاة الظّهر فيؤخّرها الحنفيّة انتظارا لالتحاق المسافرين فيصلون جماعة، و كان ممّا تعوّد عليه أهل البلد القيلوله بعد صلاة الظّهر، و من العادات الأخرى عقد القرانات و الأملاك في المسجد النّبويّ الشّريف، و إدخال الجنائز إلى الحرم و الصلاة عليها ...[1]، و كذلك الأمر في الحرم المكّي، و ليس الأمر حكرا على المدينة المنّورة وحدها .

خاتمة الفصل

– تعدّ رحلة الحسين الورثيلانيّ نموذجا في تعدّد الأنساق الثقافيّة، فرغم اشتراك الشّعوب الإسلاميّة الّتي خالطها الشيخ الحسين الورثيلاني أثناء رحلته في الدّين و اللّغة، إلّا أنّه ثمّة فروق أنثروبولوجيّة و إثنيّة جعلتها متمايزة في الخصوصيّة.

– يستمدّ العجائبيّ قوّته من الدّين، و أصالته من الثّقافة العربيّة، بإرثها اللّغويّ الضّخم، و تتمظهر الكرامات بكونها نسقا تحتويه العجائبيّة و الغرابة.

– الرّؤى و الأحلام بوصفها خطابات روحيّة تخييليّة، و إن كان أصلها الواقع و مردّها إليه، فهي جزء مهمّ في التّوليفة الّتي تشكّل النّصّ الرّحليّ الورثيلانيّ.

– ظهرت صورة المرأة بعدّة أشكال أثناء المسار السّرديّ لمتن الرّحلة، تراوحت بين المستحبّ و المكروه، بين المألوف الموافق للشّرع، و اللّا مألوف المخالف.

– زيادة على كون الرّحلة وعاء موسوعيّا لمختلف العلوم، فهي بوتقة جامعة لعادات شعوب و مجتمعات مختلفة، رصدها الرّحّالة و سبر أغوارها ثمّ أحصاها.

1 ينظر : المصدر السابق نفسه ، ص 587.

–تكمن مهمّة كاتب الرّحلة(الرّحّالة)، في تطويع المعطيات لعملية الوصف للوقائع و الأحداث الّتي تجري في البلد المقصود من خلال الرّحلة، فيبدو الرّحّالة مجرّد محص لما عاينه من معطيات تاريخيّة و جغرافيّة قيّدت من حركته الكتابيّة.

– تحوّل الواقع إلى فسحة تسيطر عليها الذّات السّاردة(ذات الرّحّالة) حين تحرّرها من تلك المعطيات المقيّدة، فيطغى اللّاشعور الأدبيّ بزخمه المتراكم ، ليحيل الرّحلة إلى جنس أدبيّ متكامل، من خلال إظهار الرّحّالة ملكته اللّغويّة شعرا و بلاغة.

– قدرة الرّحّالة على تصوير المشاهد المثيرة للعواطف، و التّأثّر إيجابا و سلبا متّكئا في ذلك على السّرد أو الحكي.

– يلاحظ كثرة الإطناب، و الاستطرادات في الرّحلة، و غرقها في الحشو، و تكلّف السّجع الرّحّالة على غرار الرحّالين المسلمين السّابقين.

خاتمة

خـاتمـــــــة :

بعد إتمام هذا البحث المتواضع الموسوم ب" النّصّ و البنى الثّقافيّة في أدب الرّحلة عند الحسين الورثيلانيّ"، و الّذي قدّمته في في مدخل و ثلاثة فصول، حيث تمّ تحديد بعض المصطلحات الّتي وظّفتها و حاولت تبيين مفهومها، كالنّسق و النّسق الثّقافيّ، و أثناء حديثي عن الرّحلة الورثيلانيّة، وجدت أنّ معظم الدّراسات حولها متقاربة، فهي إمّا حول ماهو تاريخيّ أو جغرافيّ أو اجتماعيّ، فحاولت التّفرّد بهذه الدّراسة لتقديم شيء جديد يتناول البنى الثّقافيّة الّتي زخرت بها هذه الرّحلة، فتوصّلت إلى بعض النّتائج خلاصتها ما يلي:

- تعدّ الرّحلات الحجازيّة-رحلة الحسين الورثيلانيّ نموذج عنها- جنسا أدبيّا ذاع صيته في بلاد المغرب و الأندلس، و قوامه فعل السّفر، الّذي قام به الرّحّالون تلبية لنداء الخليل عليه السّلام و استجابة لدافعي الشّوق و الحنين للبقاع المقدّسة، و الرّغبة في طلب العلم و الاستزادة منه.
- جمع الشّيخ الحسين الورثيلانيّ في تدوينه لرحلته، بين علوم يشاكل بعضها بعضا كالتّوحيد و الفقه و التّصوّف، و علوم مختلفة كالتّاريخ و الجغرافيا و الاقتصاد و الثّقافة و الببليوغرافية...، و هذا من الأسباب الّتي شكّلت عائقا في التّصنيف الدّقيق لأدبيّة الرّحلة.
- الرّحلة الورثيلانيّة شاهد عيان على السياسة و الاقتصاد، و الأحوال الاجتماعيّة، و الثّقافيّة للجزائر و جميع البلدان العربيّة الّتي زارها الرّحالة آنذاك.
- تكمن مهمّة كاتب الرّحلة، في تطويع المعطيات لعملية الوصف للوقائع و الأحداث الّتي تجري في البلد المقصود من خلال الرّحلة، فيبدو الرّحّالة، مجرّد ممحّص لما عاينه من معطيات تاريخيّة و جغرافيّة قيّدت من حركته الكتابيّة.
- يلاحظ على الرّحلة الورثيلانيّ كثرة الإطناب و التّكرار، و غرقها في الحشو، و نقص التّرتيب، و رغم ذلك تبقى موسوعة ضمّت بين طيّاتها مختلف العلوم، من توحيد، و فقه و تفسير، و نحو و بلاغة، ... و تعدّ مرجعا تاريخيّا، و مادّة جغرافيّة خاما.

خـاتمـــــــة :

- تحوّل الواقع إلى فسحة تسيطر عليها الذّات السّاردة(ذات الرّحّالة)، حين تحرّرها من تلك المعطيات المقيّدة، فيطغى اللّاشعور الأدبيّ بزخمه المتراكم، ليحيل الرّحلة إلى جنس أدبيّ متكامل، من خلال إظهار الرّحّالة ملكته اللّغويّة شعرا و بلاغة.
- اعتنى الرّحّالة كثيرا بذكر المناطق التّاريخيّة، و المعالم الأثريّة، خاصّة المقدّسة منها، و تاريخ بعض المدن الّتي أقام بها أثناء رحلته، و الأبنيّة و الأزقّة، و المساجد و الأقبيّة، و أضرحة الأولياء و الصّالحين، لما تمثّله من خصوصية ثقافيّة لتلك البيئات، و مجتمعاتها و شعوبها، و خصوصيّتها الإنسانيّة.
- تجاوز الرّحّالة في وصفه للمكان الإطار السّطحي للّغة، إذ كسر العوائق اللّغويّة و الأسلوبيّة، فتكشّفت مضمرات النّصّ الزّاخرة بأنساق ثقافيّة مختلفة.
- انفتحت رحلة الورثيلانيّ- بعدّها نصّا مدوّنا – على قيم معرفيّة و اجتماعيّة، تاريخيّة، ... لتبلغ ذروة الأدبيّة، مشكّلة نصّا مفتوحا على أنساق مكثّفة، أحالته على تأويلات لا حدود لها.
- اشتملت الرّحلة على أسماء الأعلام و العلماء، الّذين عرفهم أثناء رحلته، أو ورد ذكرهم في كتب التّاريخ، أو أخذه عن الرّحّالين السّابقين، كما أتى على ذكر مناطق كثيرة مازالت تسمّى بالأسماء نفسها، في حين بعضها تغيّرت تسمياتها مثل: بحر الرّوم(البحر الأبيض المتوسّط)، بحر القلزم(البحر الأحمر)، و هو الّذي شاع بين العامّة بالتّواتر أنّه البحر الّذي أغرق الله فيه فرعون...و غيرها من التّسميات.
- إنارة الرّحّالة الكثير من الحلقات المفتوحة في تاريخ بعض الشّعوب، الّتي قصد بلدانها زائرا أو عابرا، فسجّل عاداتهم و تقاليدهم، و أنماط معيشاتهم من خلال الخصائص الأنثروبولوجيّة الخاصّة بهم.
- يستمدّ العجائبيّ في النّص الأدبيّ الرّحلي قوّته من الدّين، و أصالته من الثّقافة العربيّة بإرثها اللّغويّ و الأدبيّ الضّخم، و تتمظهر الكرامات بكونها نسقا بصنفيه المضمر و الظّاهر اللّذين تحتويهما العجائبيّة و الغرابة.

خـاتمـــــــة :

- تصنّف الرّؤى و الأحلام على أنّها خطابات روحيّة تخييليّة، و إن كان أصلها الواقع و مردّها إليه، فهي جزء مهمّ في التّوليفة الّتي تشكّل النّصّ الرّحليّ الورثيلانيّ.
- – زيادة على كون الرّحلة وعاء موسوعيّا لمختلف العلوم، فهي بوتقة جامعة لعادات و تقاليد شعوب و مجتمعات مختلفة، رصدها الرّحّالة و سبر أغوارها ثمّ أحصاها في مدوّنته.
- حفلت الرّحلة الورثيلانيّة بمختلف الأنساق و البنى الثّقافيّة من أدبيّة فنيّة، فمعرفيّة، اجتماعيّة، جعلت من النّصّ الرّحلي المنتج توليفة من الحقول المعرفيّة، و الأجناس الأدبيّة المتداخلة، يكمّل بعضها بعضا.
- قدرة الرّحّالة على تصوير المشاهد المثيرة للعواطف، و التّأثّر إيجابا و سلبا، متكّئا في ذلك على السّرد و الحكي.
- جنح الشّيخ الحسين الورثيلانيّ إلى السّجع المتكلّف، على غرار أسلافه من الرّحّالة المسلمين عامّة و المغاربة خاصّة، إلى جانب استحضار زخمه المعرفيّ، و رصيده الجماليّ في انطباعه تذوّقا و إعجابا، و استحسانا أو استهجانا.
- مزج الرّحّالة في توظيفه اللّغة، بين التّعبيرات الشّكليّة و المتعارف عليها، المتداولة باستمرار، و العبارات الفقهيّة العاكسة لثقافته الدّينيّة المتصوّفة،
- و تبقى الرّحلة الورثيلانيّة" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار" مجالا خصبا للبحث و الاهتمام لما تحتويه من زخم معرفيّ، و إرث فكريّ

ملحق

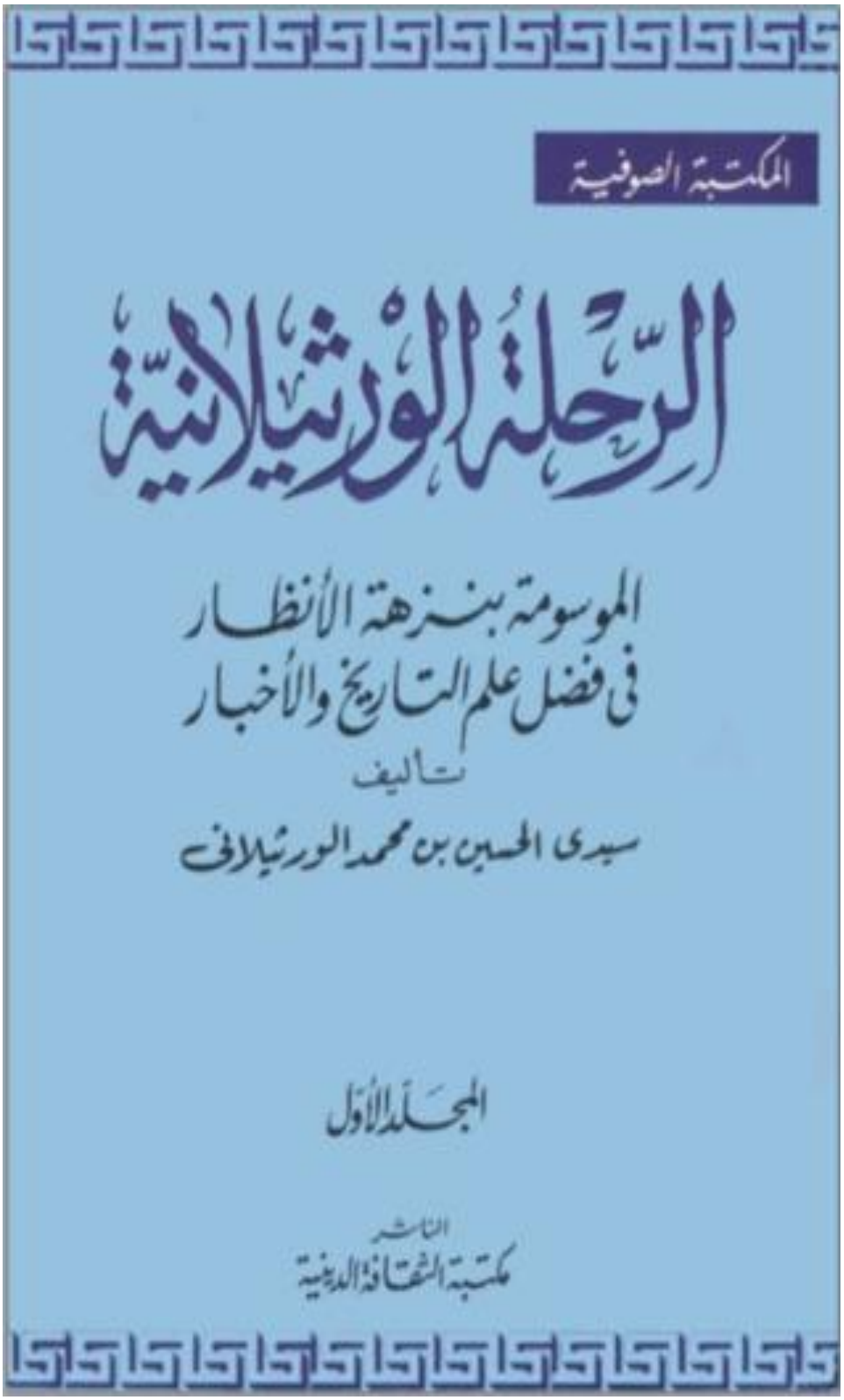
المكتبة الصوفية
الرحلة الورثيلانية
الموسومة بنزهة الأنظار
في فضل علم التاريخ والأخبار
تأليف
سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني
المجلد الأول
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

1/ الحسين الورثيلانيّ و رحلته :

الرّحالة هو الحسين بن محمّد بن السّعيد المعروف بالورثلاني ، نسبة إلى قرية بني ورثلان ولد عام 1125هـ/1713 م، من عائلة ذات أصول عربيّة شريفة، مشهورة بالعلم والإصلاح و التصوّف

و التّدريس ، نشأ نشأة دينيّة في زوايا بلده، شدّ الرّحال للحجّ فمر بتونس ، ليبيا ، مصر ، مكة ، المدينة ، فكانت له العلاقات الجيّدة ، بعلمائها و مشايخها الذين عاصرهم ، و نال الحظّ الوافر من العلم لكثرة رحلاته ، حتّى غدا شعلة ومنار علم يشار إليه بالبنان، في القرن الثّامن عشر ميلادي ، تشعّب في طلب العلوم المختلفة و الفنون المتنوّعة، فاجتمع له الفقه و التّصوّف و التّوحيد و الأدب و البلاغة و النّحو حتّى التّاريخ ، أمّا من حيث طريقة التّصوف فقد كان الورثلاني شاذليّا إلى جانب تأثره بالخلوتيّة (الرّحمانية عندنا)، عاش حياة زاخرة بالعلم و التّأليف و التّدوين و النّظم ، طلب العلم و نشره ،

وخاض غمار الرّحلات الحجازيّة و العلميّة حتّى وافاه أجله سنة (1194هـ-1780م)

.

يعّد الحسين الورثلاني سيّد الرّحالين الجزائريين بلا منازع و ذاع صيته في الجزائر و تونس ، ليبيا، مصر ، الحجاز ، و داخل الوطن في مدن كثيرة كبلدته بني ورثلان ، بسكرة ، سيدي خالد ، قسنطينة ، عنابة ، تلمسان .... و غيرها ، و قد كان يتردّد عليها لزيارة الصالحين أحياء و أمواتا (أضرحتهم)، أو لطلب العلم ، أو للوقوف على شؤون النّاس العالقة ، كفك الخصومات و الإصلاح بين الأطراف المتنازعة، أو تقديم المساعدة لمن يحتاجها من ذوي الحاجات، و قد مدحه أبو القاسم محمّد الحفناوي بقوله : " **الإمام العالم ، العامل العلّامة ، الكامل الأستاذ الهمام ، شيخ المشايخ الأعلام** "336.

كما سبق الذّكر أنّه اغترف من مختلف العلوم، و في ذلك اقتداء بسلفه، فقد اشتهر والده محمد السّعيد الوثلاني وجدّه الحسين بن محّمد الشريف الوثيلاني بالتبحّر في علوم

336أبو القاسم محمّد الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السّلف ، تح محمج أبو الأجفان ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ط2 ، ج2 ، ص139.

الشّريعة و الفقه ، و الحديث ... و غيرها من علوم الدّين 337 ، و تلك المزايا قلّما اجتمعت لشخص واحد إلّا لمن اختصهم الله بعنايته .

تنفرد رحلة الورثلاني بخصوصيّة لم تتأتّ لرحلات مغربية أخرى ، و يعزى ذلك لكونها جمعت بين علوم مختلفة من أدب و فقه ، و تصوّف ، و تاريخ و جغرافيا ، و عنوانها ذاته يوحي بذلك فقد سمّاها صاحبها " نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار "، فبكونها رحلة حجازيّة فهي علميّة في الوقت ذاته، و مخطو الرّحلة متوفّر كاملا ، غير محقق و محقق، و قد تفنّن الورثلاني في وصف رحلته قائلا : " **أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي ، و يستحسنها الشّادي ، فإنّها تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار، مبيّنا فيها بعض الاحكام الغريبة ، و الحكايات المستحسنة ، و الغرائب العجيبة ، و بعض الاحكام الشرعيّة** ... "338 ، و تلك الاوصاف التي أوردها الرّحالة في شأن رحلته هاته ، لا ريب في صحتها و ذلك يتكشّف من خلال الإطلاع على متن الرّحلة و استخراج درره و يواقيتة ، إذ نجده " التزم بالصّدق في كلّ ما أورده من أحداث ووقائع ، فهو يدلي برأيه بكل صراحة و يجاهر بالحق إن رأى في ذلك مصلحة 339".

بيّن الورثلاني في متن رحلته الأسباب العديدة الّتي دفعته لتدوينها ، فسّجل فيها كل شاردة وواردة صادفته ، فقيّد الأحداث بتواريخها ، و سمّى الشخصيات الّتي التقاها بأسمائها الحقيقيّة، ووصف كل المناظر التي رآها ، و الدروب التي يسلكها الحجّاج في سفرهم ، و الصّعوبات التّي تعترضهم ، و بيّن ذلك كلّه بقوله : " **فإنّي لما تعلّق قلبي بتلك الرسوم و الآثار، و الرّباع، و القفار و الديّار، و المعاطن و المياه و البساتين و الأرياف و القرى و المزارع و الأمصار ، و العلماء و الفضلاء و النجباء و الأدباء من كلّ مكان ، من الفقهاء و المحدّثين و المفسّرين الأخيار ، و الأشياخ العارفين و ... أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي و يستحسنها الشّادي** "340.

337مختار بن طاهر فيلالي ، رحلة الورثلاني ، عرض و دراسة ، دار الشّهاب ، باتنة ، الجزائر ، د ت ، ص 11.

338الحسين بن محمد الورثيلاني ، نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار ، تقديم محمد بن أبي شنب ، مطبعة بيروفونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1908م ، ص 713.

339 ناصر الدين سعيدون ، من التّراث التّاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط14 ، 1999 م ، ص 420.

340الحسين الورثلاني ، نزهة الانظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار ، مصدر سابق ، ص 13.

يبدو الرّحالة الورثلاني في تسجيله للكمّ الهائل من الأحداث و الوقائع و كل ما يقع عليه ناظره ،

أو يلتقيه ، كأنّه يعوّض ما لم يحرص على تدوينه في رحلاته السّابقة، فجاد فيها بكل ما يثريها من آداب و ثقافة و تصوّف، و فقه، و جغرافيا، و تاريخ ... و غير ذلك فأصدرها زخما هجينا ، بل توليفة من العلوم المختلفة، استوعبت أحداث ثلاث حجّات قام بها الأولى كانت عام 1153 هـ ، ثمّ تتّاها بأخرى عام 1168هـ ، و ثالثة عام 1179هـ، و عمد خلالها إلى تدوين كلّ ما أمكنه خلال فترات الاستراحة وحطّ الرّحال .

اعتمد الورثلاني في تسجيل أحداث رحلته، على مصادر مختلفة، منه مؤلّفات الرّحالين السّابقين أمثال : أبي سالم العياشي في " ماء الموائد " ، و أحمد بن ناصر الدّرعي المغربي " الرّحلة النّاصرية " ، التّيجانيّ ، العبدري ، و قد نقل عنهم كثيرا من الاقوال و الاقتباسات ، كما لا ننسى اعتماده على مصادر تاريخية لدى مؤرخين كثر أمثال البكري و ابن حوقل و السيوطي و غيرهم ، و هاجسه في ذلك إيعاز قيمة للتّاريخ الّذي لم يحظ بالمكانة اللّائقة به لدى الجزائريّين في ذلك العهد ، و هذا ما أورده الشّيخ الحسين الورثلانيّ في قوله : " **لا سيّما أهل بلادنا ، فإنّ علم التّاريخ منعدم فيهم ، و ساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء ، أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها** " 341 .

و الذي ألجأ الرّحالة إلى المؤرّخين هو " تحرّي الحقيقة فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له بل يلتجئ في بعض الأحيان تأكيدا لروايته أو استكمالا لوصفه إلى الاقتباس من كتب الرّحالين السّابقين"342.

و لم يعتدّ بالمعارف المدوّنة فقط في تدوين رحلته بل زاوج بينها و بين الرواية الشّفويّة ، فأخذ كثيرا من الأقوال و الأخبار عن علماء و شيوخ لفيف من الزوايا من داخل البلاد و سجّلها استشهادا بها ، كما سار على النّمط نفسه عند لقائه بعلماء البلاد الّتي دخلها أثناء رحلته، فنهل من علوم أهلها من فقهاء

و علماء و أصحاب أوراد كتونس ، ليبيا ، مصر ، بلاد الحجاز .

---

341 الحسين الورثيلاني ، نزهة الانظار ، مصدر سابق ، ص 597.

342 ينظر : مختار بن الطاهر فيلالي ، رحلة الورثلانيه – عرض و دراسة – دار الشهاب ، باتنة ، الجزائر ، 1998 ، ص 62-63.

انطلق الحسين الورثيلاني من بلدته بني ورثلان ، مرورا ببسكرة وصولا إلى الجزائر العاصمة ، ثمّ سار ميمّما صوب بلاد الحجاز قاصدا الحجّ و طلب العلم ، فعبر بلدانا كثيرة كتونس (قابس بلاد الجري)، ثمّ ليبيا (طرابلس) ، وصولا إلى مصر (البولاق) ، منها إلى مكّة ثم المدينة ، و أثناء تلك الرّحلة واجه الرّحالة و الرّكب المرافق له صعوبات كثيرة ، منها قطاع الطّرق و اللّصوص الّذين كانوا يعترضون سبيل قوافل الحج فيقتلون و ينهبون، فكانوا يستعدّون للقائهم مع ماينتابهم من خوف شديد و في ذلك يقول الورثلاني : " **فلا ترى أحدا تأخّر إلّا أخذ و سلب، أو هلك، فالحمد لله علينا نتأخّر نحن معشر الإخوان عن الرّكب كثيرا ، و اللّصوص في آثارنا فلا نرى منهم ... الأعراب اللّين صدّوا الحجّاج في العام الذي قبلنا ... لأنّهم أخذوا ركب الحجّاج الجزائريّ و الطرابلسي بل أخذوا منهم كيت من الدّراهم و بذلك خلّوا سبيلهم** " 343 .

كما تعرضّ الورثلاني و الرّكب المرافق له لمخاطر أخرى ، تمثّلت في الظروف الطبيعيّة

و المناخيّة من عطش شديد بسبب الحرارة العالية، أو الموت بسبب البرد القارص فقد " تضمنت الرّحلة العديد من المخاطر منها الظروف الطبيعيّة مثل الحرّ و الزّوابع الرمليّة ... يضاف إلى ذلك بعض العصابات من قطّاع الطّرق التي تعمل خارج ولاية الحاكم ، فتترصّد مواكب الحجّ و تأتي على أمتعتها عنوة و بقوة السّلاح، و كذلك أيضا بعض النّصابين الّذين يستغلون حسن نوايا الحجّاج، فيسلبون مالهم من مال بالغدر و الخديعة " 344 .و كان الأمر يصل إلى حدّ القول في كثير من الأحيان كما يروي الورثلاني ذلك في قوله : " **رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنّهم لا يغادرون أحدا إلّا قتلوه و أخذوا ماله و ذلك معلوم ضرورة فاستعددنا لهم مع الخوف الشّديد**345 " كان السفر للحجّ في ذلك العهد مزيجا من المشقّة و العذاب، و كان الحجّ ضمن جماعات أو ما يسمى بالركب من

343الحسين بن محمد الوثلاني ، نزهة الأنظار ، مصدر سابق ، ص 332.

344 عبد الرحمن عزي ، التواصل القيمي في الرّحلة الورثيلانيّة ، مؤسسة كنوز الحكمة للنّشر و التّوزيع ، الأبيار ، الجزائر ، د.ط ، 2011 ، ص 55.

345 الحسين الورثلاني ، نزهة الأنظار ، مصدر سابق ، ص 449.

باب الحذر و الحيطة ، لأنّ الظّروف المعاديّة كانت كفيلة بإهلاك الحاج لأوّل وهلة ، رغم أنّهم كانوا يزوّدون بالأسلحة كالبندقيات للدفاع عن أنفسهم .

أتمّ الشيخ الورثلاني رحلته حتّى وصل البقاع المقدّسة فاعتمر و حجّ ، و قصد مصر أثناء رحلة الذهاب و جالس علماءها و شيوخها أمثال أحمد الجوهري، محّمد الحفناوي، الشيخ البليدي ، علي الصّعيدي، علي الفيومي، و عبد الوهّاب العفيفي 346، و أعجب أشدّ الإعجاب بمصر لما وجد فيها من علم و علماء و مشايخ و أصحاب حرف ، و مهن ... و غيرها، حتّى قال عنها : " **مهما رأيت جنسا فيها إلّا قلت إنّ هذا الجنس هو الذي في مصر، فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر، و إذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير و إذا رأيت الأشياخ و أصحاب الأوراد قلت هم أهلها، و كذا أهل الصنائع و الحرف ، فما وردت قوما أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه**"347 .

2/أهمّ مؤلّفاته و أعماله:

اهتمّ الورثيلاني طوال حياته بجمع العلوم الفقهية و أصول الذّكر على الطريقة الصوفية الشاذلية و إنجاز شروحات مستفيضة عن عالم التّصوف و المُتصوّفة، كما انشغل بالتفسير، وكتابة القصائد. وله عدة مؤلفات سيِّما ما كان منها في الشرح مثل:

- "شرح وظيفة سيدي يحي العيدلي "للإمام سيدي يحي العيدلي.
- "شرح وسطى الإمام السنوسي"
- و"شرح محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني"
- و"شرح القدسية للأخضري عبد الرحمن"

346 الحسين الورثلاني ، نزهة الأنظار ، ص 285-303.

347المصدر نفسه ، صص 560-561.

- شرح مختصر الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك ويليه للأخضري.
- وكتاب بعنوان: "شوارق الأنوار في تحرير معاني الأذكار" وهو موجود في مكتبة مدينة تطوان المغربية .
- حاشية على حاشية المحقق السكتاني.
- ورسالة في قول بعض الأولياء "نسجت برنسا من ماء"
- وأخرى "وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه"
- وشرحه لبردة البوصيري.
- قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلمَّ من 500 بيت.
- وقصائد في الرِّثاء لبعض الرّجال المُتصوفة منها قصيدة مشهورة رثى فيها أحمد زروق البرنوسي
- كتاب الرحلة السُنّية.
- كتاب المرادي

مكتبة البحث

مكتبة البحث:

***القرآن الكريم برواية ورش عن نافع**

1- المصادر و المراجع:

أوّلا: المصادر:

1-أحمد ابن عمّار الجزائري، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبس، تح : محمد بن أبي نسب، مطبعة قونتانة، الجزائر، 1902م.

2-أحمد المقرّي ، نفح الطّيب، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجاريّة، القاهرة، مصر،1949، ج10، 1949.

3-الحسين الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة، 2006،كج1،ط2008،1، المقدمة.

4-حمد بن عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ، رحلة ابن حمادوش الجزائري السمّاة " لسان المقال في النّبأ عن النّسب و الحسب و الحال"، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1983، د.ط، د.ت.

ثانيا: المراجع:

1- أحمد أبو زيد و آخرون، إثنوغرافيا المجتمعات الإفريقيّة، دار المعرفة الجامعيّة ، مص، ط، 2012.

2- أحمد بن العباس بن رشيد بن حمّاد البغدادي، رحلة ابن فضلان إلى بلاد التّرك و الرّوس و الصقالبة، مطبعة أروى، وزارة الثّقافة، عمان، الأردن، ط1، 2013.

3- أحمد مريوش " الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثمانيّ "، مركز الدّراسات و البحث، الجزائر، د.ط ، 2007.

4- أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحاثية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2007، ط1.

5- آمنة يوسف، تقنيات السّرد في النّظريّة و التّطبيق، دار الحوار للنّشر و التّوزيع، سوريا، ط1، 1997.

6- حاتم صكر، كتابة الذّات، دار الشروق، عمان الأردن، 1994، ط1.

7- حسن بحرواي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط2، 2009.

8- الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكريّ، الصّناعتين، الكتابة و الشّعر، تح: علي محمد البجاويّ، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، 1952م/ 1371هـ، ط1، 1952م.

9- حسين خمري فضاء المتخيل، منشورات دار الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002.

10- حسين محمّد فهيم، أدب الرّحلات، عالم المعرفة، الكويت، دط، د.ت.

11- حميد لحميداني، بنية النّصّ السّرديّ، من منظور النّقد الأدبيّ، المركز الثّقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، ط3، 200م.

12- حنيفي ملايلي، الجزائريّون و الرّحلة إلى الحجاز على ضوء رحلتي الورثيلانيّ و أبي راس النّاصري، مجلة الشّهاب الجديد، مج7، العدد07، 22ربيع الأوّل 30/1429مارس2008.

13- خالد أحمد أبو جندي الجانب الفنّي في القصة القرآنية، دار السباب للطباعة و النشر باتنة .الجزائر د ط.

14- خالد حسين حسين، في نظرية العنوان (مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية)، دار التكوين للتأليف و الترجمة و النشر، ط1، 2007 دمشق ،سوريا.

15- خليل شكري هياس سيرة جبر الذاتية في (البئر الاول وشارع الاميرات) منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001.

16- الرّاشدي بن سحنون ، " الثغر الجمّاني " في ابتسام الشّعر الوهراني "، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي ، منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشّؤون الدّينية، سلسلة الثرات، 1973، د.ط.

17- رعد النّاص، المنامات في الموروث الحكائيّ العربيّ، دراسة في النّصّ الثّقافي و البنية السّرديّة، المدرسة العربيّة للدّراسات و النّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.

18- سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العثمانيّ دار المسيرة للنّشر و التوزيع، عمان، 2013، ط1.

19- سامح الرواشد، منازل الحكاية، دار الشروق للنشر و التوزيع الأردن، 2006، د. ط.

20- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء و بيروت، ط2، 2001.

21- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التّجنيس، آليات الكتابة، و خطاب المتخيّل، رؤية للتوزيع و النشر، و القاهرة، ط1، 2006.

22- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات و بناء التأويل، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب، ط1.

23- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكيّة، دار العربيّة للعلوم الناشرون، لبنان ،ط1، 2009.

24- شغموم الميلودي، المتخيل و القدسي في التصوف الاسلامي الحكاية و البركة، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، مطبعة فضالة المحمديّة، المغرب، ط1، 1991 م.

25- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي، عصر الدّول و الإمارات، الجزائر و المغرب و موريتانيا و السّودان، دار المعارف، مصر، 2017/01/01 ،ج10.

26- صالح أحمد الشّامي، الظّاهرة الجماليّة في الإسلام، المكتب الإسلاميّ ، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ/1986م.

27- صالح فركوس ، تاريخ الثّقافة الجزائرية من العهد الفنيقيّ إلى غاية الاستقلال (814 ق م / 1962) ، ج1، إيدكور للنّشر و التوزيع ، الجزائر ، د.ط ، 2013.

28- صالح فركوس ، المختصر في تاريخ الجزائر في العهد العثماني إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م /1962 م)، دار العلوم للنشر و التوزيع، عنابة، الجزائر ، د.ط ، 2003.

29- ضياء الكعبي، السّرد العربي القديم، الأنساق الثقافيّة و اشكاليات التّأويل، المؤسّسة العربيّة للدّراسات و النشر، بيروت، لبنان، 2005، ط1، د.ت.

30- ضياء الدّين بن محمد بن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب و الشّاعر، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّباعة و النّشر و التّوزيع، الفجالة، القاهرة، 2010، ج2.

31- طلعت ابراهيم لطفي، كمال عبد الحميد الزّيات، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الغريب، القاهرة، د.ت، ط1، د.ت.

32- عبد الحميد حاجيات ، " أبو موسى حمو الزياني حياته و آثاره ، " الشركة الوطنيّة للنّشر و التوزيع ، الجزائر، ط2، 1983.

33- عبد الرحمان ابن خلدون ,تاريخ ابن خلدون ، تاريخ بن خلدون المسمّى كتاب العبر ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد 6 ، ط1 ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، 1992.

34- عبد الرحمن عزّي، التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية ، مؤسّسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع الأبيار، الجزائر، د.ط.

35- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ط7، 1994.

36- عبد الرحيم مؤدن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، دار السويدي للنّشر و التوزيع، أبو ظبـي الإمارات العربيّة المتّحدة، ط1، 2006.

37- عبد الملك مرتاض، النّص الأدبيّ من أين و إلى أين؟، محاضرات على طلاب الماجيستر في الأدب العربي للسنة الجامعية 1981/80، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 م.

38- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، عالم المعرفة، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب، الكويت 1998.

39- عبد النبيّ ذاكر، الواقعي و المتخيّل في الرحلّة الاوربيّة إلى المغرب، منشورات كليّة الآداب، أكادير، المغرب، 1997.

40- علّال سنقوقة، المتخيل و السلطة في علاقة الرواية الجزائريّة بالسّلطة السيّاسيّة، نشر رابطة الاختلاف، الجزائر، 2000، ط1.

41- أبو عمر الجاحظ، البيان و التبيين، دار الكتب العلمية، لبنان، دت، د.ط.

42- عواطف بنت محمّد يوسف نواب، كتب الرّحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر و الثّاني عشر الهجريين/ دراسة نحليليّة نقديّة مقارنة ، دار الملك عبد العزيز، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، 2008، د.ط.

43- عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائري الحديث، مكوّنات السّرد، دار هومة للطباعة و النّشر، الجزائر، د.ط، 2014.

44- فؤاد قنديل ، أدب الرّحلة في التّراث العربيّ، مكتبة دار العربيّة للكتاب، مصر، د.ت، ط2، 1423ه/2002م.

45- فدوى مالطي دوجلاس، بناء النّصّ التّراثيّ(دراسات في الأدب و التّتراجم)، سلسلة دراسات أدبيّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب 1985، د.ط.

46- أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، دار البصائر ، الجزائر ، د.ط ، 2007 ، ج 05.

47- أبو قاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثقافي " ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1998، ج1.

48- ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ج2.

49- أبو القاسم سعد الله ، " تاريخ الجزائر الثقافي " ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1 ،1998، ج.2.

50- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، دار الغرب الإسلاميّ 1998، بيروت، لبنان، ط1، ج3.

51- أبو قاسم سعد الله ، تجارب في الأدب و الرحلة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، د.ط.

52- القزويني، عجائب المخلوقات و غرائب المخلوقات و غرائب الموجودات، تحقيق : فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،1981، ط4، د.ت.

53- مأمون محمود ياسين، في البلاغة العربيّة، من روائع البديع، دار الفكر العربيّ، دبي، ط1، 1997م.

54- محمد الجوهري وآخرون، مقدمة في دراسة الانتربولوجيا، د.ت، القاهرة، دط، 2007.

55- محمد أركون، توفيق فهد، جاك لوكوف، العجيب و الغريب في إسلام العصر الوسيط ترجمة و تقديم عبد الجليل بن محمد الأزدي مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002.

56- محمد بن أحمد أبي راس الناصري ، " عجائب الأسفار و لطائف الأخبار " ، تقديم و تحقيق محمد عالم ، المكتبة الوطنيّة ، الجزائر ، د.ط ، د.ت ، ج1.

57- محمد بن رمضان شاوس ، " باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، إشراف و مراجعة و تحقيق: الحاج الغوثي بن احمدان، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2011.

58- محمّد الطمّار ، " تاريخ الأدب الجزائريّ " الشركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع ، الجزائر ، 2007، د.ط ، د.ت.

59- محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النّفسيّة لأساليب البلاغة العربيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

60- محمد عبد المجيد ناجي، الأسس النّفسيّة لأساليب البلاغة العربيّة، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1984

61- محمد مفتاح، التشابه و الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 19960.

62- محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبيّ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ، 1998، د. ط.

63- محمّد المهدي بن علي شغيب ، أم الحواضر في الماضي و الحاضر ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1980.

64- محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر،

65- مختار بن الطّاهر فيلالي، رحلة الورثيلانيّ، عرض و دراسة، دار الشّهاب، باتنة، د.ت، د.ط.

66- ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، تح : محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، د.ط، 1326هـ-1908م.

67- مصطفى الضبع، استيراتيجية المكان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أكتوبر 1998، د.ط.

68- المهدي البوعبدلي ، جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثمانيّ، عالم للنّشر و التّوزيع ، الجزائر ، ط1 ، 2013.

69- ناصر الدّين سعدوني ، المهدي البوعبدلي " الجزائر في تاريخ العهد العثماني " ، البصائر الجديدة للنشر و التّوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2013.

70- ناصر الدّين سعيدوني، من التّراث التّاريخي و الجغرافيّ للغرب الإسلاميّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، لبنان، 1999م، ط1.

ثالثا: المعاجم و القواميس:

1- أحمد زكي بدر، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيّة ، ساحة رياضي الصلح ، بيروت ، ط1987 م.

2- إسماعيل عبد الفتاح، عبد الكافي، معجم مصطلحات العولمة (مصطلحات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية وإعلامية)، الثقافة العربية للنشر و التّوزيع، مصر، 2006، د، ط، د، ت.

3- بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس مطول اللغة العربيّة، مكتبة لبنان، طبعة جديدة، بيروت، 1987، إعادة طبع، 1993.

4- الزبيدي، تاج العروس، تحقيق عبد الكريم الغرباوي، دار الجيل، الكويت، 1967، ج3.

5- شاكر سليم، قاموس الأنثربولوجيا، جامعة الكويت، 1981.

6- مجمع اللّغة العربيّة، مصر، المعجم الوسيط، إشراف: شوقي ضيف، مكتبة الشروق الدّولية، القاهرة، 2004.

7- الفيروز أبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، 2005م، ج1.

8- محمد بن مكرم بن منظور أبو الفضل جمال الدّين، **لسان العرب**، مادة نسق، حرف النون، دار صا در، بيروت، لبنان ، طبعة 2003م.

9- محمد بن مكرم بن منظور أبو الفضل جمال الدّين ، لسان العرب، 2010، مادة(طنب) دار صادر للطباعة و النّشر، بيروت، لبنان، ج1. ط1، د .ت.

10- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مادة(ثقف) تحقيق: عبد الله علي الكبر وآخرون ، دار المعارف القاهرة، دط، دت، ، المجلد الأول، ج6.

11- محمد بن مكرم بن منظور أبو الفضل جمال الدين ، لسان العرب، مادة "عنن" من باب العين، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، ج7، ط1، د.ت.

12- محمد بن مكرم بن منظور أبو الفضل جمال الدين ، لسان العرب، دار صادر، بيروت للطباعة و النّشر ، بيروت، لبنان، 2010، ج10، ط1، د.ت.

13- كرم البستاني، الأب بولس موترد، عادل أنوبا، أنطوان نعمة، بولس براورز، سليم ركاش، لويس عجيل، ميشال مراد، المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ،ط2 ، 1956.

رابعا: المراجع المترجمة:

1- ألكسندر بوريلي، أسرار النّوم، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة و الفنون و الآداب، الكويت، رقم163، يوليو1992م.

2- بول ريكور، الزّمان و السّرد، ترجمة: فلاح رحيم، مراجعة جورج زيناني، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1 2006، ج2.

3- تزفتان تودوروف، مدخل للأدب العجائبيّ، ترجمة الصّديق بوعلام، مراجعة محمد برادة، دار شرقيات للنشر و التّوزيع، القاهرة، ط1، 1994.

4- ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة و تحقيق شكري عباد، الهيئة العالمية للكتاب، القاهرة، ط1، 2001.
5- جاك لومباز، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، ط1، 1997م.
6- مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الطاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب الكويت، د.ط، 1997.

خامسا: الدّواوين:

1- ابن عمّار الجزائري، ديوان أشعار جزائريّة، تح: أبي القاسم سعد الله، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، 1988، د.ط.

سادسا: المجلّات و الدّوريات:

1- حبيب بوزوادة، المضامين العلميّة في الرّحلات الحجازيّة الجزائريّة، رحلة الورثيلانيّ أنموذجا، مجلة آفاق فكريّة، عدد خاصّ 2018، الجزائر، مج 4.
2- حبيب بوزادة، سيميائيّة الفضاء المقدس في الرّحلات الحجازيّة الجزائرية (رحلة الحسين الورثيلاني أنموذجا)، جامعة معسكر، الجزائر، مجلة العلامة، العدد6، جوان 2018.

3- تزفتان تودوروف، مقولات السّرد الأدبيّ،ترجمة الحسين سحبان و فؤاد صفا، مجلة آفاق.

4- رويدي عدلان، بلاغة وصف الفضاء الجغرافيّ في رحلة الورثيلانيّ، الموسومة" نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار"، مجلّة الخطاب و التّواصل، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، جامعة جيجل، جويلية، 2018.

5- عبد العالي بوطيب، مفهوم الرّؤية السّرديّة في الخطاب الرّوائي بين الائتلاف و الاختلاف، مجلّة فصول، مج 11، االعدد4، 1993.

6- عبد الله حبيب التميمي وسحر كاظم حمزة الشجيري، دونية المرأة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشّعر، مجلة بابل، العلوم الإنسانية، العراق، مج 22،ع 2، 2014.

7- عبد الله الرحيم يتيم، المدرسة الأنثربولوجيّة الفرنسيّة، مرسيل مورس أنموذجا، مجلة الثقافة الشعبيّة، البحرين، العدد 06، 2020.

8- لطيف زيتوني، السميولوجيا و الأدب، مجلّة عالم الفكر، مج24، ع 03، الكويت، 1998.

سابعا: الأطاريح و الرّسائل الجامعيّة:

1- إسماعيل زردومي، فنّ الرّحلة في الأدب المغربي القديم ، نسخة مخطوطة أطروحة دكتواره إشراف عبد الله العشي، جامعة باتنة، 2005.

2- جميلة روباش، أدب الرّحلة في المغرب العربيّ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة دّكتوراه علوم في الأدب الجزائريّ القديم، إشراف أ.د محمد بن لخضر فورار، جامعة محمد خيضر ، بسكرة، السّنة الجامعيّة 2015-2016.

3- عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمّادي، أدب الرّحلة في المملكة العربيّة السعوديّة، رسالة ماجستير، إشراف أ.د محمد الصّالح جمال بدوي، قسم الدّراسات العليا العربيّة، جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، 1997.

4- عبد النبي ذاكر، المحتمل في الرّحلة العربية إلى أوربا، و أمريكا و الاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ سعيد علوش، نوقشت بكلية أكادير عام 1998.

5- علاوي الخامسة، العجائبية في أدب الرّحلات، رسالة ماجيستر، إشراف أ.د. عبد الله حمادي، قسم اللغة العربية، جامعة قسنطينة، 2005.

6- عيسى بخيتي، أدب الرّحلة الجزائريّ الحديث- سياق النّصّ و خطاب الأنساق- أطروحة دكتوراه علوم في الأدب الجزائريّ الحديث، إشراف أ.د محمد مرتاض، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، كليّة الآداب و اللّغات، قسم اللّغة العربيّة و آدابها، 2015-2016.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات :

العنوان	الصفحة
الإهداء	
شكر و عرفان	
مقدمة	أ
مدخل: النّسق و النّسق الثقافي: مفاهيم في المصطلح	
1-مفهوم الثّقافة	02
2-مفهوم النّسق	05
3-مفهوم النّسق الثّقافي	08
الفصل الأوّل: النّص الأدبي الجزائري في العهد العثماني و المرجع الثقافي	
توطئة	18
1-التّعايش الاجتماعي في الجزائر في ظلّ الحكم العثمانيّ	19
4-الحياة الثّقافيّة الفكريّة	19
5-مراكز التعليم و الثّقافة	20
6-مستويات الكتابة:	21
4-1-النّثر الجزائريّ في العهد العثمانيّ	21
4-1-1- الشروح	23
4-1-2- التّقاريظ و الإجازات و العقود	24
4-1-3- الرّسائل	25
4-1-4- الوصف	27
4-1-5- الخطابة	28
4-1-6- القصص و المقامات	30
5- الشّعر	31
5-1-الشّعر الدّيني	32
5-2-الشّعر السياسي	34
5-3-الشّعر الاجتماعيّ	38

فهرس الموضوعات :

6- اللّغة	45
6-1-النّحو	45
7- البلاغة و العروض	46
8- علم التّاريخ	47
9- علوم القرآن:	49
9-1-علم التّفسير	49
9-2-علم القراء و القراءات	50
10-علم الحديث	50
11-الفقه	51
12-التّصوّف	52
الفصل الثّاني: نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار عرض للمنجز	
توطئة	57
1-التّعريف بالرّحلة الورثيلانيّة	57
2-أهميّة الرّحلة الورثلانية	59
3-موارد تدوين الرّحلة الورثلانيّة	62
3-1- الرّحلات السابقة	65
3-2-الموارد الفقهيّة و التّفاسير	66
3-3-موارد لغويّة	67
3-4-موارد تاريخيّة	67
4-الاستعدادات الأوليّة للرّحلة.	69
5-عتبات النّصّ الأدبيّ الرّحليّ عند الحسين الورثلانيّ	72
5-1- دلالة العنوان	73
5-1- تخطيط العنوان	78
5-2- مقدّمة(خطاب التّقديم)	81

فهرس الموضوعات :

6-التّشكلات السرديّة في الرّحلة الوثلانية	89
6-1- شخصيات الرّحلة	90
6-2- العوامل المساعدة في الرّحلة	94
6-3-العوامل المعاديّة	94
6-4-صورة الشّخصيّة الثانويّة في الرّحلة الورثلانيّة	97
الفصل الثالث : التّمظـــــهـــرات النّسقيّـــــــة و آليـــــات إنتـــــــاج النّـــــصّ	
توطئة	103
1-الأنساق الأدبيّة في الرّحلة الورثلانيّة	105
1-1-العجائبي	106
1-2-الصورة الفنيّة	114
1-3-توظيف الشّعر	118
1-4-البعد الجمالي	124
1-5-بنية الحكي في الرّحلة الورثلانيّة	128
2-الأنساق المعرفيّة	136
2-1-الفضاء الجغرافي بين الوصفين المعرفيّ و الفنيّ .	136
2-2- طبوغرافيا الأماكن المقدّسة.	141
2-3- النّسق الثّقافي التاريخيّ في الرّحلة الورثلانيّة	142
2- الأنساق الاجتماعيّة	144
2-1-البعد الدينيّ (الأحكام الفقهيّة)	146
2-2-العادات و التّقاليد	148
خاتمة	153
ملحق	159
مكتبة البحث	167
الفهرس	185

ملخص الدراسة :

دأب النّاس على فعل السّفر و التّنقّل من مكان إلى آخر، فقام كثير منهم، و العلماء خاصّة، إذ دوّنوا رحلاتهم، و قيّدوا أحداثها، و سجّلوا مغامراتهم عن طريق الحكيو السّرد، فنتج من بينها أدب الرّحلة، هذا الجنس الأدبيّ الموسوعيّ المتفتّح على علوم مختلفة، و كذلك كانت رحلة الحسين الورثيلانيّ الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبار.

تعدّ الرحلة جنسا أدبيّا موسوعيّا، لتفتّحها على علوم و معارف مختلفة، و كذلك كانت رحلة الحسين الورثيلانيّ، الّتي تضمّنت بين طيّاتهازخما من الأصوات و الخطابات، فهي أكبر بوتقة تجارب العالم الخارجيّ المعقّد، المثقل بحمولته الإنسانيّة و الفكريّة المتعدّدة الثّقافات.

تأتي هذه الدّراسة النّقديّة للنّصّ التّراثيّ النّثريّ، الموسومة "بنزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ و الأخبارّ"، لتبيّن مدى نجاعة المناهج النّقديّة الحديثة، خاصّة في الكشف عن الأنساق الثّقافيّة المتعدّدة ضمن النّصّ الواحد، من أدبيّة، معرفيّة، اجتماعيّة، ...و غيرها، هذا النّصّ المثقل بثقافات تتباين أحيانا، و يشاكل بعضها بعضا أخرى، لتُؤول البنِّى و الأنساق الثّقافيّة في هذا النّصّ إلى حوارات ثقافيّة ظاهرة أحيانا، و مضمرة أخرى مشكّلة عتبات حقيقيّة، وجب البحث في كنهها.

الكلمات المفتاحيّة: نصّ تراثي، رحلة، رحّالة، نسق، أدبيّ، معرفيّ، اجتماعيّ

Résumé

Les gens voyageaient et se déplaçaient d'un endroit à un autre, beaucoup d'entre eux, et les scientifiques en particulier, enregistraient leurs voyages, restreignaient leurs événements, enregistraient leurs aventures à travers des alkos narratifs, et résultaient de la littérature de voyage, cette mésaventure humaine, qui est ouverte à une connaissance différente. C'était aussi le voyage bien connu et bien connu du bien éthiopien dans la connaissance de la date et des nouvelles..

Le voyage est un genre littéraire saisonnier, l'ouvrant à différentes sciences et connaissances, et le voyage du Husayn de la Rosthelan, qui comprenait un tonnerre de voix et de discours, est le plus complexe du monde des expériences, chargé par ses traditions humaines et intellectuelles multiculturelles.
Cette étude critique du texte sur le patrimoine autochtone, marquée par "une bonne vue dans la science de l'histoire et de l'actualité", montre combien les approches monétaires modernes sont efficaces, en particulier pour révéler les multiples contextes culturels dans le texte unique, à partir littéraire, cognitive, social, et autre, ce texte culturel qui est différent dans notre vie, et qui est différent dans son apparence. Pour mettre l'accent sur les structures et les structures culturelles dans ce texte, parfois, et encore une fois, un problème de seuils réels, il est nécessaire de les examiner.
Mots clés : Patrimoine, voyage, dentelle, thème, littérature, savoir, social

Abstract :

People used to travel and move from one place to another, many of them, and scientists in particular, recorded their trips, restricted their events, recorded their adventures through narration alkos, and resulted from the Trip Literature, this human misadventure, which is open to a different knowledge. It was also the well-known and well-known journey of the Ethiopian good in the knowledge of the date and the news.

The trip is a seasonal literary genus, opening it to different sciences and knowledge, and the Husayn's journey of the Rosthelan, which included a thunderous of voices and speeches, is the world's most complex of experiences, burdened by its multicultural human and intellectual traditions.
This critical study of the Native Heritage text, marked by "a good sight in the science of history and news", shows how effective modern monetary approaches are, especially in revealing the multiple cultural contexts within the one text, from literary, cognitive, social, and other, this cultural text that is different in our life, and that is different in its appearance. In order to focus on cultural structures and structures in this text, sometimes, and again, a problem of real thresholds, it is necessary to look at them.

Keywords: Heritage text, journey, travel, lace, theme, literary, knowledge, social